أسرار الكنيسة السبعة

الأرشيدياكون
حبيب جرجس

مكتبة المحبة

أسرار الكنيسة السبعة

الحكمة بنت بيتها . نحتت اعمدتها السبعة (أم ٩ : ١)

تأليف

الارشيدياكون حبيب جرجس

مدير الكلية الاكليريكية للاقباط الارثوذكس سابقاً

الطبعة السادسة

مكتبة المحبة

MB

١٨/١

قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

تمهيد

١ ـ ماذا يعنى بكلمة « سر» فى الكتاب المقدس :

لكلمة « سر» فى الكتاب معناها الاعتيادى المعروفة به كما فى قوله « وعمل بنو اسرائيل سرا » (٢ مل ١٧ : ٩) وقوله : « لا تبح بسر غيرك » (أم ٢٥ : ٩)

غير أن لها معنيين آخرين . فيراد بها أولا كل شيء مقدس وغير منظور كما فى الآيات الآتية :

« سر الرب لخائفيه »	(مز ٢٥ : ١٤)
« لدانيال كشف السر»	(دا ٢ : ١٩)
« يعلن سره لعبيده الأنبياء »	(عا ٣ : ٧)
« لتعرفوا أسرار ملكوت السموات »	(مت ١٣ : ١١ ، لو ٨ : ١٠)
« بالروح يتكلم بأسرار»	(١ كو ١٤ : ٢)
« وأعلم جميع الأسرار»	(١ كو ١٣ : ٢)
« لست أريد أن تجهلوا هذا السر»	(رو ١١ : ٢٥)
« السر الذى كان مكتوما »	(رو ١٦ : ٢٥)
« نتكلم بحكمة الله فى سر»	(١ كو ٢ : ٧)
« هوذا سر أقوله لكم »	(١ كو ١٥ : ٥١)
« اذ عرفنا بسر مشيئته »	(اف ١ : ٩)
« هذا السر عظيم »	(اف ٥ : ٣٢)
« لأعلم جهارا بسر الانجيل »	(اف ٦ : ١٩)
« ولهم بسر الايمان »	(١ تى ٣ : ٩)
« عظيم هو سر التقوى »	(١ تى ٣ : ١٦)

وتأتى كلمة « سر» فى الكتاب أيضا بمعنى « رمز أو اشارة أو علامة » فقول دانيال فى ص ٢ بعد وصف التمثال الذى رآه نبوخذ نصر « ان هذا سر» يعنى به علامة لأمور خفية . اذ يشير الى تعاقب أربع ممالك يظهر بعدها ملك المسيح . وكما جاء فى قول صاحب الرؤيا « سر السبعة

كواكب التى رأيت على يمينى والسبع المناير الذهبية . السبعة الكواكب هى ملائكة السبع الكنائس والمنابر السبع التى رأيتها هى السبع الكنائس » (رؤ ١ : ٢٠) .

كذلك جاء فى سفر الرؤيا (ص ١٧ : ١ — ٧) من وصف الزانية الجالسة على المياه قوله « وعلى جبهتها اسم مكتوب سر » وقال الملاك « أنا أقول لك سر المرأة » أى أفسر لك رمزها . وقال بولس الرسول « لأن سر الاثم الآن يعمل » (٢ تس ٢ : ٧) مشيرا بذلك الى الاضطهادات التى ستقاسيها الكنيسة من الملوك الاثمة . وتلك الاضطهادات رمز لاضطهادات المسيح الدجال .

٢ — تعريف السر الكنسى :

أما أسرار الكنيسة فقد جاءت فى الكتاب بمعنى مواهب ولها علامات تشير الى أمور مقدسة خفية .

مثال ذلك قول الرسول عن الزواج « هذا السر عظيم ولكننى أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة » (اف ٥ : ٣١) ومعنى ذلك أن الاتحاد المحسوس بين الرجل وزوجته علامة أو رمز الى أمر روحى مكنون هو وحدة القلب والروح التى تشبه اتحاد المسيح والكنيسة .

فالسر الكنسى اذن معناه نعمة غير منظورة نحصل عليها بممارسة طقس ظاهر ذى علاقة بها على يد كاهن شرعى .

و يشترط فى علامة السر أن تكون أولا شيئا محسوسا وثانيا أن تؤدى الى معرفة شىء آخر . لأن العلامة لا توضع للدلالة على نفسها . بل لا بد لها من شىء تشير اليه .

وفى هذا المعنى يقول بولس الرسول عن المعمودية « أم تجهلون اننا كل من اعتمد ليسوع المسيح ، اعتمدنا لموته » (رو ٦ : ٣) كأنه يقول ان طقس المعمودية يشير الى موت المسيح ودفنه وقيامته . وكذلك الحال فى سر الافخارستيا اذ يقول : « فانكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب الى أن يجىء » (١ كو ١١ : ٢٦) .

٣ — مناسبة الاسرار للطبيعة البشرية :

وهذا الترتيب الذى وضعه الله فى كنيسته موافق ومناسب لطبيعتنا التى مراعاة لجزئها الحسى تميل الى العلامات الحسية فى العلاقات الدينية . ولهذا رتب الله لموسى علامات كثيرة لاجل بنيان شعب اسرائيل فى التقوى . كالختان ، والكهنوت ، والكفارة ، والحمل الفصحى ، وخبز التقدمة . وكلها علامات حسية تشير الى البر الذى كان عتيدا ان نناله بذبيحة المسيح .

وبناء عليه يكون السر فى اصطلاح الكنيسة عملا مقدسا به ننال نعمة غير منظورة تحت مادة او علامات منظورة . وهو مرتب من ربنا يسوع المسيح الذى به ننال النعم الالهية .

التشابه بين الاسرار وبين ما تشير اليه :

فأسرار الكنيسة اذن فى مظاهرها الطقسية اعمال تشير الى تطهير النفس وتجديدها بالنعمة . وهى مطابقة للقصد الالهى الذى وضعت من أجله ، اذ يوجد تشابه كلى بينها و بين ما تشير اليه . خذ مثلا الغسل بالماء فى المعمودية ، فانه يشير بأسلوب مناسب الى غسل النفس من أدران المعصية ، كذلك الزيت فى سر الميرون وسر مسحة المرضى ، فانه أنسب مادة للدلالة على قوة السر لتسكين أوجاع الجسد وتقويته ، وقس على ذلك بقية الاسرار.

وقد قال بعضهم : كما أنه يوجد فى الطب الجسدى ثلاثة انواع من الادوية : نوع يحسم الداء بعد وروده . ونوع يسبق الداء و يقى منه . ونوع يقوى البدن بالاكثار من الجواهر الحيوية التى تمنع ضعفه ، كذلك الاسرار السبعة المقدسة التى أعطانا اياها طبيبنا الروحى ومخلصنا . فانها تقوم بهذه الوظائف الثلاث عينها .

فنها المعمودية والتوبة ومسحة المرضى ، تعتبر أدوية روحية للشفاء من الخطية الاصلية والخطايا الفعلية . وهى أدوية يحتاج اليها كل الناس .

ومنها الزيجة والميرون ، وهما دواءان للانتصار، أحدهما للنصرة على الشهوات . والثانى لاضعاف القوى الغضبية . وفى ذلك وقاية وتحصن من الخطايا .

أما الكهنوت وسر القربان ، فانهما ينميان فينا العافية الروحية المكتسبة من الاسرار الاخرى .

على ان من هذه الاسرار ما يرسم على قابليه سمة روحية لا تمحى ولذلك لا يعاد ، وهى المعمودية والميرون والكهنوت . فبالمعمودية نوسم كأبناء الله ، و بالميرون نوسم كجنود للكهم الاعظم ، و بالكهنوت نوسم كخدام لحبرهم الاعظم .

٥ ــ جوهر الاسرار وفعلها :

وحسب التعريفات المتقدمة تكون الاسرار فى جوهرها هبات ، وبممارسات مقدسة تمنح النعمة الالهية فعلا للمتقدمين اليها . و يتم بواسطتها عمل هذه النعمة فينا . وهذه هى أوصاف جوهرها بناء على ما تقدم :

١ ــ انها مؤسسة من الله .
٢ ــ انها ذات هيئة أو صورة .
٣ ــ انها واسطة لانالة نفوس المؤمنين فيض النعمة .
فليست الاسرار اذن رسوما وعلامات للمواعيد الالهية يقصد بها انهاض الايمان بيسوع المسيح .

ولا هي اشارات للنعمة يتوطد بها المنتخب و يتثبت في الايمان وفي المواعيد الالهية التي نالها ، أو بالحرى هو يوطد الكنيسة بايمانه أكثر مما يوطد نفسه .

ولا هي مجرد طقوس خارجية يتميز بها المسيحي عن غيره .
هذه الآراء الثلاثة (حسب زعم لوثيروس وكلفينوس) ترفضها كنيستنا الارثوذكسية لانها مخالفة للكتاب . ولاجل اثبات بطلانها نأتي بالآيات التي تؤيد فاعلية الاسرار، وتثبت أن هذه الاسرار في جوهرها هبات و بأعمال مقدسة تمنح المؤمنين نعم الله غير المنظورة تحت علامات منظورة . واليك هي :

أولا : ان الكتب المقدسة تقرر هذا الرأي فقد قيل عن المعمودية « ان كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله . الحق الحق أقول لك أن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو٣: ٣ و ٥) ، « المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح » (يو٣ : ٦) ، وقول الرسول « كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لاجلها . لكي يقدسها مطهرا اياها بغسل الماء بالكلمة . لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة ، لا دنس فيها ولا غضن ، أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة و بلا عيب » (أف ٥ : ٢٥ ــ ٢٨) وقوله « لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع و بروح الهنا » (١ كو٦ : ١١) .

وفي سر الشكر يقول « الحق الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم . من يأكل جسدي و يشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الاخير. لان جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق . من يأكل جسدي و يشرب دمي يثبت في وأنا فيه » (يو٦ : ٥٣ ــ ٥٦) .

وفي سر الكهنوت يقول الرسول « لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي القسوسية » (١ تي ٤ : ١٤) وقوله « أذكرك أن تضرم أيضا موهبة الله التي فيك بوضع يدي » (٢ تي ١ : ٦) .

وعن سر الميرون جاء في سفر الاعمال : « ولما سمع الرسل الذين فى أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله ، أرسلوا اليهم بطرس و يوحنا اللذين لما نزلا صليا لاجلهم لكى يقبلوا الروح القدس ، لانه لم يكن قد حل بعد على أحد منهم غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع . حينئذ وضعا الايادى عليهم فقبلوا الروح القدس » (أع ٨ : ١٤ ــ ١٧) .

وعن سر مسحة المرضى قال يعقوب الرسول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه و يدهنوه بزيت باسم الرب . وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه . وان كان قد فعل خطية تغفر له » . (يع ٥ : ١٤ و١٥)

وعن سر التوبة قال الرب بصريح اللفظ « من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢ : ٢٣) .

وعن سر الزواج قال الرسول « هذا السر عظيم » وشبهه باتحاد المسيح بالكنيسة (اف ٥ : ٣٢) .

فمن هذه الآيات البينات يتبين أن الاسرار المقدسة هي هبات الروح القدس الذى يفيض النعم المبررة في نفوسنا . فالاسرار تفعل فعلا حقيقيا فى المؤمن المشترك بها . فان الماء والروح فى سر المعمودية يلده ثانية و يقدسه و ينقيه . ومسحة الميرون تمنحه ثباتا وتهبه حلول الروح القدس . و بتناوله سر الشكر يوهب عدم الموت والثبات فى المسيح . و بوضع اليد فى الكهنوت تمنح للمرتسمين نعمة خاصة لتكريسهم لخدمة الاسرار المقدسة بحسب طبيعته وجوهره يفعل فعلا غير منظور ويمنح النعمة لكل من يتقدم اليه .

ولا نقول ان للاسرار فى ذاتها وطبعها قوة لفعل النعمة ، لولم تكن آلات من الله لفعل هذه النعم . فهى اذن بركات فعالة لاصدار النعمة ، وان كانت ليست عللا اصلية الا انها قوة فى يد الروح القدس .

ثانيا : يظهر ذلك من تعليم الانجيل عن الفرق بين معمودية يوحنا ومعمودية المسيح فان معمودية يوحنا لم تكن سوى معمودية للتوبة والاعداد حسب قوله « انا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى (أى المسيح) سيعمدكم بالروح القدس ونار» .

(مت ٣ : ١١ راجع أيضا مر ١ : ٧ و٨ ، لو ٣ : ١٦ ، يو ١ : ٣٣)

فمعمودية يوحنا كانت استعدادا لمغفرة الخطايا ، ولم تكن لها قوة على محو الخطيئة . أما

معمودية المسيح فلها قوة غفران الخطايا لانها تمنح بالماء والروح القدس ، ولما كانت مفاعيل الروح القـدس الخاصة هي محو الخطايا وتقديس النفوس ، فالفرق اذن واضح بين المعموديتين ، ومن هنا يتضح أن أسرار العهد الجديد لها قوة وفاعلية بالروح القدس .

ثالثا : من تعليم الكتاب أن اسرار العهد الجديد تمنح النعم الالهية بخلاف أسرار العهد القديم ، التى لم تكن الا رمزا وظلا للخيرات العتيدة حسب قول الرسول « لان الناموس اذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الاشياء لا يقدر أبدا بنفس الذبائح كل سنة التى يقدمونها على الدوام أن يكمل الذين يتقدمون » (عب ١٠ : ١) « وأنها رمز للوقت الحاضر لا يمكن أن تكمل » (عب ٩ : ٩ — ١٤) « وأن الناموس كان مؤدبنا الى المسيح » (غل ٣ : ٢٤) « اذ الناموس لم يكمل شيئا ولكن يصير ادخال رجاء أفضل به نقترب الى الله » (عب ٧ : ١٩) ولكن عن أسرار العهد الجديد يقول الرسول « و به أيضا (أى المسيح) ختنتم ختانا غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح ، مدفونين معه فى المعمودية التى فيها أقمتم ايضا معه بايمان عمل الله الذى أقامه من الأموات » (كو ٢ : ١١ و ١٢) لان النعمة والحق وروح النبوة وختان القلب بالروح ، كل ذلك من خصائص العهد الجديد . فاذن التعليم بفاعلية الاسرار المقدسة هو روح الانجيل .

ورب معترض يقول ان هذا التعليم ينسب للاسرار قوة فى ذاتها . فنجيب على ذلك أن الماء والزيت ووضع اليد وغيرها ليس لها قوة فى ذاتها للتطهير والتقديس . ولكن لها ذلك بقوة الروح القدس . ومثال ذلك الطين الذى وضعه السيد المسيح على عينى الاعمى ، فانه لا يوجد من يقول ان للطين قوة فى ذاته للشفاء وانما الشفاء كان بقوة المسيح ، ولم يكن الطين الا آلة وأداة . وكما أن قلم المصور ليس له فى ذاته قوة على التصوير ، بل أن له هذه القوة فى يد المصور ، هكذا أسرار العهد الجديد ليس لها فى ذاتها قوة للنعمة ، ولكنها لها قوة لاصدار النعمة بواسطة الروح القدس ، وان العلة الاصلية لانشاء هذه المفاعيل هى الروح القدس .

رابعا : لو كانت طقوس الاسرار عبارة عن علامات أو رسوم تميز المسيحى عن غيره لانتفت الفائدة منها بالكلية ، اذ ليست هى علامات ظاهرة تترك أثرا فى الشخص حتى يظهر أنه مسيحى و يتميز عن غيره ، وانما هى اعمال ، الغرض منها تأثير النعمة الداخلية بواسطتها .

خامسا : ان الاسرار هى بركات ونعم المسيح ، تفاض على المؤمنين ، فلو كانت عديمة القوة والفاعلية لما كانت لنا بها حاجة قط ما دامت لا تأثير لها ولا فعل . .

سادسا : ان الكنيسة اعتادت أن تمنح الاطفال منذ القديم سر المعمودية وسر الميرون وسر الشكر . فلو كانت هذه الاسرار عبارة عن رسوم فقط لانهاض الايمان ، وليست نعما فعالة

لحياة البشر ، لما كان من ورائها أية منفعة للاطفال وهم لا يدركون لها معنى ولا يعرفون ما هو الايمان ، ولا ما هى الغاية التى لاجلها تمنحهم الكنيسة هذه الاسرار.

سابعا : ان الله هكذا رتب وهكذا سر وارتضى أن تكون أسراره وسائط لنيل بركاته ونعمه ، وكان طبيعيا أن ينال البشر الماديون مواهبه السامية غير المنظورة تحت وسائط محسوسة منظورة تناسب طبيعتهم . فهو تعالى رتب لهذه الاسرار موادا لتكون آلات منظورة بها يشترك المؤمنون فى نعم الروح القدس ، وهو الذى أسسها لهذا الغرض ، وارادته لا تزال نافذة . وكل اعتراض على فعلها انما هو اعتراض على شخص الفادى ، الذى رتبها وأسسها ووضعها ، وأمر باتمامها على هذا الشكل ، ووعد ان يكون لها فاعلية . وهو تعالى ليس انسانا فيكذب أو ابن انسان فيندم . وفى هذا المعنى قال القديس يوحنا ذهبى الفم : « أيها المسيحى لو كنت عاريا عن الجسد لكانت عطايا الله تمنح لك على هذا النمط ، ولكن حيث أن نفسك متحدة بجسدك فلزم أن الله يقدم لك بعلامات محسوسة ما لا يدرك الا بالعقل » .

ثامنا : ان هذا التعليم هو تعليم الكنيسة منذ الاجيال الاولى . قال القديس اثناسيوس الرسولى « كما أن الانسان اذ يعمد من الانسان ، أعنى الكاهن ، يستنير بنعمة الروح القدس ، كذلك المعترف بخطاياه فى التوبة ينال الصفح بنعمة يسوع المسيح بواسطة الكاهن » (خطاب فى معمودية المسيح) .

وقال العلامة ترتوليانوس : « ان الجسد يغسل لتطهير النفس ، والجسد يمسح لتقديس النفس ، والجسد يرسم لتأييد النفس ، والجسد توضع عليه الايدى لتستنير النفس بالروح ، والجسد يقتات بجسد المسيح ودمه لتشبع النفس بالله » .

وقال القديس كيرلس الاورشليمى : « تقدموا الى المعمودية لا كماء بسيط كما تمنح به النعمة الروحية » (عظة ٣ : ٢) وقال ايضا « احترس من ان تظن ذاك الميرون مادة بسيطة لانه كما أن خبز الشكر بعد استدعاء الروح القدس لا يكون خبزا بسيطا بل جسد المسيح ، وهكذا هذا الميرون المقدس لا يكون بعد الدعاء دهنا بسيطا ، ولا يمكن أن يسمى عاديا، لكن موهبة المسيح والروح القدس ، اذ يصير فعالا بحضور لاهوته ، فبه تمسح رمز يا جبهتك وكل حواسك . واذن فالجسد يدهن بالميرون الظاهر، وأما النفس فتقدس بالروح القدس المحيى » (فى الاسرار تعليم ٣ : ٣) .

وقال القديس غريغوريوس النيسى : « وان كان الماء ليس شيئا آخر سوى ماء ، ولكن اذ يقدس من فوق بالنعمة يجدد الانسان بالتجديد الروحانى . وان ارتاب أحد وسألنى بلا فتور

مخاصها ایای کیف أن الماء یعید الولادة ؟ فأقول له بایمان حسن ، فسر لی أنت کیف تدرك الولادة الجسدیة ، وحینئذ أقول لك کیف تصیر الولادة الروحیة » (مقالة للذین یضجرون من القوانین) .

وقال القدیس یوحنا ذهبی الفم : « هکذا فی المعمودیة أیضا فبالشیء الحسی تحصل منحة الماء ، وأما المتمم فعقلی أعنی الولادة والتجدید » (تفسیر انجیل متی — مقالة ٨٢ : ٤) .

وقال القدیس باسیلیوس الکبیر : « ان الاشتراك کل یوم ، وتناول جسد ودم المسیح المقدسین ، جید ومفید لانه هو (أی المسیح) یقول صریحا من یأکل جسدی و یشرب دمی فله حیاة أبدیة ، فمن یرتاب فی ان الاشتراك بالحیاة علی وجه متواصل لیس الا حیاة متنوعة » (رسالة ٩٣) .

وقال القدیس امبروسیوس : « من یمنح نعمة الدرجة الاسقفیة ؟ الله أم الانسان ؟ فانکم تجیبون ان الله یمنحها . ولکن الله یمنح النعمة بواسطة الانسان ، فان الانسان یضع الایدی ، والله یسکب النعمة . الکاهن یضع یمینه الحقیرة ، والله یبارك بیمینه القادرة علی کل شیء . الاسقف یشرطن الخادم للخدمة ، وأما الله فانه یمنحه الکفایة (فی الوظائف الکهنوتیة فصل ٥) .

فمن هذه الاقوال المتقدمة یتضح جلیا اعتقاد الکنیسة منذ القدیم فی فعل الاسرار وتأثیرها . وما الآراء الحدیثة الا تعالیم غریبة مخالفة للکتاب ولاعتقاد الآباء .

٦ — مفعول الاسرار:

للاسرار مفعولان وهما النعمة والوسم . المفعول الاول عام یشمل جمیع الاسرار، والثانی خاص بثلاثة منها وهی المعمودیة والمیرون والکهنوت . ولذلك تمنح للانسان مرة واحدة ، ولا یجوز اعادتها لانها تترك وسما فی النفس لا یمحی .

والنعمة المبررة تمنح أولا بالمعمودیة ثم بالتوبة ثم تزداد هذه النعمة بواسطة سر الشکر . والنعمة المبررة ، هی ما یتبرربها الانسان و یصیر ابنا لله ووارثا للحیاة الابدیة .

وعلی ذلك فالاسرار المقدسة تمنح هذه النعمة . ومتی قبل الانسان سرا من الاسرار فقد نال النعمة المقصودة من ذلك السر .

واما الوسم فهو علامة روحیة تنطبع فی النفس ولا تمحی . وبهذا الوسم یتمیز المؤمنون عن غیرهم أمام الله والملائکة والقدیسین . وهذه العلامة لا تمحی لأن هذا الوسم ینطبع فی النفس ،

ومن خصائصه الديمومة . وليس هو مجرد زينة فى النفس بل هو صفة أو قوة تعد الانسان لقبول ما يخص عبادة الله .

وهذه الاسرار تمنح النعمة من ذاتها و بقوتها التى وضعها الله فيها ، قلنا من ذاتها و بقوتها لان صدور النعمة معلق على مباشرة طقس السر الخارجي ، أى على تطبيق مادة السر وصورته ، لا على ايمان خادم السر . وقلنا بالقوة التى وضعها الله فيها ، لان الاسرار هى هبات للمؤمنين تحمل النعم والبركات . أما العلة الاصلية فهى الرب يسوع المسيح مانحها ومؤسسها الذى يؤتى السر قوته وفاعليته على منح هذه النعم ، فكما أن الآلة تبرز المعلول رأسا بالقوة التى تتصل اليها من العلة الاصلية ، هكذا الاسرار فانها تصدر النعمة رأسا بذاتها و بقوتها التى وضعها الله فيها .

وعلى ذلك لا يكون مفعول الاسرار انماء الايمان فقط أو أنها ختوم على المواعيد الالهية ، ولكنها تمنح النعمة . فبها يتطهر الانسان ، و يولد ثانية ، و يتجدد وتغفر خطاياه ، وبها يقبل الروح القدس ، وبها يتحد مع المسيح و يثبت فيه ويحيا الى الابد . قال القديس باسيليوس « ان النفس تتجدد بالمعمودية » (ميمر ١٣ : ٥) والقديس غريغوريوس النزينزى فى خطابه على اعتماد المسيح يدعو المعمودية « تطهير الخطايا وغفران الذنوب وعلة التجديد والميلاد الثانى » وقال أيضا « كما أن فى أحشاء الام قوة لمنح الحياة الجسدية هكذا ماء المعمودية قد نال قوة لمنح الحياة الروحية » .

وقد انكر أتباع **لوثر وكلفن** وجود الوسم الذى تطبعه الاسرار الثلاثة وهى المعمودية والميرون (التثبيت) والكهنوت ، زاعمين أن الكتاب لم يذكر شيئا عن ذلك .

فنرد عليهم :

١ ــ ان الكتاب يشير الى هذا الوسم . قال الرسول بولس : « ولكن الذى يثبتنا معكم فى المسيح وقد مسحنا هو الله الذى ختمنا أيضا وأعطى عربون الروح فى قلوبنا » (٢ كو ١ : ٢١ و٢٢) وقال « الذى فيه أيضا اذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس » (اف ١ : ١٣) وقال « لا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم ليوم الفداء » . (اف ٤ : ٣٠)

٢ ــ جميع الآباء يشيرون الى هذا الختم وهذا الوسم . قال القديس كيرلس الاورشليمى : « ان الروح القدس فى المعمودية يسم النفس ويمنح ختما ترتجف منه الشياطين خوفا . ختما سماويا والهيا » كما كتب الرسول بولس الى أهل أفسس : « الذى فيه أيضا اذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس » (١ : ١٣) وهكذا القديس باسيليوس (فى خطاب ٣ على العماد) ، والقديس أبيفانيوس (فى الارطقات ٥ : ٦) والقديس غريغوريوس النزينزى

(خطاب ٤٠ : ٤) وغريغوريوس نيصص (فى خطابه على التوبة) فجميعهم علموا أن المعمودية تطبع على النفس وسما مقدسا لا يمحى ، وشبهوا هذا الوسم . مع الفارق . بالعلامة التى وضعها الاسرائيليون على بيوتهم فى مصر ، أو بالختان الذى به كانوا يمتازون عن باقى الشعوب . ودعاه القديس امبروسيوس « ختما روحيا » (ك أ فى الروح القدس راس ٦/: ٧٨) ودعاه القديس اغسطينوس « وسما » بقوله « تمسك بما نلته فانه لا يتغير فهو وسم ملكى » (مقالة فى يوحنا عدد ١٦) وقال « ان المعمد فى الكنيسة اذا ترك الكنيسة يحرم قداسة الحياة ولكنه لا يحرم وسم السر » (عظة ٨) .

٣ ــ انه من اللائق بمن ينتدب الى وظيفة أو يقبل سلطانا أن يوسم بعلامة تميزه عن غيره ، كما يرتدى الجنود والكهنة والملوك ملابس خصوصية يتميزون بها عن سواهم . والحال أن المؤمنين يقبلون هذه الاسرار الثلاثة المذكورة وظيفة روحية وسلطانا خصوصيا . فيصير الانسان بالمعمودية ابنا لله وعضوا من عائلة المسيح وابن للكنيسة وأهلا لقبول الاسرار. و بالتثبيت أو الميرون يصير جنديا للمسيح . و بسر الكهنوت يصير خادما للمسيح وقائد فى جيشه و يقبل السلطان على توز يع الاسرار.

ينتج مما تقدم بأن هذه الاسرار الثلاثة تطبع على النفس سمة خاصة وختما لا يمحى . وهذا الوسم ثابت ودائم لا يمحى ، لا فى هذه الحياة ولا فى الاخرى . اذ من المناسب أن يبقى فى الطوباو يين لمجدهم ، وفى الهالكين لخزيهم وعارهم . كما أن الوسم العسكرى يبقى بعد القتال فى الجنود المنتصر ين لمجدهم ، وفى المغلو بين لخزيهم .

٧ ــ شروط اتمام كل سر من الاسرار ودحض الآراء الفاسدة فى هذا الشأن :

ولا تمام كل سر من الاسرار ثلاثة شروط هى :

١ ــ مادة ملائمة للسر كالماء للمعمودية ، والخبز والخمر لسر الشركة . والز يت للمسحة وهكذا .

٢ ــ كاهن مشرطن قانونيا بوضع اليد .

٣ ــ استدعاء الروح القدس من الكاهن بالعبارات المعينة لتقديس السر لحلول الروح القدس .

أولا : يجب اتمام الاسرار اتماما قانونيا حسب الترتيب المعطى من الله . فان مخلصنا له المجد الذى أسسها ورتبها ، هكذا شاء وهكذا وضع لكل سر من الاسرار مادته الملائمة واقواله الخاصة . وعليه لا يكون السر حقيقيا ولا يفعل فى المؤمنين الا اذا كان على وجهه الصحيح طبق ارادة الرب المعلنة فى انجيله .

وثانيا : يتممها كاهن مشرطن قانونى سواء أكان أسقفا أو قسا . وهذا واضح من أن الرب أعطى لرسله ولخلفائهم الكهنة هذا السلطان وأقامهم لهذا الغرض نفسه . وعلى ذلك قد ضل ضلالا فظيعا مخالفا للكتاب أولئك الذين يعلمون أن كل مسيحى يقدر أن يتمم الاسرار، وان لم

يكن حاصلا على درجات الكهنوت ، حتى سمحوا للعامة وللنساء أيضا باتمام الاسرار. وهذا ظاهر البطلان لمخالفته للكتاب ، والوضع الرسولي ، والعادة الكنسية ، فضلا عن اهانته للديانة وشرفها اذ يجعل الكنيسة فوضى لا ترتيب ولا نظام لها .

وقد زعم البعض أنه يشترط لصحة اتمام السر ايمان المسيحي المتقدم اليه . وأن هذا الايمان هو الذى يجعل السر حقيقيا ، متوهمين أن السر لا يكون سرا ، ولا يأخذ قوته الا فى البرهة التي فيها يقتبله . كما زعم البعض الآخر بأنه من الشروط الضرورية لا تمام الاسرار وفاعليتها أن يكون خادم السر صالحا ، وانكروا أهمية فعل الاسرار المتممة من خدام غير صالحين .

فنرد على الزعم الأول الذى يجعل قوة السر متوقفة على ايمان ونية المتقدمين اليه فنقول : انه من الواجب على المتقدمين الى الاسرار المقدسة أن يؤمنوا ايمانا حيا و يستعدوا الاستعداد اللائق لاقتبالها . ولكن هذا الاستعداد وهذا الايمان لا يجعلان السر سرا . وعدمهما لا يعدم السر قوته في جوهره ، بل هما فرضان واجبان وضروريان يجب على المؤمنين اتمامهما لنيل بركة الاسرار عن استحقاق ، حتى لا يأخذوا لانفسهم دينونة فقد جعل الرب يسوع كل موهبة من مواهب الروح القدس مرتبطة ارتباطا جوهريا بعلامة معينة منظورة ، حتى اذا تمم كل سر بحسب وضعه منح قابله الهبة الخاصة به . وقد رأينا آباء الكنيسة منذ القديم يمنحون بعض هذه الاسرار للاطفال ، موقنين كل اليقين بأنها تفعل فعلها فيهم ، وان كانوا غير قادرين أن يعلنوا ايمانهم واعترافهم بالمسيح . و بولس الرسول يشير الى الذين يقتربون من الاسرار بدون استحقاق « بأنهم يأكلون و يشربون دينونة لانفسهم غير مميزين جسد الرب » (١ كو ١١ : ٢٩) وهذا دليل على أن السر في ذاته له قوته الخاصة ، ولكن المقترب اليه بدون استحقاق لا يستحقه . ولو صح أن لا فعل للاسرار ولا قوة الا فى الذين يؤمنون بها فقط ، لكانت بركات الاسرار استحقاقات المؤمنين ، لا بركات واستحقاقات الفادى ، وهذا مخالف لروح الانجيل الذى يعلمنا أن جميع الهبات والنعم انما هى بركات الفادى له المجد . وطبيعة الارواء فى الماء ليست متوقفة على ايمان الشارب منها .

ونرد على **الزعم الثاني** الذى ينكر صحة الاسرار المتممة من خدام غير صالحين . ونبين بطلانه عند كلامنا على خادم الاسرار.

٨ ــ خادم الاسرار:

ان خادم الاسرار هو من يتممها باسم المسيح على أنه قائم مقامه ، وهو الكاهن المعتبر كوكيل الله والامين على سرائره . ومن واجب الخادم بالنسبة الى اتمام عمل الاسرار أن يكون ذا

ايمان وصلاح ونية حسنة لا تمام السر ، وبما أن الكاهن المنتدب من قبل الله تعالى لا تمام الاسرار المقدسة وتوزيع بركات الله ونعمه على المؤمنين ، فيدعوه هذا الواجب أن يكون ذا سيرة حسنة ومثالا للكمال والقداسة كما سنبين ذلك فى كلامنا عن سر الكهنوت ، ولكننا نرد هنا على زعم **دوناتيوس** وزعم أتباع **لوثر وكلفن** الذين زعموا أن الاسرار التى يتممها خدام أثمة تكون باطلة و يلزم اعادتها فنقول :

١ ــ ان صحة السر لا تقتضى لا ايمان الخادم ولا صلاحه أى وجوده فى حالة النعمة ، وذلك لان قوة السر والنعمة التى تمنح به ليست متعلقة بخادمه ، ولا متوقفة على استحقاقه . بل هى متعلقة رأسا باستحقاق وارادة مخلصنا يسوع المسيح ، الذى يمنح النعمة . وما الخدام الا آلات منظورة يتمم الرب أسراره بهم وعلى أيديهم بطريقة سرية غير منظورة . فقد سبق يوحنا المعمدان وأخبر عن الرب يسوع بأنه « يعمد بالروح القدس ونار» (مت ٣ : ١١ ، يو ١ : ٣٣) وافادنا يوحنا الانجيلى أن « يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه » (يو ٤ : ٢) و بولس الرسول يقول « ليس الغارس شيئا ولا الساقى بل الله الذى ينمى » (١ كو٣ : ٧) وهذا هو روح تعليم الكتاب الذى سارت عليه الكنيسة فى كل العصور.

٢ ــ ان هذا الزعم ينتج نتائج فاسدة اذ يسبب الريب والقلق على الدوام بشأن صحة الاسرار التى يكون قد قبلها المؤمنون ، اذ لا يمكن لاحد أن يتحقق هل خادم السر مؤمن وصالح أم لا ، ولا يخفى أن هذا مضر بكنيسة الله وبحياة المؤمنين ، لأنه يزيد فى عدد المتشككين والمرتابين و يقلل عدد الذين يتقدمون الى الاسرار. ولو تعلقت فاعلية الاسرار بقداسة الخادم أو عدمها لصارت فوائدها والغاية منها تحت رحمتهم ورهن تصرفاتهم .

٣ ــ لو حرم الخادم غير الصالح من اتمام الاسرار لوجب حرمان كل خاطىء من اتمام جميع الاشياء التى ينتدب اليها ، وعليه يجب حرمه من سلطان النهى والامر والتدبير والتعليم حتى الحياة نفسها .

٤ ــ ان الله تعالى الكلى الصلاح والقداسة يستطيع أن يصنع الخير و يوزع بركاته باستخدامه الابرار والاشرار على السواء ، فقد كان بلعام خاطئا ومع ذلك تنبأ على مجىء المخلص ، وكان يهوذا بين التلاميذ يبشر بملكوت الله ومع ذلك هلك ، وكان قيافا رئيسا للكهنة وتنبأ عن موت المسيح وهو يحكم عليه بالصلب .

٥ ــ قد اعترف بذلك جميع الآباء . قال القديس اثناسيوس الرسولى « ان الكاهن لا يقدس الماء بل يتمم الخدمة الواجبة وقد أخذ لها نعمة من الله » (فى الثالوث فصل ٤٠) وقال « ان عمدنا وان ثبتنا وان صفحنا فان المسيح هو علة هذا كله وفاعله » (فى رسالة ٣ : ٧) .

وقال القديس كيرلس الاورشليمي « لان النعمة ليست من بشر لكن من الله بواسطة البشر ، فأنت اذن من المعمد ، وعندما تدنو لا تنظر الى الشخص الذى تراه ، بل أذكر الروح القدس الذى كلامنا الآن عنه لانه حاضر ومستعد لان يختم الآن نفسك ويمنحك ختما » (عظة ١٧ : ٣٥) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « أن اليد توضع على الرجل والله يعمل كل الامر ، و يده هى التى تلمس رأس المشرطن ان كان يشرطن كما يجب » (مقالة ١٤ : ٣ على الاعمال) وقال « فآمنوا اذن أن هذا العشاء هو العشاء الذى اتكأ فيه هو (أى المسيح) لانه لا فرق بين هذا وذاك . وليس الانسان يصنع هذا وهو صنع ذلك ، بل هو الصانع ذاك وهذا . فعندما ترى الكاهن يناولك لا تظن أن الكاهن يفعل هذا الفعل . بل اعترف ان اليد الممدودة هى يد المسيح . وكما أن الكاهن عندما يعمدك ليس هو الذى يعمدك بل الله هو الضابط رأسك بقوة غير منظورة . ولا يتجاسر ملاك أو رئيس ملائكة أو واحد غيرهما أن يدنو منك و يلمسك ، هكذا الآن ايضا لانه عندما يخلق الله تكون الموهبة منه وحده » (مقالة ٥ : ٣ على متى) وقال « لانه يتفق أن يكون الرؤساء أشرارا ودنسين ، و يكون المرؤوسون ودعاء لطفاء . وأن يكون العلمانيون عائشين بالتقوى والكهنة بالخبث . فلو كانت النعمة فى كل واحد متوقفة على الاستحقاق لما كانت بأولئك معمودية ولا جسد المسيح ولا قربان . وأما الله فانه اعتاد أن يفعل بواسطة غير المستحقين أيضا من دون أن تضر سيرة الكاهن شيئا بنعمة المعمودية . والا فيكون الذى يأخذ السر هو الخاسر . نعم هذا الامر نادر ولكنه على ذلك يجرى . هذا أقوله لكى لا يرتاب أحد من الحاضرين فى الطقوس المتممة اذا بحث فى سيرة الكاهن ، لان الانسان لا يضيف شيئا الى ما هو موضوع (لامانة السر) بل كل شيء هو عمل الله ، وهو الذى يمنحكم نعمة السر » (مقالة ٨ : ١ على ١ كو) .

وقال القديس غر يغور يوس الثاولوغوس : « كل واحد (أى من الخدام) يستحق أن تصدقوا أنه يطهركم ، و يكفيه لذلك أن يكون واحدا من الذين اخذوا السلطان ليغفروا الخطايا ، ولم يصيروا مرفوضين علانية (من الكنيسة) فأنتم الذين تطلبون الشفاء ، لا تدينوا قضاتكم ، ولا تبحثوا عن أهلية الذين يطهرونكم ، ولا تجروا انتخابا على والديكم ، لانه أمر قلما يعنيكم ان كان هذا أفضل وذاك أدنى . وكل واحد من هؤلاء افضل منكم . فانظروا أنتم كيف يجب أن تفتكروا : عندى خاتمان احدهما من ذهب والآخر من حديد . وعلى كل منهما الصورة الملكية نفسها . فأطبع بكل منهما طبعة على شمع . فبماذا تمتاز طبعة الواحد عن طبعة الآخر ، أنها لا تمتاز بشيء . فان كنت أنت ممتازا بحذاقة عقلك فاحكم فى طبع المعدن على الشمع ، وقل لى أية صورة من هاتين الصورتين هى صورة الخاتم الذهبى ، وأية هى صورة الحديدى ، ولماذا الصورتان كلتاهما متشابهتان . فقابلوا على ذلك كل واحد من الكهنة الذين يعمدونكم . فالواحد يمكن أن

يسمو على الآخر بالسيرة الروحانية . غير أن قوة المعمودية واحدة والقادر أن يعلمكم الايمان الواحد نفسه يقدر أن يرشدكم الى الكمال » (خطاب فى المعمودية) .

وقال القديس أغسطينوس : « ان السر ايضا يتعلق بالله وما الانسان الا خادم بسيط . فان كان الانسان صالحا فيكون موافقا لله و يفعل بالله ، وان كان شريرا فالله يمنح ايضا به نعمته غير المنظورة كما بآلة . ولا تظنوا ان الاسرار تتعلق بآداب البشر وأعمالهم ، فانها مقدسة ونابعة من الله القدوس » (فصل ٣٧ : ٨٨) .

وقال أيضا : « لا فرق بين أن توزع الاسرار من خدام ابرار او خطاة ، فمثلها مثل البذور تلقى على الارض بيد الفلاح ، سواء كانت يده نظيفة ، أو قذرة ، فتأتى بالثمرة على حد سواء ، ولو تعلقت فاعلية الاسرار بقداسة الخادم أو عدمها لتعلق خلاصنا بحريتهم » .

وقال بعد أن أورد قول يوحنا المعمدان (يو ١ : ٣٥) « هذا هو الذى يعمد بالروح القدس » وان لم يعمد المسيح بنفسه بل بواسطة تلاميذه . ان بطرس يعمد فهذا هو « اى المسيح » الذى يعمد . أو بولس يعمد فهذا هو الذى يعمد . ان يهوذا يعمد فهذا هو الذى يعمد . فما أعطى واحد ، لا يختلف باختلاف الخدام بل متساو . فانه قال هذا هو الذى يعمد . و يؤيد ذلك قول بولس الرسول « ليس الغارس شيئا ولا الساقى بل الله الذى ينمى » (١ كو ٣ : ٧) لان كل ما فى السر من السلطان والقوة فهو للمسيح . وأما الكاهن أى الخادم فله الخدمة فقط ، وهو لا يقدر أن يقاوم قوة الله وقال « قد عمد يهوذا فلم يعمد بعده ، وعمد يوحنا فعمد بعده ، وذلك لان معمودية يهوذا كانت معمودية المسيح أما معمودية يوحنا فكانت معمودية يوحنا . فلو تعلقت صحة الاسرار على استحقاقات الخادم لوجب اعادة الذين عمدهم يهوذا ، ولما فضلت معموديته على معمودية يوحنا » .

فمن هذه الاقوال الجليلة يستدل على أن التعليم الصحيح هو أن الخدام ما هم الا آلات فى يد الرب يتمم بهم المسيح نفسه بقوة فعل روحه القدوس جميع الاسرار أى أنه هو الذى يعمد أو يجدد الانسان ثانية ، وهو الذى يحل الخطايا ، وهو الذى يمنح درجات الكهنوت ، و يبارك القرابين ، و يقدس الذبيحه ، ولا تتوقف قوة الاسرار او فعلها مطلقا على استحقاقات خادمها ولا على قداسته أو عدم استحقاقه . فان النعمة كالنهر الجارى أو كالماء النقى الذى يمكن أن يمر و ينتقل فى أنابيب وقنوات من بلور أو من فخار ، مهما كان نوعها وحالها دون أن تمس طهارته ، وكبذور نقية تزرع فى الارض سواء بذرت بأيد طاهرة أو دنسة ، وكالشمس التى لا تتدنس اذا حلت ومرت فى اماكن غير طاهرة .

٩ ـ عدد الأسرار:

اما عدد الاسرار فقد شاءت عناية الله وارادته أن تكون سبعة لتكون موافقة ومناسبة لحاجات الانسان في هذه الحياة . وهي : سر المعمودية . وسر المسحة المقدسة أو الميرون ، وسر الشكر أو الافخارستيا ، وسر التوبة ، وسر مسحة المرضى ، وسر الزيجة ، وسر الكهنوت .

فبالمعمودية يولد الانسان ولادة ثانية من فوق بالماء والروح : و بالميرون ينال نعمة حلول الروح القدس لتثبيته في الحياة الروحية : و بالشركة يقتات و يتغذى بالاتحاد بالمسيح : و بالتوبة يشفى من أمراض الخطية و ينال الحل من خطاياه : وبمسحة المرضى ينال الشفاء من أمراضه الجسدية والروحية : و بالزيجة ينال نعمة الاقتران للولادة الجسدية والسمو بالعاطفة نحو حياة زوجية شريفة رسمها الله ، وتربية الاولاد التربية المسيحية : و بالكهنوت ينال موهبة الاستحقاق لخدمة الاسرار لتجديد الآخرين .

قال العلامة اللاهوتي الشهير القديس توما الاكويني : « ان بين الحياة الطبيعية والحياة الفائقة الطبيعية تناسبا ، لان الانسان يولد و يتقوى و يقتات ، وان مرض يعالج بالادوية و يرد الى صحته الاولى بازالة بقايا المرض ، و يعيش في الالفة الاجتماعية تحت ولاية رؤساء شرعيين . وهذا عينه تفعله الاسرار في الحياة الفائقة الطبيعة . ولا تهمل الانسان أصلا من اكتساب هذه الحياة وترافقه دائما حتى تبلغه الى العالم العلوي غير المنظور» . (قسم ٢ بحث ٦٥ جزء ١)

وليس في الكنيسة أكثر أو أقل من هذه الاسرار. وقد اعتبرت الكنيسة منذ بداءتها هذه الاسرار السبعة . ولم ينكرها سوى البروتستانت الذين انشقوا عن الكنيسة في الجيل السادس عشر. ولم يحصل بينهم اتفاق على عدد الاسرار: **فان لوثر وميلانكتون :** قبلا ثلاثة أسرار فقط ، وهي المعمودية والشكر والتوبة : واعتقدوا أن السرين الاولين أصليان (لوثر في سبي بابل صفحة ٢٧٦) و (**ميلانكتون** في احتجاجاته ٥ : ١٦٧ و٧ : ٢٠٠) وأما **زوينكل** فلم يقبل سوى سر الزيجة عوضا عن التوبة . **وكلفينوس** قبل سر الكهنوت (كتاب ٤ : ١٨) لكن أتباعهم ارتأوا أخيرا أنه لا يوجد الا سران اثنان فقط وهما المعمودية والعشاء الرباني : وحجتهم في ذلك أن الكتاب لم يذكر أن الاسرار سبعة ، و يرد عليهم بأن الكتاب لم يقل ان الاسرار اثنان فقط .

أما كون الاسرار سبعة فنبرهن عليه بما يأتي :

أولا : من شهادة الكتاب : فانه وان لم يذكر عددها صريحا الا أنه أوضح كل سر منها على حدته مبينا تأسيسه من السيد ، وفعله وشروطه كما سنبين ذلك ونشرحه عند كلامنا عن كل

سر من الاسرار: أضف الى ذلك أن عدم اتفاق المعترضين فى بادىء الامر على عددها دليل أكيد على صحة تعاليم الكنيسة الاصلى.

ثانيا: شهادة التقليد: فان لدينا أقوالا من جميع آباء الكنيسة فى كل العصور الاولى تثبت اعتقاد الكنيسة وتسليمها الاسرار السبعة. وهنا لا محل للاعتراض بأن بعض الآباء لم يتكلموا فى مؤلفاتهم عن الاسرار جملة، بل أن بعضهم اما لضرورة واما لمقاصد خاصة أو لاسباب أخرى لم يتكلموا عنها دفعة واحدة، بل تكلم بعضهم عن سرين، و بعضهم عن ثلاثة، وغيرهم عن اربعة، وذلك تبعا لما اقتضاه مقام الكلام وقتئذ، لان شرح سر منها أو أكثر لا ينفى عدم الاعتقاد بباقى الاسرار. والخلاصة أن جميع الآباء يشهدون لهذه الاسرار السبعة شهادات صريحة.

ثالثا: شهادة الاتفاق العام بين جميع الكنائس الشرقية والغربية. ومع وجود الاختلاف بينها فى امور كثيرة. فانها فى هذا التعليم على اتفاق تام. وهذا أكبر دليل على أن التعليم بالاسرار السبعة تسليم رسولى تسلمته الكنيسة منذ ابتدائها، ولم تأخذه من كنيسة اخرى بدليل وجوده فى الكنائس قبل انشقاقها. ولا يمكن تعيين العصر الذى شرع فيه بمباشرة الاسرار السبعة، واقوال جميع الآباء والآثار القديمة تدل على أن الاسرار السبعة كانت معروفة وجارى العمل بها منذ العصر الرسولى. قال العلامة أوريجانوس وعنه اخذ القديس أوغسطينوس وأشار اليه ترتليانوس بقوله: « هل يعقل ان الكل يتفقون على الضلال، فاننا نعرف حق المعرفة أن لا وحدة فى الكذب والبهتان. وعلى ذلك فان ما نراه واحدا لدى الجميع لا بد أن يكون تعليما الهيا منزها عن الغلط قد اخذ عن المسيح ورسله ».

رابعا: لان الاسرار السبعة التى تمنح بها مواهب الروح القدس ونعمه كافية ومناسبة لحاجات الانسان اللازمة له فى حياته. فكما أن الانسان يولد ميلادا جسديا هكذا بالمعمودية يولد ميلادا روحيا ثانيا. والمولود يحتاج الى قوى تثبته فى حياته فينال هذه القوة بتثبيته بسر الميرون. ولشدة حاجته الى طعام روحى يغذيه فقد وهب له سر الشركة الغذاء والشراب الروحى، وبما أنه عرضة للخطأ والامراض فقد اعطى له سر التوبة لمغفرة خطاياه، وسر المسحة لامراضه الجسدية وضعفاته النفسية. و بسر الزيجة يقدس رباط الزواج لحفظ اعضاء الكنيسة ونموها بواسطة الولادة الطبيعية. ولحاجة الكنيسة الى رعاة ومعلمين ومدبرين وخدام لخدمة الاسرار ورعاية الشعب اعطى سر الكهنوت. فمن ذلك يتضح ان الاسرار ملائمة وموافقة لحاجات الانسان.

خامسا: ان الاسرار سبعة لا اقل ولا اكثر مقابلة لمواهب الروح السبعة (أش ١١ : ٢) وللمنارات الذهبية السبع (رؤ ١ : ١٢ و١٣) وللكواكب السبعة التى كان السيد ضابطا اياها بيده (رؤ ١ : ١٦) وللاختام السبعة التى كان مختوما بها الكتاب الذى رآه النبى فى يمين الجالس

على العرش (رؤ ٥ : ١) وللابواق السبعة التى اعطيت بعد فتح الكتاب السرى (رؤ ٨ : ١و٢) ولا يخفى ان عدد سبعة مشهور فى الكتاب ، وهو دليل الكمال . فالاسرار السبعة هى الاعمدة التى نحتتها الحكمة فى بيتها (أم ٩ : ١) .

١ ــ ســر المعمودية

الفصل الأول

وبناء على مفاعيله باعتبار طقسه المنظور دعى حميا ، و ينبوعا مقدسا ، و بالنظر الى نتائجه غير المنظورة ، دعاه الآباء ولادة جديدة ، وتقديسا ، وختم الايمان ، وختم الدين المسيحى ، وحميم الخلاص ، والولادة الثانية ، حميم الحياة وماء الحياة الدائمة ، وهكذا من الاسماء الدالة على تأثيراته ومنحه .

١ ــ تعريف سر المعمودية واسماؤه :

المعمودية سر مقدس به نولد ميلادا ثانيا ، بتغطسينا فى الماء ثلاث دفعات على اسم الثالوث الاقدس : الآب والابن والروح القدس .

٢ ــ رتبة المعمودية بين الأسرار:

ولسر المعمودية الرتبة الاولى بين الاسرار السبعة المقدسة . لانه بمثابة باب يدخل منه المؤمن الى الكنيسة وملكوت النعمة طبقا لقول الرب يسوع « ان كان احد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو٣ : ٥) ولذلك يمنح هذا السر للمؤمن قبل أى سر آخر. ومن لا يقتبله فلا حق له فى الاشتراك فى باقى الاسرار.

٣ ــ لماذا عين الرب الماء للمعمودية :

بما أننا مؤلفون من جسد وروح ، لذلك عين الله تعالى أن تكون وسائط خلاصنا وأسرار النعمة التى يفيضها علينا الروح القدس ، تحت علامات حسية واشارات منظورة كما قلنا سابقا . ففى سر المعمودية عين الرب لميلادنا الثانى الماء . وذلك :

١ ــ لأن الماء يغسل الاقذار، والمعمودية تنقى من جميع الخطايا .

٢ ــ الماء يجدد و ينعش الجسم ، والمعمودية تحيي خواص النفس .

٣ ــ لأن بالماء قوام الحياة ، والمعمودية تمنح الخلاص .

٤ ــ لأن المعمودية مثال موت المسيح ودفنه ولا بد أن نماثله فى الدفن . فأين ندفن ؟ أفى الهواء ونحن محاطون به من كل جهة ؟ أم فى النار وهى محرقة لا تصلح لذلك ؟ أم فى التراب ، والدفن فيه يقتضى الموت حقيقة لا مجازا ؟

فلا سبيل اذن الا بالدفن فى الماء فى جرن المعمودية ولذلك قال الرسول : « اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعمودية للموت ، حتى كما أقيم المسيح من الاموات بمجد الآب ، هكذا نسلك نحن أيضا فى جدة الحياة ، لانه ان كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضا بقيامته » (رو ٦ : ٤ و٥) .

٤ ــ رموز المعمودية فى العهد القديم وانواع المعموديات :

وقد رمز الى المعمودية فى العهد القديم بأمور كثيرة ، منها أن روح الله كان يرف على وجه المياه فى بدء الخليقة اشارة الى بث روح الحياة فى المادة (تك ١ : ٢) والطوفان الذى قال عنه بطرس « كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح . اذ كان الفلك يبنى . الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالماء . الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية . لا ازالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح » (١ بط ٣ : ٢٠ و٢١) وعبور بنى اسرائيل فى البحر الاحمر وغرق فرعون مع مركباته (خر ١٤ : ١٩ ــ ٢٩) فان البحر كان رمزا الى ماء المعمودية ، والسحابة اشارة الى الروح القدس ، وفرعون كان رمزا الى الشيطان الذى ينسحق فى مياه المعمودية . ولذلك قال بولس الرسول « ولست اريد ايها الاخوة ان تجهلوا أن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة وجميعهم اجتازوا فى البحر وجميعهم اعتمدوا لموسى فى السحابة وفى البحر » (١ كو ١٠ : ١و٢) ولم يعط الرب الكهنوت لهرون الا بعد أن غسل جسده أولا بالماء (خر ٢٩ : ٤) وكذلك امر الكهنة عند دخولهم خيمة الاجتماع أن يغتسلوا أولا فى المرحضه المقدسة التى بين خيمة الاجتماع و بين المذبح (خر ٣٠ : ١٨) وذبيحة ايليا لم تنزل عليها النار من السماء الا بعد أن اهرق عليها الماء ثلاث دفعات (١ مل ١٨ : ٣٣- ٣٥) ولم يصعد ايليا الى السماء الا بعد أن عبر نهر الاردن (٢ مل ٢ : ٢ ــ ٨) وأشعياء النبى ينادى قائلا « تستقون مياها بفرح من ينابيع الخلاص » (أش ١٢ : ٣) « ايها العطاش جميعا هلموا الى المياه » (أش ٥٥ : ١) و يوحنا المعمدان لما ابتدأ يكرز عن قرب ملكوت الله ، كان يعمد بمعمودية التوبة قائلا : « أنا اعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ... هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » (مت ٣ : ١١) والتلاميذ فى حياة المسيح كانوا يعمدون (يو ٤ : ٢) .

وهذه المعموديات المذكورة لم تكن سوى رموز الى معمودية المسيح . ورسوم ومقدمات سابقة لظهور سر المعمودية المسيحية . وفرق كبير بين معمودية يوحنا ومعمودية المسيح . لأن الأولى كانت للتوبة والاستعداد ، وأما هذه فلغفران الخطايا . ولذلك قال بولس الرسول لتلاميذ أفسس لما سألهم : « وهل قبلتم الروح القدس لما آمنتم . قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فقال لهم فبماذا اعتمدتم . فقالوا بمعمودية يوحنا . فقال بولس أن يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلا للشعب أن يؤمنوا بالذى يأتى بعده أى بالمسيح يسوع . فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع . ولما

وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم الخ » (أع ١٩ : ١ ــ ٦) . قال القديس يوحنا ذهبى الفم عن ذلك : لأنه لم تكن الذبيحة قدمت بعد . ولا انحدر الروح القدس . ولا انحلت الخطية . ولا ارتفعت العداوة . ولا محيت اللعنة . فكيف ازمع الغفران أن يكون . وانظر كيف حرر ذلك بكل تدقيق لانه لما قال انه أتى لينذر بمعمودية التوبة فى برية اليهودية . اضاف الى ذلك قوله . لمغفرة الخطايا » (مر ١ : ٤) . كان يقول لهذا السبب كان يقنعهم أن يعترفوا بخطاياهم و يتوبوا عنها . لا لكى يعذبوا بل لكى يقبلوا الغفران بعد ذلك بأكثر سهولة . لأنهم لو لم يدينوا أنفسهم لما كانوا طلبوا النعمة . ولو لم يطلبوا لما نالوا الغفران . فكانت من ثم هذه المعمودية (اى معمودية يوحنا) تفتح طريقا لتلك المعمودية (أى معمودية المسيح) (تفسير انجيل متى . مقالة ١٠ : ١ و٢) .

لذلك لا فرق بين معمودية التلاميذ و بين معمودية يوحنا . لأنها كانت للتوبة والاستعداد ايضا لان المعمودية لم تأخذ قوتها الا بعد موت المسيح وقيامته من بين الاموات وحلول الروح القدس ، لانها مثال موت المسيح ودفنه وقيامته ، ولم تكن تلك المعمودية الا لاعداد اليهود لقبول المسيح .

٥ ــ تأسيس سر المعمودية :

اما سر المعمودية المسيحية فقد اسسه السيد المسيح بعد قيامته ، اذ كان قد تمم فداءنا واشترانا بدمه الكريم . وبهذا حق توزيع نعمة روحه القدوس علينا (١ بط ١ : ٣ و١ كو ١ : ٤) وقد قال لتلاميذه علنا بعد قيامته « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الارض فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (مت ٢٨ : ١٨ و١٩) . « من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن » (مر ١٦ : ١٦) .

فمن ذلك يتضح :

١ ــ ان المعمودية سر عام لجميع البشر على السواء .

٢ ــ انها سر سيتمم الى انقضاء الدهور ، غير محصورة فى مكان ولا فى زمان .

٣ ــ انها شرط لازم للحصول على الخلاص . وقد تممها الرسل للمؤمنين لتطهيرهم واعادة ولادتهم بالماء والروح القدس فى يوم الخمسين . قال بطرس الرسول : « توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس . . فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم فى ذلك اليوم نحو ثلاثة الاف نفس » (أع ٢ : ٣٨ ــ ٤١) وعمد فيلبس الخصى (أع ٨ : ٣٨) وعمد بطرس كرنيليوس قائد المائة وعائلته وأشخاصا آخرين (أع ١٠ : ١ ــ ٤٨) وعمد بولس امرأة اسمها ليدية (أع ١٦ : ١٥) وعمد حافظ

السجن وعائلته (أع ١٦ : ٣٣) وكريسبس رئيس المجمع وكل بيته وغيرهم من سكان كورنثوس (أع ١٨ : ٨) وتلاميذ أفسس (أع ١٩ : ١ ــ ٥) وهكذا من ذلك الوقت تتمم المعمودية فى الكنيسة المسيحية ، على المثال الذى وضعه الرسل الاطهار للكنيسة .

الفصل الثانى

ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص

أما ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص فيظهر من الأدلة الآتية :

أولا : من قول يوحنا المعمدان « أنا اعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ... هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » (مت ٣ : ١١) فعمودية يوحنا كانت للتوبة . وأما معمودية المسيح فللتوبة وغفران الخطايا وعطية الروح (أع ٢ : ٣٨) . الاولى كانت تمارس بالماء فقط . وأما هذه فباسم الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨ : ١٩) . الاولى كانت قاصرة على التائبين من شعب اسرائيل (مت ٣ : ٥ ، ٦ و١٠ : ٥ ، ٦) واما الثانية فلجميع المؤمنين من اليهود والامم (مت ٢٨ : ١٩) . الأولى كانت رمزية للتوبة والايمان بالمسيح الآتى (مت ٣ : ١ ، أع ١٩ : ٤) والثانية للايمان بالمسيح الذى اتى ولغفران الخطايا (أع ٢ : ٣٨) . الاولى كانت معمودية وقتية والذين اعتمدوا بها التزموا أن يعتمدوا ثانية حين آمنوا بالمسيح (أع ١٩ : ٥) وأما معمودية المسيح فهى المعمودية الدائمة الوحيدة الى انقضاء الدهر (مت ٢٨ : ١٩ ، ٢٠ و أف ٤ : ٥) .

ثانيا : من أقوال السيد المسيح عنها : قال له المجد « ان كان احد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو ٣ : ٥) « من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن » (مر ١٦ : ١٦) فواضح هنا أن من لا يعتمد يدان ولا يستحق الدخول الى ملكوت الله .

ثالثا : من أقوال الرسل الاطهار : قال بطرس الرسول لما سأله الذين قبلوا الايمان بالمسيح فى أورشليم ماذا نصنع ؟ قال لهم « توبوا وليعتمد كل منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس » (أع ٢ : ٣٧ و٣٨) وقال بولس الرسول « لا بأعمال فى بر عملناها نحن ، بل بمقتضى رحمته خلصنا ، بغسل الميلاد الثانى ، وتجديد الروح القدس ، (تى ٣ : ٥) وقوله « كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لاجلها ، لكى يقدسها مطهرا اياها بغسل الماء بالكلمة ، لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن ، أو شىء من مثل ذلك . بل تكون مقدسة و بلا عيب » (أف ٥ : ٢٥ ـــ ٢٧) وقوله « لكن اغتسلتم ، بل تقدستم ، بل تبررتم باسم الرب يسوع و بروح الهنا » (١ كو ٦ : ١١) وقوله « لان كلكم الذين اعتمدتم

بالمسيح » (غل ٣ : ٢٧) وقول بطرس الرسول « الذى مثاله يخلصنا نحن الآن ، أى المعمودية لا ازالة وسخ الجسد ، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح » (١ بط ٣ : ٢١) .

فهذه النصوص الصريحة ناطقة بأن المعمودية لازمة للخلاص و بدونها لا يمكن للانسان أن يخلص .

رابعا : يتضح من النصوص المتقدمة ، أن المعمودية ليست علامة تميز المسيحى من غيره ، كما يزعم البروتستانت . اذ أنها ليست علامة ظاهرية تترك اثرا فى الوجه ، أو غيره حتى تصلح لأن تكون علامة لتمييز المسيحى ولكنها عمل يترك اثرا فى النفس ، هو التطهير ومغفرة الخطايا والولادة الثانية .

خامسا : هذا التعليم كان ولا يزال تعليم الكنيسة فى جميع العصور . فقد قال القديس يوستينوس الشهيد « يجب أن نفتش ونعرف من أى طريق يمكننا أن ننال صفح الخطايا ، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها ، ولنا فى ذلك طريق واحد فقط ، وهو أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا ، وهكذا نبتدىء أن نعيش بالقداسة ، (خطابه الى تريفون فصل ٤٤) .

وقال القديس كيرلس الاورشليمى « عظيمة هى المعمودية المعدة فداء عن المأسورين ، وصفحا للاوزار ، وموتا للخطية ، وولادة ثانية للنفس ، وثوبا نيرا ، وختما مقدسا لا ينفك ، ومركبة الى السماء ، وتعليم الفردوس ، وعلة الملكوت ، ومنحة التبنى » (تعليم ابتدائى للموعوظين فصل ١٦) .

وقال القديس غريغوريوس النيسى « فالمعمودية اذن تنقية من الخطايا وترك المآثم وعلة التجديد والولادة الثانية » (فى معمودية المسيح) .

وقال ايضا « حينما تدخلون فى الماء لا تجدون بعد ماء بسيطا ، بل تنتظرون خلاصا بالروح القدس ، لانكم تستطيعون بلا مانع أن تصلوا الى الكمال . وهذا الكلام ليس كلامى بل كلام الرب يسوع نفسه ، الذى له السلطة التامة فى هذا السر ، كما فى كل سر غيره . وهو أن كان أحد لا يولد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله الذى معناه أن لا تكون المعمودية بماء فقط ، لأن الذى يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله ولا ينالها كاملة ، كما أن الذى لم ينل ختم الماء مهما كان صالحا بأعماله لا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات . هذا الكلام صعب ولكنه ليس كلامى لأن الرب يسوع هكذا تكلم . واليك البرهان فى الكتاب ، وأورد حادثة

كرنيليوس وعماده ، وختم كلامه بقوله : « ان بطرس عمدهم باسم الرب يسوع ، فأعاد ولادة النفس بالايمان لينال الجسد أيضا النعمة بواسطة الماء » . (عظة ٣ : ٢) .

وقال القديس أوغسطينوس : « اننا بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية ، سواء كانت من آدم الذى به أخطأ الجميع ، أو بفعلنا وقولنا لاننا نغسل منها بالمعمودية » (٢٨ : ١٧٨) .

وقال : « ان لنا ميلادين احدهما أرضي والآخر سماوى . الاول من الجسد ، والثانى من الروح . الاول صادر عن مبدأ قابل الفناء ، والثاني عن مبدأ أبدى . الاول عن الرجل والمرأة ، والثانى عن الله والكنيسة . الاول يجعلنا أبناء الجسد ، والثاني أبناء الروح ، الاول يصيرنا أبناء الموت ، والثانى أبناء القيامة . الاول يجعلنا أبناء الدهر ، والثاني أبناء الله . الاول يجعلنا أبناء اللعنة والغضب ، والثاني أبناء البركة والمحبة . الاول يقيدنا بأغلال الخطية الاصلية ، والثانى يحلنا من رباطات كل خطية » (تفسير انجيل يوحنا فصل ١٩) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم للموعوظين المرشحين للعماد « ان الذين كانوا قبل عمادهم أسرى ، فانهم يتمتعون الآن ببهاء الحرية . وصاروا أعضاء الكنيسة سالكين فى نور البر البهى ، بعد ما كانوا سائرين فى فيافى الضلال الحالك وظلام الخطية القاتم . حقا أنهم الآن محررون ، وليس ذلك فقط بل قديسون فأبرار فأبناء فورثة فاخوة المسيح وارثون معه فأعضاء لجسده الطاهر ، فهيا كل الروح القدس . فتأمل فى العطايا الجزيلة والمواهب الثمينة التى يمنحها سر العماد . ان كثيرين يظنون أنه يغفر الخطية فقط ، وأما نحن فقد أحصينا له عشرة مفاعيل تجعل النفس فى مركز سام ومقام جليل لا يوصف » .

قال موسهيم المؤرخ البروتستانتى عن سرى المعمودية والعشاء الربانى « لا ينبغى أن يعتبرا مجرد طقس ، أو كأن لهما معنى رمزيا فقط ، بل كأن لهما فاعلية مقدسة للعقل » (ك ١ قسم ٢ فصل ٤) .

الفصل الثالث

وجوب تعميد الاطفال

أوضحنا فيما سبق أن المعمودية ضرورية للخلاص ، طبقا لوضع السيد المسيح له المجد ، وأنها هى الباب الاول ولابد منها لدخول الانسان الى ملكوت النعمة ، لذلك وجب تعميد الجميع على السواء كبارا وصغارا ، غير أن بعض المحدثين زعموا وعلموا بعدم لزوم المعمودية للاطفال ، وأنكروا فاعليتها و يتضح خطأ هذا الزعم من الادلة الآتية :

أولا : ان المعمودية ضرورية ولازمة ، و بدونها لا يمكن الدخول الى ملكوت النعمة . ففى منعها عن الاطفال منعهم من الدخول للاستحقاق لهذا الملكوت ، بينما لا يوجد مانع يمنعهم من الاشتراك فى هذه النعمة ، و بالاخص لطهارة نفوسهم .

ثانيا : ان الاطفال مشتركون فى الخطية الجدية مثل الكبار، ولا يمكنهم التطهير منها والدخول الى ملكوت النعمة الا من هذا الباب بشهادة الرب نفسه « ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله . المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح » (يو٣ : ٥ و٦) فيجب أن يولد الاطفال هذه الولادة الثانية الروحية ، ليكونوا مستحقين الدخول الى ملكوت الله .

ثالثا : من المشابهة بين الختان والمعمودية . من المعلوم أن الختان كان عند اليهود هو العلامة التى بها يدخلون فى عهد الله ، لا فرق بين الاطفال والكبار. ولذلك تعين أن يختن الطفل فى اليوم الثامن . ومن المعلوم أن الختان كان رمزا الى المعمودية . والى ذلك أشار بولس الرسول بقوله « و به أيضا ختنتم ختانا غير مصنوع بيد ، بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح ، مدفونين معه فى المعمودية ، التى أقمتم فيها أيضا معه بايمان عمل الله ، الذى أقامه من الاموات ، واذ كنتم أمواتا فى الخطايا وغلف جسدكم ، أحياكم معه مسامحا لكم بجميع الخطايا » (كو٢ : ١١ ــ ١٣) فاذا كان الله نفسه منح الاطفال نعمة الدخول فى عهده القديم ، أفيليق بنا نحن أن نخرجهم من العهد الجديد ، عهد النعمة ، ونحرمهم هذا الاحسان ؟ واذا اعترض المعترض بأن الاطفال لا يدركون ولا يعرفون ما هو الايمان أو ما هى المعمودية ؟ فجوابنا على ذلك أن عدم ادراكهم لا ينفى عمادهم ، أو يوجب تأخيره . والدليل على هذا ما ورد فى الكتاب من المشابهة

لذلك فقد قيل عن ابراهيم « فآمن ابراهيم بالله فحسب له برا ... واخذ علامة الختان ختما لبر الايمان » (رو ٤ : ٣ و١١) وذلك في الوقت الذى فيه وضع ابراهيم على ابنه اسحق هذه العلامة نفسها ، وهو طفل ابن ثمانية أيام ، لا يدرك ولا يفهم ولا يعرف ما هو الايمان ولا ما هو الختان . فكما ختم ابراهيم واسحق بختم البر، هكذا لا يجب منع هذا الختم عن الاطفال المسيحيين.

رابعا : ان المسيح نفسه بارك الاطفال بركة خاصة ، ودعاهم اليه قائلا « دعوا الاولاد يأتون الي ولا تمنعوهم لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات » (مت ١٩ : ١٤ ، ١٨ : ٣ ، مر ١٠ : ١٥ ، لو١٨ : ١٥ ــ ١٧) وقد سبق وقدس بعضهم وملأهم من روحه كما قدس ارميا (١ : ٥) و يوحنا الذى امتلأ من الروح القدس من بطن امه (لو ١ : ١٥ و٤١) فلا مانع مطلقا يمنع الاطفال من تجديدهم وامتلائهم بالروح القدس ، لا من جهة الله تعالى ولا من جهة طبيعتهم . واذا تأملنا في أقوال المسيح الحلوة عنهم ، نرى فيها ما في قلبه القدوس من المحبة والاعتبار لهم ، فنرى :

١ ــ أنه جعلهم مقياسا للكبار في الدخول الى ملكوت السموات بقوله « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات) . (مت ١٨ : ٣)

٢ ــ أوضح أن قبولهم بمنزلة قبول شخصه المبارك فقد قال « ومن قبل ولدا واحدا مثل هذا باسمى فقد قبلنى » (مت ١٨ : ٥) .

٣ ــ نهانا عن احتقارهم لاعتبارهم في عينى الله بقوله « انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لانى أقول لكم أن ملائكتهم في السموات ينظرون وجه أبي الذى في السموات » (مت ١٨ : ١٠) .

٤ ــ أن الاولاد بمنزلة الحملان الصغار. والمسيح كراع صالح يقود الخراف الكبار والحملان الصغار. ولا تخفى علاقة الاولاد بوالديهم . وقد سبق أشعياء النبى فوصف المسيح بقوله « كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها و يقود المرضعات » (أش ٤٠ : ١١) ولما قدموا الاطفال الى الرب يسوع احتضنهم ووضع يديه عليهم و باركهم (مر ١٠ : ١٦) ولا يجب أن ننسى أن الله تعالى لما دعا شعبه للخروج من مصر للدخول الى أرض كنعان ارض الموعد ، وقاومهم فرعون وأراد منع أولادهم بقوله : اذهبوا أنتم الرجال واعبدوا الرب (خر ١٠ : ٧ ــ ١١) لم يسلم موسى بذلك بل قال له « نذهب بفتياننا وشيوخنا نذهب ببنينا و بناتنا » . فبمثل هذا القول يجب أن نجاوب أولئك الذين يحاولون منع الاولاد من الدخول الى ملكوت النعمة معنا ، و يريدون فصلهم عنا . واذا كان الرب باركهم وقبلهم ودعاهم اليه ودافع عن حقوقهم ، فمن ذا الذى يحتقرهم و يرفض

عمادهم ، وقبولهم في الاشتراك في الكنيسة وعضويتها . وهو الذى قد أمر بتربيتهم والاعتناء بهم (راجع تث ٤ : ٩ و١٠ ، ٦ : ٧ ، ٢ تي ٣ : ١٥ ، اف ٦ : ٤ ، غل ٤ : ١) .

خامسا : من تعليم الرسل وقدوتهم في ذلك فانهم اتبعوا هذه القاعدة وسلكوا هذا المبدأ . حيث نرى بطرس الرسول في يوم الخمسين صرح بعماد الذين قبلوا المسيح من الكبار ولم يتأخر أن يعلن لهم قبول أولادهم معهم بقوله لهم « توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا ، فتقبلوا عطية الروح القدس ، لأن الموعد هو لكم ولاولادكم » (أع ٢ : ٣٨) ففي قوله (لكم ولاولادكم) تصريح واضح بقبول الاولاد في الايمان والمعمودية . وحيثما كرز الرسل بالانجيل قبلوا عائلات وعمدوهم مع أهالي بيوتهم . ومن ذلك ليدية بائعة الارجوان التي قبلت الايمان واعتمدت هي أهل بيتها (أع ١٦ : ١٤ و١٥) وبيت استفانوس (١ كو ١ : ١٦) والسجان الذى اعتمد هو والذين له أجمعون (أع ١٦ : ٣٣) ولا شك في أن عائلات هذا عددها ، قد تعمدت بأجمعها ، لم تكن خالية من الاولاد الذين دون البلوغ أو أنهم تركوا بلا عماد ، وهذا بعيد الاحتمال ، و يكاد يكون مستحيلا ، اذ يندر أن توجد عائلات خالية من البنين والبنات .

سادسا : ان معلمي الكنيسة وآباءها الذين استلموا التعليم من الرسل الاطهار هكذا سلكوا وهكذا علموا بوجوب منح المعمودية للاطفال ، و يذكرون صريحا أن ذلك تقليد رسولي . واليك ما يدل على هذه الحقيقة :

قال القديس ايريناوس : « ان يسوع المسيح أتى لكي يخلص جميع البشر أعني الذين به ولدوا ثانية لله . سواء أكانوا أطفالا أو شبانا أو شيوخا » (ضد الهراطقة ١١ : ٢٢ فصل ٥ : ١٥) .

وقال العلامة أوريجانوس : « ان الكنيسة تسلمت من الرسل تقليد عماد الاطفال أيضا ، فالاطفال يعمدون لمغفرة الخطايا ليغتسلوا من الوسخ الجدى بسر المعمودية » .

وقال القديس كبريانوس : « اذا كان الذين أخطاوا سابقا أمام الله ، اذ يؤمنون يأخذون صفح خطاياهم ، ولا يمنع أحد منهم عن المعمودية والنعمة وان كان قد فعل خطايا غير محصاة . فالاطفال الذين ضميرهم غير متفتح ولم يخطئوا في شيء ، والذين نظرا للخطية الكامنة فيهم وتدنسوا بها وصاروا مشاركي الموت الآدمي ، يحتاجون أيضا الى المعمودية لانها شرط لنوال الخلاص والصفح ، ليس عن الخطايا الشخصية بل الابوية . وقد حدد مجمعنا « بأنه لا يجوز أن

نمنع احدا من المعمودية ونعمة الله الذى هو صالح ورؤوف بالجميع . فالمعمودية هى للجميع وخصوصا للاطفال الصغار، الذين بنوع خصوصى يستميلون انتباهنا وصلاح الله » (رسالة ٥٩) .

وقال القديس **غريغوريوس الثاولوغوس** : « هل عندك طفل ، فلا يأخذن فيه الشر فرصة ، بل ليقدس وهو رضيع وليكرس للروح منذ نعومة أظفاره ، انك تخافين أيتها الام من الختم بسبب ضعف الطبيعة بما انك ضعيفة النفس وقليلة الايمان ، لكن حنة قبل أن تلد صموئيل وعدت الله به ، و بعد ولادته حالا كرسته و بالحلة الكهنوتية ربته ، ولم تخف من الضعف البشرى بل آمنت بالله » (خطاب فى المعمودية) .

و يشهد القديس **اغسطينوس** فى خطاب ١٧٦ « بأن المعمودية تقليد رسولى وأن الكنيسة دائما تتمسك بتعميد الاطفال ، متسلمة اياه من السلف ، ولم تزل حافظة اياه الى الآن ، وسوف تحفظه الى الانقضاء أيضا .

وقد قرر آباء مجمع قرطاجنة سنة ٤٨١ فى القانون ١٢١ هكذا « أيضا حكم أن كل من ينكر أن المعتمدين من الاولاد الصغار، المولودين حديثا من بطون أمهاتهم يعتمدون لمغفرة الخطايا ، أو يعترف بذلك ولكنه يزعم انهم لم يشتركوا فى شىء من الخطية الجدية المحتاجة الى التطهير بحميم الولادة الثانية ، و ينتج من هذا الزعم أن رسم المعمودية التى لمغفرة الخطايا فى هؤلاء الاطفال ليس بحقيقى بل مخترع ظاهرى ، فليكن مفرزا لان عبارة الرسول القائلة : « بانسان واحد دخلت الخطية العالم و بالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس اذ اخطأ الجميع » لا يجب أن تفهم بمعنى آخر الا كما فهمتها دائما الكنيسة الجامعة الممتدة والمنتشرة فى كل مكان ، اعنى أن الاطفال ايضا الذين لا يستطيعون أن يرتكبوا بذواتهم خطية ما من الخطايا يعمدون بناء على قانون الايمان هذا معمودية حقيقية لمغفرة الخطايا ليتطهر فيهم بالولادة الثانية ما ورثوه من أجدادهم » .

ينتج مما تقدم أن منع الاطفال عن المعمودية بدعة غريبة مضادة للكتاب ولتعليم الرسل وقدوتهم ولنظام الكنيسة منذ ابتدائها .

الفصل الرابع

كيفية ممارسة سر المعمودية ووجوب اتمامها بالتغطيس وادحاض طريقة الرش

لقد عين الرب مادة هذا السر وهى الماء ، بقوله : « ان كان أحد لا يولد من الماء والروح الخ » (يو ٣ : ٥) والرسل لم يستعملوا غير الماء (أع ٨ : ٣٦ ـ ٣٨ ، ١٠ : ٤٧ و٤٨) فسارت الكنيسة حسب تعليم الرب وتسليم الرسل ، ولم تستعمل فى العماد الا الماء القراح ، دون استعمال آخر مهما كان نوعه .

ثم طبقا للتسليم الرسولى تمارس الكنيسة سر المعمودية بتغطيس المعتمد ثلاثا فى الماء ، باسم الاقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس ، اشارة الى موت المسيح ودفنه وقيامته ، فقد قال العلامة **ترتوليانوس :** « حين نأتى الى الماء نغطس ثلاث مرات » (فى الاكليل ٣) وقال أيضا : « لاننا نغطس لا مرة واحدة بل ثلاث مرات باسم كل واحد من الاقانيم » (ضد براكسيالس ٢٦) وقال القديس باسيليوس الكبير : « فبثلاث غطسات ودعاء مساو لها فى العدد يتم سر المعمودية العظيم ، لكى يتصور رسم الموت وتستنير نفوس المعمدين بتسليم معرفة الله » (فى الروح القدس لامفيلوشيوس فصل ١٥) . والذهبى الفم فى تفسير يوحنا (مقالة ٢٥ : ٢) وامبروسيوس فى الاسرار (٢ : ٧) وايرونيموس ضد لوكيفروس (فصل ٤) وغيرهم من الآباء .

اما المعمودية فيجب الا تمارس ـ كقاعدة أصلية ـ الا بالتغطيس وذلك يتضح مما يأتى :

أولا : ان السيد المسيح له المجد الذى شرع هذا السر المقدس هكذا اعتمد ، ليضع لنا مثالا نحتذيه ، فيقول الانجيل عن عماده « فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء » (مت ٣ : ١٦) وفى ذلك برهان جلى على أنه كان مغمورا بالماء ونازلا فيه حتى أنه صعد منه .

ثانيا : ان يوحنا المعمدان والرسل الذين سلمونا وديعة الايمان هكذا مارسوا العماد ، فيوحنا المعمدان عمد الذين أتوا اليه فى نهر الاردن ، ولو جاز العماد بسكب الماء أو رشه لما كانت هناك حاجة للاتيان بهم الى النهر ، بل كان قليل من الماء يكفى فى هذه الحال . وفيلبس عمد

الخصي وزير كنداكة ملكة الحبشة بالتغطيس . حيث جاء في سفر الاعمال قوله « فأمر أن تقف المركبة فنزلا كلاهما الى الماء فيلبس والخصى فعمده . ولما صعد من الماء خطف روح الرب فيلبس فلم يبصره الخصى أيضا » (أع ٨ : ٢٦ — ٣٩) فلو كان العماد بالرش جائزا لقنع فيلبس بقليل من الماء يرشه على الخصى ، وهو فى المركبة دون أن يكلفه النزول الى الماء .

نعم أن البعض استنتج من حادثة عماد الثلاثة آلاف نفس يوم الخمسين (أع ٢ : ٤١) ومن بعض الاشخاص فى البيوت ، كعماد ليدية واهل بيتها ، والسجان وأهل بيته والذين له (أع ١٦ : ١٥ و٣٣) ان العماد فى هذه الحالات كان بالرش . ولكن الجزم بذلك متعذر ، لان الكتاب سكت عن ذكر الكيفية . على أن العماد فى تلك الحوادث بطريقة التغطيس لم يكن مستحيلا .

ثالثا : من التشبيهات الرمزية التى وردت عن المعمودية : فقد اشار بطرس الرسول الى حادثة الطوفان والفلك ، الذى فيه خلص قليلون اى ثمانى أنفس بالماء ، وقال « الذى مثاله يخلصنا نحن الان اى المعمودية ، لا ازالة وسخ الجسد ، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة المسيح » (١ بط ٣ : ٢١) ووجه التشبيه هو أنه كما دخل الثمانى انفس الى الفلك ، واجتازوا فى الماء ، فخلصوا من الهلاك وخرجوا الى حياة جديدة ، هكذا بدخولنا الى الماء فى المعمودية باعتبارها موتا ودفنا وقيامة مع المسيح ، نخلص من الهلاك ونخرج الى حياة البر .

واشار بولس الرسول الى معمودية الاسرائيليين فى البحر الاحمر بقوله « وجميعهم اجتازوا فى البحر ، وجميعهم اعتمدوا لموسى فى السحابة وفى البحر ، (١ كو ١٠ : ١ و٢) ووجه التشبيه ظاهر فى هذا المثال وهو أنه كما أن الاسرائيليين اعتمدوا لموسى بعبورهم فى بحر الموت الرمزى ، وخرجوا الى شاطىء النجاة ، هكذا الذين يعتمدون للمسيح فى ماء المعمودية ، يعبرون بحر الموت ويخلصون ويخرجون الى شاطىء الحياة بالقيامة من الاموات (رو ٦ : ٣ و٤) . وفى هذا الدليل المبنى على قياس التمثيل اشارة واضحة الى ممارسة المعمودية بالتغطيس .

رابعا : مما جاء فى اقوال الرسل عن معنى المعمودية : فقد قال بولس الرسول « أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعمودية للموت ، حتى كما أقيم المسيح من الاموات بمجد الاب هكذا نسلك نحن ايضا فى جدة الحياة ، لانه ان كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير ايضا بقيامته » (رو ٦ : ٣ — ٥) وقال « مدفونين معه فى المعمودية التى فيها اقتم ايضا معه بايمان عمل الله الذى اقامه من الاموات » (كو ٢ : ١٢) . ففى أقوال الرسول تشبيهات تامة حيث شبه المعمودية بالقبر ، والتغطيس بالدفن ، والانتشال من الماء بالقيامة . ولا يصح تشبيه الموت مع المسيح الا بذلك . فحيث ان المعمودية هى مثال موت المسيح ودفنه وقيامته ، فلا يصح

اتمامها الا بالتغطيس الذى به نتحد مع المسيح بشبه موته ودفنه . لأنها تمثل موتنا ودفننا وقيامتنا معه .

وايضا يدعو الرسول المعمودية « غسلا » بقوله « لا بأعمال فى بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس » (تى ٣ : ٥) وقد أشار حنانيا الى هذا المعنى حيث قال لشاول « والآن لماذا تتوانى ، قم واعتمد واغسل خطاياك داعيا باسم الرب » (أع ٢٢ : ١٦) راجع أيضا (١ بط ٣ : ١٨ — ٢١ ، أف ٥ : ٢٦) ، والغسل لايمكن أن يتم بالسكب او بالرش بل بانغمار الجسم كله فى الماء .

خامسا : من مدلول لفظة « معمودية » فان هذه اللفظة فى الاصل اليونانى « فابتزما » وهى صيغة مبالغة من كلمة « فابتين » معناها « الصبغ » ، وصبغ الشيء لا يتم الا بوضعه فى السائل وغمره به . أما السكب والرش فلا يؤديان هذه الغاية .

سادسا : ان جميع آباء الكنيسة هكذا علموا وهكذا مارسوا : قال القديس يوستينوس « أن جميع الذين يقتنعون و يصدقون بأن ما نعلمه ونقوله حقيقى ، و يعدون أنهم يستطيعون أن يعيشوا هكذا ، يعلمون أن يصلوا و يطلبوا من الله بصوم مغفرة خطاياهم السالفة ، ونحن نصلى ونصوم معهم ، بعد ذلك نأتى بهم الى حيث يوجد ماء . وتعاد ولادتهم بأسلوب اعادة الولادة الذى أعيدت به ولادتنا ، لانهم يستحمون حينئذ فى الماء على (اسم) أبى الكل الاله السيد ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس » (احتجاج ٧ صفحة ٧٩) .

والقديس **كيرلس الاورشليمي** يقول : « كما أن الذى يدخل فى الماء و يعمد ينغمر بالماء من كل جهة . هكذا قد اعتمدوا تماما من الروح أيضا ، لكن الماء يغمر المعمد من الخارج ، وأما الروح فيعمد النفس داخليا بلا انقطاع » (عظة ٣ : ٢) وغير ذلك من أقوال الاباء التى لا متسع لذكرها هنا .

أما سكب الماء ورشه الذى بدأت الكنيسة الغربية باستعماله حديثا فيكفى أن نقول أن احواض المعمودية لا تزال موجودة فى اقدم كنائس رومه دليلا على صحة تعليمها قديما ، ولا حق لها فى تحويل معموديتها الى معمودية رش ، ولا صحة للادعاء بأن الكنيسة القديمة لم تسمح بذلك الا فى بعض ظروف استثنائية لا مناص منها ، وعلى الخصوص للمرضى والمقعدين الذين لا يمكن عمادهم بالتغطيس (ترتوليانوس فى التوبة فصل ٦ وتاريخ اوسابيوس ٦ : ٤٣ واغسطينوس فى تفسير يوحنا ٨٠) ومع ذلك فقد حدثت مشاجرات عنيفة بين مسيحيى ذلك العصر ، اذ كان كثيرون منهم لا يقبلون اعتبار مثل ذلك العماد الذى تم بالرش ، وكانوا يطلبون اعادة معموديتهم ،

حتى اضطر القديس كبريانوس الى أن يكتب فى هذا الموضوع لنزع الخلاف من بينهم فقال : « أن سر العماد لا يعدم قوته ولا صحته اذا تم عند الضرورة بالرش ولا حاجة الى اعادته » (رسالة ٧٦) ولذلك فان الكنيسة الارثوذكسية لا تعيد معمودية من اقتضى عمادهم بالرش لداعى المرض ، ولكنها لا تسمح باتمام السر اعتياديا الا كما امر به المسيح وكما سلمنا الرسل .

الفصل الخامس

الاعتماد باسم الثالوث الاقدس ومعنى الاعتماد باسم المسيح

ان الكنيسة حسب تعليم الرب وامتثالا لأمره تتمم سر العماد باسم الثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس وتذكر اسماء الاقانيم الثلاثة عند تغطيس المعتمد ، وهذا واضح من أمر الرب الصريح القائل « عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (مت ٢٨ : ١٩) وقد ورد في القوانين الرسولية « أن كل أسقف أو قس لا يعمد حسب أمر الرب بالآب والابن والروح القدس بل بثلاثة (آباء) عديمي الابتداء أو بثلاثة بنين أو بثلاثة معزيين يقطع » وعن ذلك يقول العلامة اوريجانوس « معمودية الخلاص لا ينبغي أن تتمم على وجه آخر الا باسم الثالوث الاقدس أعني باستدعاء الآب والابن والروح القدس » و يقول القديس كبريانوس « ان الرب ذاته أوصى بأن نعتمد باسم الثالوث الاقدس بجملته [1] » (رسالة ٧٣) و يقول القديس اثناسيوس الرسولي « من يرفض هذا الاقنوم أو ذاك من الثالوث الاقدس ، و يعتمد باسم الآب فقط ، أو الابن وحده ، أو الآب والابن خلا الروح القدس ، فذاك لا يشترك بالسر أصلا لأن الكمال والخلاص هما في الثالوث » (رسالة الى سرابيون صفحة ٣٠) .

اما ما ورد في الانجيل من العبارات التي تروى عن المعمودية باسم المسيح ، أو في المسيح يسوع ، (أع ٢ : ٣٨ ، ٨ : ١٦ ، ١٠ : ٤٨ ، ١٩ : ٢٠) فلا يقصد منها نفي العماد باسم الثالوث الاقدس بل المعنى في ذلك أننا نعتمد بالمعمودية التي أسسها ورسمها ربنا يسوع المسيح . وقد قال في ذلك القديس أفلوجيوس « ان الاعتماد بيسوع المسيح هو الاعتماد حسب وصية يسوع المسيح وتسليمه الصريح اعني باسم الآب والابن والروح القدس » وقال القديس باسيليوس « لا يعثرن احدا كلام الرسول حيث يسكت أحيانا عن ذكر اسم الآب والروح القدس في المعمودية ، ولا يظن لهذا السبب أن استدعاء الاسماء أمر لا يجب ملاحظته ، لانه يقول أيها الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح ، وأيضا أيها الذين اعتمدتم بالمسيح ، بموته اعتمدتم . فذكر المسيح هو اعتراف بالجميع لأن هذا الاسم المقدس يدل على الاله الذى مسح ، والابن الذى مسح ، المسحة وهي الروح القدس ، كما يقول بطرس الرسول « يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس » . (في الروح القدس فصل ١٥)

---

(١) يقصد بكلمة (بجملته) هنا أن يكون العماد باسم الاقانيم الثلاثة (معا) .

الفصل السادس

نتائج سر المعمودية غير المنظورة واثبات انها هى الولادة الثانية

قلنا فيا سبق أن الاسرار تمنح نعما غير منظورة ، بممارسة طقوس منظورة ذى علاقة بها . وقد ثبت مما تقدم من ايضاح سر المعمودية فعله غير المنظور، وهنا نشير الى نتائجه السرية وفعله فى نفوس قابليه :

أولا : المعمودية تعيد الولادة الثانية وتجدد خلقة الانسان روحيا وهذا ظاهر من قول الرب يسوع لنيقوديموس « الحق الحق أقول لك أن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله » فلم يفهم نيقوديموس قصد المسيح وفسره تفسيرا حرفيا ، وقال كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ . العله يقدر أن يدخل بطن امه ثانية و يولد ؟ ففسر له الرب معنى كلامه بقوله « الحق الحق أقول لك أن كان احد لا يولد من الماء والروح لا يقدر ان يدخل ملكوت الله ، وأردف هذا الكلام ببيان الفرق بين الولادة الجسدية والولادة الروحية بقوله : « المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح » ونظرا لان هذه الولادة الروحية سرية لا تدرك كيفيتها قال له « لا تتعجب انى قلت لك ينبغى ان تولدوا من فوق . الريح تهب من حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من اين تأتى ولا الى أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح » (يو ٣ : ٣ — ٨) فظاهر من هذا الكلام الصريح ان الرب يسوع يدعو المعمودية ميلادا ثانيا ، و يبين فعلها السرى غير المنظور. والى ذلك اشار يوحنا المعمدان الذى أشاد بمعمودية المسيح وقال عنه « هو سيعمدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣ : ١١) و بولس الرسول يقول « لا بأعمال فى بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس» (تى ٣ : ٥) .

ثانيا : من نتائجها غير المنظورة : التبرير وغفران الخطايا . وهذا واضح ايضا من كلام المخلص نفسه بأن « المولود من الجسد جسد هو، واما المولود من الروح فهو روح » وقول بطرس الرسول « توبوا وليعتمد كل منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس » (أع ٢ : ٣٨) وقوله أيضا « الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية » . موضحا بأن المراد بها « لا ازالة وسخ الجسد ، بل سؤال ضمير صالح عن الله » (١ بط ٣ : ٢١) وقول بولس الرسول « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها ، لكى يقدسها مطهرا اياها بغسل الماء بالكلمة ، لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا

غضن ، أو شيء من مثل ذلك ، بل تكون مقدسة و بلا عيب » (اف ٥ : ٢٥ ــ ٢٧) فيسميها الرسول هنا « غسل الماء » وفى (١ كو ٦ : ١١) و يقول « لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع و بروح الهنا » . فالمعمودية اذن تمارس بالماء الذى يستعمل للغسل ، وهى مقدسة ومطهرة ومبررة من الخطية الجدية بفعل الروح القدس وعمله غير المنظور (راجع ما جاء فى صحيفة ٢٤ عن ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص) .

ثالثا : ان المعمودية تمنح الانسان نعمة التبنى حسب قول بولس الرسول « لانكم جميعا ابناء الله بالايمان بالمسيح يسوع ، لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح ، قد لبستم المسيح ، ليس يهودى ولا يونانى ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر وانثى ، لانكم جميعا واحد فى المسيح يسوع . فان كنتم للمسيح فأنتم اذا نسل ابراهيم وحسب الموعد ورثة » (غل ٣ : ٢٦ ــ ٢٩) وقوله ايضا « لاننا جميعنا بروح واحد ايضا اعتمدنا الى جسد واحد يهودا كنا ام يونانيين ، عبيدا أم احرارا . جميعنا سقينا روحا واحدا » (١ كو ١٢ : ١٣) راجع ايضا (أع ٢ : ٤١ ، رو ٦ : ٣ و٤) .

رابعا : من نتائجها العتق من عقوبة الخطية ، واخذ ميراث الحياة الابدية ، حسب قول السيد « من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن » (مر ١٦ : ١٦) وقول بولس الرسول « خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس ، الذى سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا ، حتى اذا تبررنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الابدية » (تى ٣ : ٥ ــ ٧) وقول بطرس الرسول « ولدنا ثانية لرجاء حى بقيامة يسوع المسيح من الاموات ، لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ فى السموات لاجلكم » . (١ بط ١ : ٣ و٤) .

فمن هذه النصوص المقدسة يتضح جليا أن نتائج المعمودية غير المنظورة بفعل روح الله القدوس هى الولادة الثانية ، والتبرير ، وارث الملكوت وهذه المنح والنتائج مرتبطة بعضها ببعض ، لأن نعمة الله اذ تلد الانسان ثانية تبرره وتقدسه وتجعله ابنا لله مستحقا لوراثة الحياة الابدية .

وهذا التعليم هو تعليم المسيح ورسله ، وعليه سارت الكنيسة فى كل الاجيال ، وهكذا اعتقد آباء الكنيسة منذ الاجيال الاولى .

واليك بعض شهاداتهم :

قال القديس برنابا فى رسالته فصل ١١ : « تتمم المعمودية لغفران الخطايا فننزل فى الماء موعبين (١) من الخطايا والوسخ ، ونصعد مسمرين الخوف فى قلوبنا ، ومالكين الرجاء بيسوع

(١) كلمة « موعبين » بكسر العين تعنى الجمع والشمول . فكلنا ننزل المعمودية بخاطايانا بلا استثناء .

فى روحنا » وقال القديس يوستينوس (فى خطابه الى تريفون فصل ٤٤) « يجب ان نفتش ونعرف من أى طريق يمكن أن ننال صفح الخطايا ، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها ، ولنا فى ذلك طريق واحد فقط ، وهو أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا ، وهكذا نبتدىء ان نعيش بالقداسة » .

وقال القديس اكليمنضس الاسكندرى : « هذا الامر عينه يحصل لنا نحن أيضا الذين قد صار لنا المسيح مثالا فاذ نعتمد نستنير ، واذ نستنير نتبنى ، واذ نتبنى نكمل ، واذ نكمل نضحى غير مائتين . كما يقول « أنا قلت أنكم آلهة و بنو العلى جميعكم » و يدعى هذا الفعل بأسماء كثيرة اعنى نعمة واستنارة وكمالا وحميا . فهو نعمة اذ به نترك عقوبات خطايانا ، واستنارة اذ به نرى النور القدوس الخلاصى ، اعنى اننا نشخص به الى اللاهوت ، وكما لأنه لا يحتاج الى شيء ، وحميم لأننا به نغسل خطايانا » (المربى كتاب ١ فصل ٦ : ٢٢٦) .

وقال القديس غريغوريوس الثاولوغوس : « ان نعمة المعمودية تنقى الانسان من كل خطية وتغسله غسلا كاملا من الاوساخ والاقذار اللاحقة به من الرذيلة ... وهى من حيث انها مجددة للولادة الاولى تجعلنا جددا من عتق ، والهيين بدلا مما نحن عليه » (خطبة فى المعمودية) .

وقال القديس باسيليوس الكبير : « المعمودية فدية المأسورين ، وصفح الاوزار ، وموت الخطية ، واعادة ولادة النفس ، وثوب نير ، وختم لا ينفك ، ومركبة الى السماء تؤدى الى الملكوت ، ومنحة التبنى » (تعليم ابتدائى للموعظين فصل ١٦) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم : « ان معمودية النعمة تطهر كل انسان ، سواء كان فاسدا أو زانيا ، عابدا للاصنام أو غير ذلك ، لانه مهما كان غارقا فى الخطية فحالما يدخل مياه المعمودية يخرج من هذه المياه الالهية أنقى من أشعة الشمس عينها ، وليس نقيا بل قديسا بل بارا أيضا ، لأن الرسول لم يقل « واغتسلتم » فقط بل قال « وتقدستم وتبررتم باسم الرب يسوع » . ثم انه فضلا عن نوالنا بالمعمودية صفح الخطايا والتنقية من المآثم والمظالم ، فاننا نولد بعد المعمودية ولادة ثانية ونخلق ونصور بها » (عظة ثالثة) .

وقال القديس أوغسطينوس : « أننا بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية ، سواء كانت من آدم الذى به أخطأ الجميع ، أو بفعلنا وقولنا لأننا نغسل منها بالمعمودية » (رسالة ١٧٨ : ٢٨) .

وهكذا علم باقى الآباء القديسين معلمى الكنيسة فى كل الاجيال .

الفصل السابع

وحدة المعمودية وعدم اعادتها

ان الكنيسة تعترف وتعلم طبقا لتعليم الرب ورسله بأن المعمودية واحدة ، ولذلك قررت في قانون الايمان هكذا « نعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا » وتعني بذلك عدم جواز اعادتها ثانية متى تمت قانونيا حسب الشروط التي ذكرناها سابقا ، وذلك لسببين :

اولا : لأن المعمودية ولادة روحية ، فكما أن الانسان لا يولد جسديا الا مرة واحدة ، هكذا يجب أن تكون ولادته الروحية مرة واحدة ، وكما أن الانسان بميلاده الجسدي يأخذ صورة وهيئة خاصة يبقى عليها مدى حياته ، هكذا في ميلاده الروحي يأخذ رسما وختما لا يمحى .

ثانيا : لأن المعمودية هي مثال موت المسيح ودفنه وقيامته . فكما ان المسيح مات مرة واحدة مقدما ذاته كفارة ابدية (رو ٦ : ٤ ــ ٦ ، كو ٢ : ١٢ ، عب ٦ : ٤ ، ٧ : ٢٧ ، ٩ : ١٢ ، ١٠ : ١٠) ، وكما انه وضع للناس ان يموتوا مرة واحدة (عب ٩ : ٢٧) هكذا لا يجوز ان تعاد المعمودية مرة ثانية .

ولذلك يقول آباء الكنيسة عن سر المعمودية « انه ختم لا يمحى وختم لا ينكسر» (اوامر الرسل ك ٣ فصل ١٦) « وانه ختم الله ، وكما خلق الانسان الاول على صورة الله ومثاله هكذا الذي يتبع الروح القدس يختم منه و يأخذ صورة الخالق » (ايرونيموس على رسالة أفسس ١ : ١٣) و يقول القديس اوغسطينوس « أن السمة السيدية لا تمحى البتة عن الذين نقتبلهم ولا نعمدهم ثانية » (رسالة ١٨٥ الى بونيفاتيوس فصل ١٣) و يقول ترتوليانوس « لا يجوز أن تعاد المعمودية » (في العفة) و يقول القديس يوحنا ذهبي الفم « قد دفنا معه بالمعمودية للموت ، وكما انه غير ممكن ان يصلب المسيح مرة ثانية ، هكذا لا يقدر من قد اعتمد مرة أن يقبل معمودية ثانية » (مقالة ١١ : ٣ على رسالة العبرانيين) . و يقول القديس افرآم السرياني « ان الرب اوصى تلاميذه ان ينقوا بمياه المعمودية خطايا الطبيعة البشرية مرة واحدة » (كتاب الايمان ٤ : ٩) .

الفصل الثامن

معمودية الدم او الشهادة

ومن الواجب ان نبين هنا ان الكنيسة تعتبر معمودية اخرى تسميها معمودية فوق العادة » او « معمودية الدم والشهادة » . وتقصد بها الذين يقدمون انفسهم للشهادة على اسم المسيح قبل أن يقتبلوا معمودية الماء ، وذلك بناء على قول الرب نفسه « كل من يعترف بى قدام الناس اعترف انا ايضا به قدام أبى الذى فى السموات » (مت ١٠ : ٣٢) « وان من اراد ان يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من اجلى يجدها » (مت ١٦ : ٢٥) « طوبى للمطرودين من اجل البر لان لهم ملكوت السموات » (٥ : ١٠) « قد غفرت خطاياها الكثيرة لانها أحبت كثيرا » (لو ٧ : ٤٧) « الذى يحبنى يحبه أبى وأنا أحبه وأظهر له ذاتى » (يو ١٤ : ٢١) « ليس لاحد حب أعظم من هذا أن يضع نفسه لأجل أحبائه . أنتم أحبائى أن فعلتم ما أوصيكم به » (يو ١٥ : ١٣ و١٤) . وبهذه المعمودية التى نحن بصددها قد اعتمد جمهور كثير من الشهداء الذين قدموا ذواتهم وسفكوا دمهم لاجل المسيح .

وقد اعتبر آباء الكنيسة هذه المعمودية اعتبارا كثيرا . فقد قال القديس كبر يانوس : « لا يجهل احد أن الموعوظين بعد استشهادهم لا يكونون غير معمدين ، لأنهم اصطبغوا اعظم صبغة واشرفها ، أى صبغة الدم التى تكلم عنها المخلص . والرب يؤكد أيضا أن المعتمدين بدمهم والمقدسين بالتعذيبات يضحون كاملين و يأخذون نعمة الموعد الالهى » . وقال القديس كيرلس الاورشليمى : « من لا يقبل المعمودية فلا خلاص له . ما عدا الشهداء وحدهم الذين بدون الماء ينالون الخلاص . لأن المخلص لما كان يفتدى العالم كله بالصلب نخس فى جنبه فخرج منه دم وماء ، ليعتمد البعض بالماء فى اوقات السلام ، والبعض الآخر بدمهم فى أوقات الاضطهادات . ان المخلص نفسه دعا الشهادة صبغة بقوله « هل تستطيعان أن تشربا الكأس التى اشربها أنا وأن تصبغا بالصبغة التى أصطبغ بها » (عظة ٣ : ٨) وقال القديس باسيليوس « ان بعضا نالوا الموت بالجهاد الذى عن حسن العبادة لاجل المسيح حقيقة لا اقتداء ، ولم يحتاجوا الى شىء من الرسوم التى من الماء لخلاصهم ، لأنهم تعمدوا بدمهم » (لا مفيلوشيوس فى الروح القدس رأس ١٥) وقال القديس غريغوريوس الشاولوغوس « اننى اعرف معمودية اخرى أيضا وهى معمودية الشهادة والدم ، المعمودية التى تعمدها مخلصنا نفسه . هذه المعمودية هى أكثر مجدا من غيرها ».

(خطاب فى عيد الظهور) وقال القديس اغسطينوس عن أطفال بيت لحم « الطوبى لكم لأنكم بعد الولادة وقبل المحاربة قد تكللتم بالظفر ، وانى لا ارتاب فى أن استشهادكم قد استحق لكم اكليل عدم الموت كما لا ارتاب فى ان المعمودية مفيدة للاطفال » .

الفصل التاسع

١ ــ من له حق التعميد :

ان الرب يسوع قد جعل حق التعميد للرسل حيث قال لهم « اذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم الخ » (مت ٢٨ : ١٩ ، مر١٦ : ١٦) وقد انتقل هذا الحق من الرسل الى خلفائهم الاساقفة ، ومن الاساقفة الى القسوس ، اى ان الذين لهم حق التعميد هم الاساقفة والقسوس لا غير مع خدمة الشماس معهم . وقد نصت القوانين الرسولية هكذا « اننا لا نسمح بحق التعميد لاحد من الاكليروسيين مثل القارئين والمرتلين والبوابين والخدمة ، الا للاساقفة والقسوس وحدهم ، الذين يخدم معهم الشمامسة » وقد أثبت ذلك جميع آباء الكنيسة . قال القديس أغناطيوس الشهيد فى رسالته الى أهل أزمير « لا يسمح لكم أن تعمدوا بدون أسقف ولا أن تقربوا قرابين ولا أن تقدموا ذبيحة » وقال العلامة ترتوليانوس « ان السلطة فى تتميم المعمودية منوطة بالاسقف ثم بالقسوس مع الشمامسة . ولكن ليس بدون اذن من الاسقف لشرف الكنيسة » وقال القديس أبيفانيوس « انه حسب النظام الكنسى لا يتمم الشمامسة سرا من الاسرار، ولكنهم يخدمون فى خدمة الاسرار، غير أنه حينما تدعو الضرورة يسمح للعالميين (١) أيضا أن يعمدوا » (ضد الهرطقات ٨٩) وقال أيضا « لو كان التعميد مسموحا به للنساء ، لما تقبل ربنا يسوع المسيح المعمودية من يوحنا ، بل من أمه الكلية القداسة » (ضد الهراطقة ٧٩) .

٢ ــ واجبات المعتمدين :

الواجبات المطلوبة من المعتمدين هى :

أولا : الايمان بالرب يسوع (مر١٦ : ١٦ ، أع ١٦ : ٣١) .

ثانيا : الاعتراف بهذا الايمان علنا وصريحا .

ثالثا : التوبة حسب قول بطرس الرسول « توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس .

(أع ٢ : ٣٨ ، ٣ : ١٩) .

رابعا : بما أن ابن الله أظهر لكى ينقض أعمال ابليس (١ يو٣ : ٨) لذلك يجب على

---

(١) كلمة « العالميين » هنا يقصد بها على التغليب الشمامسة لأن الكنيسة تقيمهم لمعاونة رجال الكهنوت فى الخدمات الكنسية والخدمات فى العالم بين الناس ، وقد اختار الرسل الشمامسة السبعة كما جاء فى سفر الاعمال لمثل ذلك .

المعتمد قبل كل شيء أن يجحد الشيطان و يرفض أعماله ، و يتعهد بأن يترك كل أباطيل العالم و يكفر بأعمال الظلمة ، لأنه رجع من ظلمات الجهل والشر والخطية الى نور المعرفة والقداسة والبر، ومن سلطان الشيطان الى الله (أع ٢٦ : ١٨) . والمراد بجحد الشيطان ترك الخطية ورفض كل أعمال ابليس ، وأتباع المسيح والسلوك بحسب تعليمه ، والسير في أثر خطواته . وهذا التعليم موافق كل الموافقة لروح الكتاب الذى ينادى هكذا « لينتهرك الرب يا شيطان » (زك ٣ : ٢) « اذهب يا شيطان » (مت ٤ : ١٠) وما جاء في سفر أعمال الرسل من أن كثيرين من الذين آمنوا كانوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم . وكان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع .. الخ (أع ١٩ : ١٨ و١٩) راجع أيضا (١ كو ١٠ : ٢٠ ، ٢ كو ٦ : ١٥ ، أف ٥ : ١١ ، في ٣ : ٨ و١٣ ، كو٣ : ٥ ــ ١٠) .

والكنيسة تمارس هذا الامر من عهد تأسيسها وذلك بشهادة العلامة ترتليانوس (في المعمودية ٢٠) والقديس اكليمنضس الاسكندرى (في الرسومات ٥ : ١١) وكيرلس الاورشليمى (عظة ١ : ٣٥) والقديس يوحنا ذهبى الفم (في مقالة على رسالة أفسس) .

وقد ورد في تاريخ موسهيم : « كان الاسقف والقسوس تحت أمره يعمدون مرتين في السنة ، أى في الفصح والاحد الجديد بعد الفصح . فمن جهة الطالبين يظن أنهم كانوا يغطسون بالماء كليا مع الابتهال للثالوث الاقدس حسب أمر المخلص بعد أن يكونوا قد تلوا ما يسمونه **قانون الايمان** و يرفضوا كل خطاياهم ولاسيما الشيطان وجنوده ، وكان يرسم الصليب على المعتمدين ويمسحونهم و يستودعونهم لله بالصلاة ووضع الايادى وأخيرا يذيقونهم من اللبن والعسل .. كان على البالغين أن يروضوا عقولهم بالصلاة والصوم ورياضات أخر خشوعية . ووضع الاشابين أولا للبالغين ثم وضعوا للاطفال أيضا (موسهيم كتاب قرن ٢ قسم ٢ فصل ٤ عدد ١٣) .

وهذا الطقس لا يزال جاريا في جميع الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية والشيع البروتستانتية . فقد جاء في كتاب الصلاة العامة للكنيسة الاسقفية : « بما أن هذا الوعد قد حصل من المسيح فينبغي لهذا الطفل أن يعد بأمانة على يدكم (أى الاشابين) معشر كفلائه الى أن يبلغ . فيتعين عليه وفاء ذلك بأن يرفض الشيطان وجميع أعماله و يؤمن بكلمة الله المقدسة راسخا ، ويحافظ على وصاياه مطيعا » ثم يسأل القسيس العراب (الاشبين) أبالنيابة عن هذا ترفض الشيطان وجميع أفعاله وزخارف الدنيا ومجدها الباطل الخ ؟ (راجع كتاب الصلاة العامة . باب معمودية الاطفال) .

٣ ــ وظيفة الاشابين :

كانت الكنيسة تلاحظ الذين يعتمدون وتراقبهم بكل حذر وتتلمذهم أولا زمنا تحت التعليم

حتى تتحقق من ثباتهم في الايمان ، ولما كانوا يمكثون مدة تحت الارشاد والوعظ فقد سمتهم « الموعوظين » وكانت الكنيسة ولا تزال تصلى لأجلهم مستمدة لهم من الرب نعمة الاستنارة ، وعنهم قال القديس غريغوريوس الثاولوغوس فى مقالة يوم الخمسين « انه لا يليق ولا يوافق للاعين الضعيفة أن تعاين الشمس ، ولا للرضع أن يتناولوا طعاما كاملا ، بل الأجدر أن يتدرجوا قليلا الى ما هو قدام و يرتقوا الى الأمور السامية ، فنحن بهذا الصنيع نمنح هؤلاء نورا بعد نور مبينين لهم من الحق يقينا » .

ولما كان الاطفال لا يدركون ماهية الايمان ، ولا يستطيعون اعلان ايمانهم ، ولا يفقهون معنى المعمودية ، ولا يمكن أيضا تلمذتهم ، فلذلك رأت الكنيسة منذ القدم أن تعمدهم على ايمان والديهم وتعهد أشابينهم ، الذين يتكفلون بتربيتهم التربية المسيحية وتعليمهم حقائق الايمان ، و يتعهدون بذلك أمام الكنيسة .

أما كلمة « أشبين » فانها سريانية الاصل ومعناها الحارس أو الوصى .

وتعيين الاشابين قديم جدا و يرجع الى زمن الرسل ، فقد ورد فى سفر الاعمال أن الرب نفسه عهد الى حنانيا تعليم شاول وارشاده قبل عماده (أع ٩) و بعد ذلك مكث فى دمشق عند حنانيا مع التلاميذ أياما (أع ٩ : ٢٨) وكذلك عهد الى بطرس الرسول تعليم كرنيليوس القائد الرومانى قواعد الايمان وارشاده الى طريق الحياة الابدية بالمسيح يسوع (أع ١٠) وقد قال القديس ديوناسيوس الاريوباغى تلميذ بولس الرسول عن هذه العادة : « ان هذا الامر افتكر به معلمونا الالهيون (الرسل) ورأوه موافقا أن يقبل الاطفال على هذا الوجه الشريف أعنى أن يسلم الوالدان الطبيعيان ولدهم لمرب صالح وأن يبقى الولد فيما بعد تحت ادارته كأنه تحت عناية أب الهى وكفيل لخلاص مقدس ، فتمم السر يرفعه وهو معترف الى الحياة المقدسة طالبا رفض الشيطان والاقرار الشريف » (فى رئاسة الكهنوت ٧ : ١١) وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « وان كان المعمدون أطفالا أو طرشا لا يستطيعون استماع التعليم فليجاوب أشابينهم عنهم ، وهكذا يعمدون حسب العادة (على مز ١٤) وقال القديس أغسطينوس « اننا نؤمن ونصدق بتقوى وصواب أن ايمان الوالدين والاشابين يفيد الاطفال ، وعلى هذا الايمان يعمدون » (فى السلطة الذاتية ٢٣ : ٦٧ ورسالة ١٩٣ : ٣) .

٢ ــ ســــر الميــــرون

او المسحة المقدسة

الفصل الاول

١ ــ ارتباط هذا السر بسر المعمودية وتعريفه وأسماؤه والغرض منه وتأسيسه .

اننا بسر المعمودية نولد ولادة ثانية من فوق . ومن ولد ولادة جديدة يحتاج الى قوة تثبته وتحفظ وجوده ونموه فى الحياة الروحية ، ولهذا منح الرب يسوع هذا السر للمؤمنين لثباتهم فى الايمان وتقويتهم ونموهم فى التقوى . و بناء عليه يكون لهذا السر بالنسبة للمعمدين الرتبة الثانية بين الاسرار، ولهذا السبب يمنح بعد المعمودية حالا .

وهو سر مقدس به ننال ختم موهبة الروح القدس .

و بالنظر الى طبيعة السر ومفاعيله دعى « وضع الايادى » لأن الرسل كانوا يتممونه فى العصر الاول بوضع الايادى على المعتمدين ، وسمى غالبا مسحة ، ومسحة سرية ، وسر المسحة ، ومسحة الميرون ، ومسحة الخلاص ، وذلك لأنه يتمم بمسح المعتمد بالميرون الذى هو طيب خاص . وأما بالنسبة لمفاعيله الداخلية الروحية فقد سمى موهبة الروح القدس ، وسر الروح ، وعلامة الروح ، وسر التثبيت ، وختم الروح ، وختم الحياة الابدية .

٢ ــ الغرض من هذا السر:

اما الغرض من هذا السر فواضح مما تقدم ، وهو النمو والتدرج فى الحياة الروحية ، فكما أنه توجد فى الطبيعة البشرية للمولود جديدا قوة لازمة للنمو والنشوء للوصول الى الكمال ، وكما أنه توجد أيضا فى القوى العقلية قوة كامنة ــ وان كانت غير ظاهرة فى الصغر ــ تنمو وتزداد شيئا فشيئا ، كذلك المولود روحيا بالعماد تلزمه قوة لينمو روحيا ، وتلك القوة تمنح بسر الميرون . ولما كانت حياتنا الروحية تبدأ وتنمو فى دائرة روحية لزم أن تأتينا هذه القوة المكملة للحياة من روح علوى ، وبما أن هذه الحياة هى الهية لزم أن ينميها روح الله نفسه . فاننا بالعماد نتطهر، و بالميرون نتقوى . بالعماد ننجو من الموت ، و بالميرون نحيا ونثبت فى الحياة . بالمعمودية ننال الولادة الثانية ونقبل الروح القدس للتبرير، و بالميرون ننال الروح الذى يهبنا الكمال . بالمعمودية ندخل فى

ملكوت المسيح ، و بالميرون نتجند ونلبس أسلحة الحرب . بالمعمودية نتدرج ضمن عضوية الكنيسة ، و بالتثبيت نكون جنود للمسيح . المعمودية تجعلنا من رعايا المسيح و بالميرون ندخل في صفوف الجيش .

٣ ـ تأسيس هذا السر:

وقد أسس الرب يسوع هذا السر عندما قال : « ان عطش أحد فليقبل الى و يشرب . من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حى . قال هذا عن الروح الذى كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه لأن الروح القدس لم يكن قد أعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد » (يو ٧ : ٣٧ ـ ٣٩) فمن هذا النص الشريف يتضح أن الرب يسوع يشير الى موهبة كان مزمعا أن يهبها للمؤمنين ، وهي عطية الروح القدس الضرورية لكل مؤمن ، وليس الى المواهب غير الاعتيادية التى تمنح أحيانا الى بعض من المؤمنين لمقاصد خاصة ، كفعل المعجزات والتكلم بالالسنة وغير ذلك .

(راجع ١ كو ١٢ : ٧ و٢٩) .

وللروح القدس اعمال عظيمة فى سر الفداء وفي حياة الكنيسة . فهو منذ البدء يبث روح الحياة في المادة (تك ١ : ٢) وهو الذى أعلن الحقائق الالهية والنبوات الى الانبياء . وهو الذى قدس السيدة العذراء لحلول المسيح في أحشائها . وهو الذى كرس ناسوت المسيح وجعل جميع أعماله العلنية مخصصة لله الآب . وقد أسس المسيح الكنيسة وجمعها و باركها وفداها ، والروح القدس قدسها وأنشأ فيها قوته المحيية وثبتها ووحدها ولا يزال يحييها .

ولذلك وعد الرب يسوع تلاميذه بحلول الروح القدس قائلا : « وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم الى الأبد . روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لايراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم و يكون فيكم » (يو ١٤ : ١٦ و١٧) « ان لم أنطلق لايأتيكم المعزى ولكن أن ذهبت أرسله اليكم . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق . الخ » (يو ١٦ : ٧ و١٣) « وأوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الآب . . . لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس » (أع ١ : ٤ و٥) .

ولا ريب أن العنصرة كانت للرسل تثبيتا ، وفي ذلك اليوم قبلوا هذا السر المقدس بمعجزة من الروح القدس مباشرة ، اذ لم يكن فى الكنيسة أحد قبلهم ليمنحهم اياه .

وأما الرسل فقد أعطوا أن يمنحوا هذا السر لغيرهم من المؤمنين ، لأن المخلص أقامهم خداما لانجيله ووكلاء لاسرار نعمه ، وما تم للرسل فى يوم الخمسين يمنح لكل مؤمن لدى قبوله سر التثبيت .

الفصل الثانى

استقلال هذا السر عن سر المعمودية واثباته

هذا السر وان كان يمنح بعد المعمودية الا انه سر مستقل بنفسه كما يتضح ذلك مما يأتى :

أولا : مما تقدم من مواعيد السيد له المجد عن هذا السر ما يبرهن على أنه شىء خاص خلاف المعمودية (راجع صفحة ٤٧) .

ثانيا : مما نراه واضحا من اعمال الرسل عن هذا السر . فقد ورد صريحا فى سفر الاعمال أنه « لما سمع الرسل الذين فى أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا اليهم بطرس و يوحنا . اللذين لما نزلا صليا لاجلهم لكى يقبلوا الروح القدس . لأنه لم يكن قد حل بعد على احد منهم . غير انهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع . حينئذ وضعا الايادى عليهم فقبلوا الروح القدس » (أع ٨ : ١٤ ــ ١٧) فمن قوله « غير انهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع » يتضح ان سر المعمودية ليس هو قبول الروح القدس للتثبيت الذى لا يحل الا بواسطة سر الميرون . وكذلك لما جاء بولس الرسول الى افسس « فاذ وجد تلاميذه قال لهم هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم : قالوا له ولا سمعنا انه يوجد الروح القدس . فقال لهم فبماذا اعتمدتم فقالوا بمعمودية يوحنا . فقال بولس ان يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلا للشعب ان يؤمنوا بالذى يأتى بعده أى بالمسيح يسوع . فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع . ولما وضع بولس يده عليهم حل الروح القدس عليهم » (أع ١٩ : ٢ و٦) .

ومن هذين النصين يتضح :

١ ــ ان الرسل كانوا يتممون هذا السر بوضع اليد بعد المعمودية .

٢ ــ انهم بوضع اليد كانوا يمنحون للمؤمنين موهبة حلول الروح القدس .

٣ ــ ان الرسل عندما كانوا يضعون اياديهم على المعتمدين كانوا يصلون الى الله ليحل الروح القدس . ومن ذلك يظهر انه عمل سرى قائم بنفسه ، مستقل عن المعمودية .

٤ ــ ان هذا السر المنفصل عن سر المعمودية هو سر مؤسس من المسيح نفسه ، لأن كلام الرسل وتعليمهم واعمالهم ليست لهم لكنهم تسلموها من المسيح ، والهموا بها من قبل روحه الاقدس .

ثالثا : ان الرسل الاطهار يشيرون في رسائلهم الى هذا السر المقدس و يؤكدون للمؤمنين بأنهم أخذوا به موهبة الروح القدس ، وهذا صريح في قول القديس يوحنا الانجيلي « واما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء ... وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم الى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء . وهي حق وليست كذبا كما علمتكم تثبتون فيه » (١ يو٣ : ٢٠ ، ٢٧) واذا قابلت كلام يوحنا هذا مع وعد المسيح عن الروح القدس بقوله « وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء و يذكركم بكل ما قلته لكم » (يو١٤ : ٣٦) رأيت أن المسحة التي يشير اليها هي حلول الروح القدس للتثبيت . لاسيا وأن هذا هو اصطلاح الكتاب فقد سبق اشعياء النبي وسمى حلول الروح مسحة بقوله « روح الرب علي لأن الرب مسحني » (اش ٦١ : ١) و بولس الرسول يقول « ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضا واعطى عربون الروح في قلوبنا » (٢ كو١ : ٢١ و٢٢) وعند كلامه عن المعمودية يقول « لكن اغتسلتم ــ ثم يردفها بقوله ــ بل تقدستم » (١ كو٦ : ١١) و يقول أيضا « خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس » (تي ٣ : ٥ ، أف ٥ : ٢٦) وفي (عب ٦ : ٢) يشير الى تعليم المعموديات ووضع الايادي ، وفي ذلك دلالة ظاهرة على أن وضع الايادي خلاف المعمودية .

ومما تقدم يتضح أن الرسل يشيرون الى هذه المسحة و يسمونها تثبيتا ، وختما ، ووضع الايادي ، ومسحة . وذلك بالنظر الى فعل السر الداخلي ، و يثبت ذلك أيضا أقوال الآباء الرسوليين مثل ديوناسيوس الأر يوباغي تلميذ بولس الرسول في (كتاب رئاسة الكهنوت ٧ : ٤ ــ ٧) وكيرلس الاورشليمي في (مقالة عن الاسرار) و يوحنا ذهبي الفم في (تفسير ٢ كو فصل ٢) وأمبروسيوس في (الاسرار فصل ٥) .

وبما ان الرسل يذكرون المسحة ووضع اليد في مقام واحد ، فيستنتج من ذلك اما أنهم كانوا عندما يتممون هذا السر بوضع اليد يستعملون في الوقت نفسه العلامة الثانية الظاهرة ، أي المسحة التي لم يذكر عنها شيء في سفر اعمال الرسل . وأما أنهم كانوا يتممون السر بوضع الايادي فقط ثم استبدلوا ــ بارشاد الروح القدس ــ وضع الايادي بعلامة المسحة ، آخذين مبدأها من تعليم الكتاب عن المسحة في العهد القديم .

رابعا : ان الآباء الرسوليين الذين تسلموا التعليم من الرسل انفسهم يشيرون في أقوالهم الى هذا السر .

قال القديس ديوناسيوس الار يوباغي في كلامه عن سر الشركة : « لكن توجد تكملة

أخرى معادلة لهذه (أى الشركة) يسميها معلمونا الرسل « تكملة الميرون » ثم اخذ فى شرح تجهيز الميرون وكيف تتم المسحة على المعتمدين .

والمواهب التى تمنحها الى أن قال « ان مسحة التكميل بالميرون المقدس لمن استحق سر الولادة الثانية يمنحها حلول الروح ذى العزة الالهية » (كتاب رئاسة الكهنوت ٤ : ١ و١١ ، ٢ : ٨) .

وقال العلامة ترتليانوس : « بعد خروجنا من حميم المعمودية مسحنا بزيت مقدس تبعا للتكملة القديمة ، كما كانوا قديما يدهنون بزيت القرن لنوال الكهنوت ... ان المسحة تتم علينا جسديا لكننا نستثمر منها اثمارا روحية ، كما فى المعمودية حيث نعتمد جسديا بالماء ونستثمر اثمارا روحية اذ نتنقى من خطايانا . و بعد ذلك توضع اليد التى مع البركة تستدعى الروح القدس وتحدره » (فى المعمودية فصل ٧ وفى رفض الهراطقة فصل ٣٧ وضد مركيانوس ٣ : ٢٢) .

و يذكر القديس اكليمنضس الاسكندرى فى كلامه عن تلاميذ باسيليدس الهرطوقى أن المعمودية فى هذا المذهب الفتالى أى الذى ينسب كل شيء الى المقدرة ، « ليست معمودية حقيقية ولا ختما مضبوطا » (فى البديعيات ١١ : ٣) .

وقال القديس كبريانوس : « من اعتمد ينبغى أن يمسح أيضا لكى يصير بواسطة المسحة ممسوحا لله و يأخذ نعمة المسيح » (رسالة ٧٠) وقال فى (رسالة ٧٢ عن الهراطقة) « لأنهم لا يستطيعون أن يتقدسوا تماما و يصيروا ابناء الله بدون اعادة ولادتهم بواسطة السرين ، وقال أيضا فى (رسالة ٧٣) « كما أن الرسولين بطرس و يوحنا بعد صلاة واحدة استحدرا الروح القدس على سكان السامرة بوضع الايادى ، هكذا فى الكنيسة أيضا من ذلك الحين جميع المعمدين ينالون الروح القدس ويختمون بختمه عند دعاء الكهنة ووضع أياديهم » .

وقد ورد فى أوامر الرسل « بعد هذا فليعمده الكاهن باسم الآب والابن والروح القدس وليمسحه بالميرون » (كتاب ٧ : ٤٣) .

وقال القديس كيرلس الاورشليمى : « قد صرتم مسحاء اذ قبلتم الروح القدس ، وكل شيء قد صار عليكم بحسب الرسم اذ انكم رسوم المسيح ، فانه لما استحم فى نهر الاردن وصعد منه انحدر الروح القدس عليه جوهريا واستراح المثيل على مثيله ، ونحن أيضا بعد أن صعدنا من جرن الينابيع المقدسة منحت لنا المسحة رسميا كما مسح بها المسيح أعنى الروح القدس .. لكن أنظر واحترس من أن تظن ذاك الميرون بسيطا ، لأنه كما أن خبز الشكر بعد استدعاء الروح ليس خبزا

بسيطا ، بل هو جسد المسيح . هكذا هذا الميرون المقدس لا يعد ميرونا بسيطا ولا عموميا بعد الدعاء ، بل هو موهبة المسيح وحضور الروح القدس فاعلا فعل الوهيته فتمسح به على جبهتك وسائر حواسك ، والمسيح هو الذى رسم . فان الجسم يدهن بالميرون الظاهر ولكن النفس تقدس معا بالروح القدس المحيى » (تعليم الاسرار ٣ : ٣) .

وقال القديس افرآم السرياني : « ان سفينة نوح كانت تبشر بمجىء المزمع أن يسوس كنيسته فى المياه ، وأن يرتد اعضاؤها الى الحرية باسم الثالوث الاقدس . واما الحمامة فكانت ترمز الى الروح القدس المزمع ان يصنع مسحة هى سر الخلاص » (خطاب ١٩ ضد الفاحصين) .

وقال القديس كيرلس الاسكندرى : « ان الميرون يشير حسنا الى مسحة الروح القدس » (على يوئيل ٢ : ٢٣) .

خامسا : ومما يستحق الاعتبار أن هذا السر وكذا باقى الاسرار السبعة المقدسة محترمة ومعتبرة هكذا عند جميع الكنائس الشرقية والغربية ، مع اختلاف هذه الكنائس فى أمور عقائدية كثيرة . فهذا الاتفاق العام دليل على ان هذا التعليم لم يصل الى الكنائس الا عن تسليم رسولى منذ بداءة الكنيسة .

سادسا : أما شهادة التاريخ فنكتفى هنا بما ذكره المؤرخ البروتستانتى موسهيم حيث قال : « كان الاسقف او القسوس تحت امره يعمدون مرتين فى السنة اى فى الفصح والاحد الجديد الذى بعد الفصح . فمن جهة الطالبين يظن انهم كانوا يغطسون بالماء كليا مع الابتهال للثالوث الاقدس حسب امر المخلص ، بعد ان يكونوا قد تلوا ما يسمونه القانون و يرفضوا كل خطاياهم ومعاصيهم ولا سيا الشيطان وجنوده . وكان يرسم الصليب على المعمدين ويمسحون و يستودعون لله بالصلاة ووضع الايادى » .

(كتاب ١ قرن ٢ قسم ٢ فصل ٤ عدد ١٣) .

سابعا : ان كنائس كثيرة من الكنائس الحديثة التى اتبعت تعاليم **لوثر وكلفن** قد قبلت هذا السر وتمارسه . قال القس جيمس انس الامريكى فى كتابه (نظام التعليم فى علم اللاهوت القويم) عن سر التثبيت « ان الكنائس اللوثرية والانكليزية الاسقفية والمصلحة الجرمانية تقبله نظير عمل يضاف الى معمودية الاطفال بعد تعليمهم التعليم المسيحى » (جزء اول صحيفة ١١٧) والكنيسة الاسقفية تتممه بوضع الايادى للذين اعتمدوا و بلغوا سن التميز، وله عندها طقس خاص كما هو واضح فى كتابهم (الصلاة العامة) .

قال القس بنيامين شنيدر الانكليزى فى كتابة (ريحانة النفوس فى اصل الاعتقادات والطقوس . ص ١٦١) عن المسحة « قد ابتدىء باستعمالها قديما فان ترتوليانوس الذى توفى سنة ٢٢٠ يشير اليها (فى المعمودية رأس ٧) ولهذا يتضح أنها كانت موجودة فى آخر الجيل الثانى أو أول الجيل الثالث .. الا أن وجودها فى ذلك العصر كعادة مقبولة من عامة الكنيسة يتضح من كيرلس (تعليم مسيحى لكيرلس) ومن الكتاب المدعو القوانين الرسولية (كتاب ٣ رأس ١٧ وكتاب ٧ راس ٢٢) ومن ايرونيموس (فى نبوة حزقيال ص ٩) الي ان قال : بعد ذلك لم يكتفوا بهذه التشابيه بل اخذوا يستعملون عبارات تشعر ان الروح القدس كان يعطى مع الزيت حتى اننا نجد عبارات مثل هذه فى كبريانوس (رسالة ٧٠ الى يانوار يوس) وأمبروسيوس (فى الداخلين رأس ٧) وأغسطينوس (فصل ٦ فى تفسير رسالة يوحنا) .

وقال العالم أدورد وليم الانكليزى فى كتابه (القلائد الدرية فى الحياة المسيحية) « ولعل مما يزيل الأشكال من أذهان بعض الناس ايراد الأسماء المختلفة للمعمودية بالروح القدس ، فعبر عنها احيانا « بالحلول » واحياناً « بالنزول » وأحيانا « بالقبول » وأحيانا « بالختم » وأحيانا « بالمسحة » أى مسحة الروح القدس ، فعبر عنها بالمسحة فى (١ يو ٢ : ٢٧) كما عبر بطرس عن معمودية ربنا « بمسح الله اياه بالروح القدس والقوة » (أع ١٠ : ٣٨) وعبر عنها ربنا نفسه « بالحلول » أى حلول الروح القدس (أع ١ : ٨) وبهذا عبر عن قبول الأفسسيين للروح القدس (أع ١٩ : ٦) وأكاد لا أدرى الي أى حد يجب أن أتقدم فى هذا البيان . لأن ما يحتاج اليه من الايضاح أقل مما نحتاج اليه من الاشواق الى الله نفسه . ومما يساعد بعض الناس ملاحظة أن الكنائس المسيحية القديمة تشهد بأنها قبلت الروح القدس بقانون التثبيت ، ولكن هذا القانون قلما فهم ، وكثيرا ما أحتقر وأعتزل مع أنه قانون الرسل (أنظر أع ٨ و١٩) وما اهتمت به الكنائس القديمة كل الاهتمام وحسب القانون الدائم الذى لا بد منه الى نهاية الايام ، ومراعاة هذا القانون تدفع اعتراضات كثيرة قامت على تعليم المعمودية بالروح ، وهى المعمودية الواحدة بدليل قوله « أننا جميعنا بروح واحد أيضا اعتمدنا الى جسد واحد » (١ كو ١٢ : ١٣) وقوله « رب واحد وايمان واحد معمودية واحدة » (أف ٤ : ٥) ويحل ذلك المشكل أيضا برجوعنا الى الاصحاح الثامن من الاعمال ، حيث ورد فيه ولكن لما صدقوا (أى أهل السامرة) فيلبس وهو يبشر بالامور المختصة بملكوت الله و باسم يسوع المسيح اعتمدوا رجالا ونساء » (أع ٨ : ١٢) ولكن ماذا بعد المعمودية « ان الروح لم يكن قد حل بعد على أحد منهم » (أع ٨ : ١٦) فنرى أنه قد مر وقت بين اعتمادهم ودخولهم الكنيسة و بين قبولهم الروح القدس (أع ٨ : ١٤ و١٥) فلننظر هنا حسنا أنه كما لا ينكر أن امتيازات المعمودية متوقفة على قانون التثبيت لا ينكر أن المعمودية الواحدة قبول الروح القدس » (صحيفة ١٠ ــ ١٢) .

الفصل الثالث

منح هذا السر حالا بعد المعمودية وخطأ الذين يؤخرونه

ان الكنيسة الأرثوذكسية تمنح سر الميرون بعد المعمودية حالا ، متبعة فى ذلك تعليم الرب يسوع ورسله الاطهار، وما استلمته منذ العصر الرسولى ، ولكن الكنائس الغربية بدأت منذ الجيل الثالث عشر أن تؤخر منحه للأولاد المعتمدين حتى تجاوزهم سن الطفولة ، أى فى السنة السابعة او الثانية عشرة حتى يشتركوا فيه بعقل ومعرفة كافية ، ولكن الأدلة الآتية تثبت الحقيقة الأرثوذكسية فى منحه بعد المعمودية حالا :

أولا : ان السيد المسيح له المجد لما اعتمد صعد للوقت من الماء ، واذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه (مت ٣ : ١٦) وهذا يدل على أن الروح القدس يحل بواسطة الميرون بعد المعمودية حالا .

ثانيا : ان الرسل الأطهار الذين سلمونا وديعة الايمان كانوا يتممون هذا السر المقدس بوضع الأيادى بعد المعمودية حالا ، كما نرى ذلك فيما عمله بولس الرسول مع تلاميذ أفسس اذ قال لهم « هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم . قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فعمدهم باسم الرب يسوع ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم » (أع ١٩ : ١ ـــ ٦) وكما نشاهد ذلك أيضا من أنه حين سمع الرسل الذين فى أورشليم أن اهل السامرة قد قبلوا كلمة الله واعتمدوا على يد فيلبس الذى لا حق له فى وضع الأيادى ، أرسلوا اليهم بطرس و يوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكى يقبلوا الروح القدس ، لأنه لم يكن قد حل بعد على أحد منهم ، غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع . حينئذ وضعا الأيادى عليهم فقبلوا الروح القدس (أع ٨ : ١٤ ـــ ١٧) فمن ذلك يتضح أن الرسل كانوا يتممون هذا السر بعد المعمودية حالا .

ثالثا : أن آباء الكنيسة فى الأجيال الأولى كانوا يتممونه حسب التعليم الرسولى بعد المعمودية حالا ، وذلك بشهادة العلامة ترتوليانوس الذى عاش فى الجيل الثانى فقد قال : « بعد خروجنا من جرن المعمودية مسحنا بزيت مقدس تبعا للتكملة القديمة ، كما كانوا قديما يدهنون بزيت القرن لنوال الكهنوت ... ان المسحة تتم علينا جسديا لكننا نستثمر منها أثمارا روحية كما فى المعمودية حيث نعتمد جسديا بالماء ونستثمر أثمارا روحية اذ نتنقى من خطايانا ، و بعد

ذلك توضع اليد التى مع البركة تستدعى الروح القدس وتحدره » كما قال القديس كيرلس الاورشليمى فى مقالته الثالثة عن الأسرار: « بعد خروجنا من جرن الجارى المقدسة أعطيت المسحة وهى رسم المسحة التى مسح بها المسيح فهذه هى الروح القدس ، وورد فى مجمع اللاذقية « يجب على المستنيرين أن يمسحوا بعد المعمودية بمسحة سمائية و يشتركوا فى ملكوت المسيح » .

رابعا : ان علماء الكنيسة الرومانية أنفسهم يقرون و يشهدون أن المسحة المقدسة كانت تتمم مدة اثنى عشر قرنا على المستنيرين حديثا بعد المعمودية حالا ، ليس ذلك فى الشرق فقط بل وفى الغرب أيضا (بيرون فى مقدماته فى اللاهوت جزء ٦ صحيفة ١٣٢) .

خامسا : أن تأخير هذا السر يحرم الأطفال من هذه النعمة التى تمنحهم هبة حلول الروح القدس وسمة التثبيت التى يحق لهم الاشتراك فيها كما يشتروكون فى غيرها من الاسرار، والا فاذا كان من الضرورى ان يشترك الانسان فى الأسرار بعقل بالغ لزم أن يشترك فى باقى الأسرار المقدسة كالمعمودية وغيرها وهو طفل . وما الذى يمنع الأولاد من قبول هذا السر ونحن نرى أن يوحنا المعمدان قد امتلأ من الروح القدس وهو فى بطن أمه . (لو ١ : ١٥) .

سادسا : ان الكنيسة لا تضمن حياة الأطفال حتى تجاوزهم سن الطفولة ، فلربما فاجأهم الموت قبل أن يبلغوها كما يحصل كثيرا ، و بذلك تكون الكنيسة قد حرمتهم هبة من أسنى المواهب وأفضل الخيرات .

الفصل الرابع

الميرون واستعماله وتاريخه

الميرون كلمة يونانية معناها « طيب » وتطلق فى الاصطلاح الكنسى على المزيج السائل المركب من نحو ٣٠ صنفا من أصناف الطيوب والعطور كالمر والعود والسليخة وقصب الذريره وعود اللبان (راجع مز ٤٥ : ٨ ، خر ٣٠ : ٢٢ — ٣٣) وقد روى آباء الكنيسة أن الرسل الأطهار اخذوا الحنوط التى كانت على جسد الرب يسوع ، مع الحنوط والأطياب التى ابتاعتها النسوة (لو ٢٣ : ٥٦ ، ٢٤ : ١) وأضافوا اليها من زيت الزيتون وغيره وقدسوها بكلمة الله والصلاة وجعلوها ميرونا لسر المسحة ووزعوه على الكنائس وكانوا يمسحون به المعتمدين . وأمروا أن يكون مادة محسوسة وعلامة ظاهرة فى سر التثبيت . وما زال الرسل وخلفاؤهم من بعدهم يستعملونه . وقد جاء فى أوامر الرسل (ك ٧ ف ٣٢) ما يدل على ذلك « أيها الأسقف أو القس يجب ان تمسح بزيت ثم تعمد بماء وأخيرا تختم بالميرون » وقولهم « بعد ذلك فليعمده الكاهن وليمسحه بالميرون » (ف ١٤٣) وقال القديس ديوناسيوس الاريوباغى تلميذ بولس الرسول « توجد تكلة أخرى معادلة لهذه (أى للشركة) يسميها معلمونا الرسل **تكملة الميرون** » وغير ذلك من أقوال الآباء التى اوردنا بعضها فى صحيفة ٥١ — ٥٢ مما يدل على أن هذا الاستعمال مأخوذ من الرسل .

أما الذى حدا بالرسل الى استعمال الميرون على هذا النحو فهو:

أولا : لأن لكل سر علامة ظاهرة ومادة منظورة ، فالمسح اشارة الى المسحة الروحية ، كما أن المعمودية لها علامة ظاهرة وهى الماء مشابهة لفعلها فى الجسد تمام المشابهة لفعلها فى النفس ، وهكذا المسحة علامة منظورة مشابهة لفظا ومعنى للمسحة الداخلية التى من القدوس .

ثانيا : ان اسم المسيح مشتق من كلمة مسح حيث كان رؤساء الكهنة والملوك يمسحون بالزيت قبل نوالهم رتبتهم الكهنوتية أو الملوكية (راجع خر ٢٨ : ٤١ ، لا ٦ : ٢٢ ، ١ صم ١٠ : ١ ، ١٢ : ١٣) .

ثالثا : ان كلمة مسحة وردت فى أقوال الرسل ، فقد قال يوحنا الرسول « لكم مسحة من القدوس ... وأما أنتم فالمسحة التى اخذتموها منه ثابتة فيكم الخ » (١ يو ٢ : ٢٠ و٢٧)

وقال بولس الرسول « الذى يثبتنا معكم فى المسيح قد مسحنا الخ » (٢ كو ١ : ٢١ و٢٢) راجع أيضا (أش ٦١ : ١) .

رابعا : يظهر مما تقدم أن الرسل الأطهار هم الذين استعملوا المسحة فى سر التثبيت مع وضع اليد الذى كان خاصا بهم (أع ٨ : ١٤ ــ ١٧ ، ١٩ : ٦) وخولوا الكهنة حق مسح المعتمدين ، ولذلك قال القديس كيرلس الاورشليمى « من الضرورى أن تعلموا أن رسم هذه المسحة هو فى العهد القديم لأن موسى لما جاء بأمر الله الى أخيه وجعله رئيس كهنة و بعد أن غسله بالماء مسحه ، وكان يدعى مسيحا من المسحة الرمزية . وهكذا رئيس الكهنة لما أقام سليمان ملكا مسحه بعد غسله فى جيحون غير أن هذه الأمور جرت على أولئك رمزيا ، ولكنها عليكم ليست رمزية ، بل هى حقيقية لأنكم مسحتم حقيقة من الروح القدس » (فى الأسرار ٣ : ٦) .

خامسا : ان استعمال المسحة حسب أمرا جوهريا لازما للمعتمدين بدليل ما ورد فى أقوال آباء المجامع المسكونية دون أن يذكروا شيئا عن وضع اليد ، وهذا يدل على أن سر المسحة كان قائما فى الكنيسة القديمة بمسح الميرون لا بوضع الايادى ، وقد أضافت بعض كنائس الغرب وضع الايادى فى تتميمه ، فان القديس كبريانوس يذكر المسحة و يذكر وضع الايادى و يصرح بأنه من الضرورى أن ينال المسحة كل واحد من المستنيرين حديثا . والبابا اينوشنسيوس الثالث يقول : « ان وضع الايادى يشار اليه بمسح الجبهة وهو من وجه آخر يدعى مسحة » . والبابا أفجانيوس الثالث يقول « عوضا عن وضع اليد تمنح المسحة فى الكنيسة » .

قال المطرن جراسيموس مسرة صاحب كتاب الانوار فى الاسرار : « مادام من المؤكد والثابت أن الرسل القديسين سلموا الكنيسة سر المسحة بالمسح بالميرون فلا يكون محل للقول بأن الرسل أبدلوا وضع الايدى بالمسحة . لأن البحث أنما هو فى الكيفية التى بها تسلمت الكنيسة الأسرار المقدسة من الرسل لا أكثر . ولا أظن أن الرسل تسلموا وضع اليد ثم ابدلوه بغيره وابطلوه مع ان وضع اليد لم يزل فى الكنيسة الى الآن ، لكنهم كانوا يستعملون وضع اليد لغاية اعلى من الغاية المقصودة من سر المسحة اعنى انهم كانوا يضعون أيديهم على المؤمنين الحقيقيين لا للتثبيت وحده فقط بل ليمنحوهم مع التثبيت مواهب خصوصية أيضا كموهبة التعليم والنبوة والكهنوت الخ . وأما التثبيت العمومى فكان محصورا بالمسحة كما تفعل الكنيسة الارثوذكسية . وهذا يمكن اثباته بأن هذا السر (يقصد طقس الميرون) يسمى مسحة وسر المسحة ورمزا ورسما وتثبيتا وختما . ومعلوم ان لفظ المسحة والختم لا يدل على وضع اليد بل على الدهن والطبع بالميرون . وقد قال بعض اللاهوتيين أن وضع اليد الذى كان الرسل يمنحون به للمؤمنين مواهب الروح القدس لم يكن منفصلا عن المسح فى تتميم سر المسحة ، بل كان ولم يزل متحدا معه لأن راعى الكنيسة حين

يتمم السر داهنا بيده جبهة المعتمد وسائر أعضاء جسده يرفع يمينه عليه ليدهنه ، فبرفعه يمينه يكون قد وضع يده عليه وتم وضع اليد » (صحيفة ٣٩) .

تاريخ الميرون :

قلنا فى الفصل السابق ان عمل الميرون بدأ من أيام الرسل ، وقد روى مؤرخو الكنيسة القبطية بأن الميرون الذى اتى به مار مرقس الانجيلى بقى حتى زمن القديس اثناسيوس الرسولى العشرين فى عدد باباوات الاسكندرية ، فى أوائل القرن الرابع الى أن نفد أكثره ولم يبق منه شيء فى كنائس رومية وانطاكية والقسطنطينية ولما علم رؤساء تلك الكنائس بوجود بقية منه فى كنيسة الاسكندرية بعثوا برسائل الى القديس اثناسيوس يطلبون منه امدادهم بجزء منه ، فأخبرهم بأن ما عنده لا يكفيه واياهم وأشار عليهم بعمله من الطيوب التى امر بها موسى مضافا اليه ما عنده من الذخيرة الباقية من الميرون الاصلى . فاستحسنوا هذه الفكرة وارسلوا اليه يشكرونه وسألوه الاسراع فى هذا العمل . فاعتمد على الله و باشر عمله وتقديسه بحضور لفيف الاساقفة ورؤساء المجامع ، و بعد تقديسه أضاف اليه ما عنده و وزعه على الكنائس و بعث اليهم بطريقة العمل لتكون مثالا يسيرون عليه فى عمل الميرون ، فاستقبلوه بفرح وابتهاج بالتراتيل الكنسية . اما كيفية عمله فواضحة فى الكتاب الخاص الذى لا يزال موجودا بالكنيسة .

الفصل الخامس

نتائج السر وعدم اعادته وحق اتمامه

١ ـــ نتائج سر المسحة :

ان نتائج سر المسحة غير المنظورة هى قبول الروح القدس ومواهبه التى اشار اليها اشعياء النبى بقوله : « ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب » (أش ١١ : ٢) .

وعليه فهذا السر :

اولا : يمنحنا اثارة العقل والمعرفة . وقد أشار يوحنا الرسول الى ذلك بقوله : « اما انتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شىء . . وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم الى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذا المسحة عينها عن كل شىء وهى حق وليست كذبا . كما علمتكم تثبتون فيه » (١ يو ٢ : ٢٠ و٢٧) وقال القديس كيرلس الاورشليمى « وهذه المسحة احفظوها طاهرة لأنها تعلم كل شىء اذا لبثت فيكم كما سمعتم أقوال يوحنا المغبوط الذى قال اقوالا حكيمة كثيرة فى هذه المسحة لأن الروح القدس حرز للجسد وخلاص للنفس » (فى الاسرار عظة ٣ : ٧) .

ثانيا : يمنحنا تقوية الارادة فى العبادة وفى مخافة الرب حسب قول بولس الرسول : « ولكن الذى يثبتنا معكم فى المسيح وقد مسحنا هو الله الذى ختمنا أيضا وأعطى عربون الروح فى قلوبنا » (٢ كو ١ : ٢١ و٢٢) وعن ذلك قال القديس كيرلس الاورشليمى : « بعد ذلك يمسحكم على صدوركم لكى تلبسوا درع العدل وتثبتوا لدى حيل الشيطان . وكما أن المسيح بعد المعمودية وحلول الروح القدس خرج وحارب المعاند ، هكذا أنتم بعد المعمودية المقدسة والمسحة السرية تثبتون لدى القوة المضادة لابسين سلاح الروح القدس الكامل وتحاربونها قائلين : أنى استطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » (فى الاسرار ٣ : ٤) .

٢ ـــ عدم اعادة السر :

وبما ان هذا السر يطبع فينا ختم موهبة الروح القدس كما قال بولس الرسول (٢ كو ١ : ٢٢) فقد اعتبر منذ القديم مثل المعمودية لا يتمم للانسان الا مرة واحدة .

٣ ــ حق اتمام السر:

ان الكنيسة الارثوذكسية تعلم ان تكريس سر الميرون هو من حق الاساقفة فقط ، اما اتمامه فلا يختص بالاساقفة وحدهم بل بالقسوس أيضا . فقد ورد في أوامر الرسل « أيها الأسقف أو القس قد رتبنا سابقا والآن نقول .. ينبغي أن تدهن أولا بزيت ثم تعمد بماء واخيرا تختم بالميرون » والقديس أمبروسيوس يؤكد أن مسحة الميرون تتمم من القس ، وانه عندما يصلي يحل الروح القدس وقال « فعندما تتقدم بضد هذا (أي بعد المعمودية) الى لكاهن ، تأمل ماذا يتم . أليس ما قاله داود : مثل الدهن على الرأس النازل على اللحية لحية هرون ، هذا هو الميرون الخ » (في الأسرار فصل ٧) وقال القديس يوحنا ذهبي الفم : « لأنهم (أي الاساقفة) يعلون على القسوس بالشرطونية وحدها فقط ، وبها وحدها يظهر أنهم يسمون عليهم » (مقالة ١٠ : ١ على ١ تي) وقال القديس أيارونيموس : « ما الذي يصنعه الأسقف ولا يصنعه القس غير الشرطونية » (رسالة ١٤٥ : ١) .

أما استناد الذين يقولون ان حق المسحة للاساقفة وحدهم بناء على ما جاء في (أع ٨ : ١٤ ــ ١٦) من جهة ارسال بطرس و يوحنا الى أهل السامرة لوضع ايديهما عليهم لحلول الروح القدس ، فهذا لأن فيلبس الذي عمدهم كان شماسا ولم يكن قسا ، ولذلك قال يوحنا ذهبي الفم : « لماذا لم يكن هؤلاء السامريون قد نالوا الروح القدس بعد التعميد ؟ اما لأن فيلبس لم يمنحهم اياه اعتبارا للرسل على رأى بعضهم . وأما لأنه لم تكن له هذه السلطة بما أنه كان واحدا من الشمامسة السبعة وهذا هو الارجح » ... (مقالة ١٨ : ٣ على سفر الاعمال)

٣ ـ سر الشكر أو الافخارستيا

الفصل الأول

١ ـ تعريف السر وسموه على باقى الأسرار:

سر الشكر هو سر مقدس به يأكل المؤمن جسد المسيح الأقدس ، و يشرب دمه الزكى تحت اعراض الخبز والخمر. ولهذا السر المقام الأسمى بين الاسرار السبعة المقدسة :

أولا : لغزارة نعمه وسموه عن الادراك ، لأن النعمة بواسطة باقى الأسرار تفعل بحالة غير منظورة تحت مادة منظورة ، وتلبث تلك المادة غير متغيرة ولا مستحيلة . اما فى السر الاقدس فيستحيل جوهر المادة لأن الخبز والخمر مع حفظهما شكليهما واعراضهما يستحيلان بوجه سرى عجيب الى جسد المسيح ودمه .

ثانيا : لفرط محبة ربنا يسوع المسيح التى أظهرها فى هذا السر ، وسمو المواهب التى يهبها لنا بتناوله ، فان المخلص له المجد يمنح المؤمنين بواسطة باقى الأسرار بعضا من مواهبه الخلاصية بحسب طبيعة كل سر منها ، ولكنه فى سر الشكر يقدم لنا ذاته غذاء مقدسا و بتناوله نتحد به اتحادا تاما ونثبت فيه الى الابد .

ثالثا : لأن كل سر من الأسرار يفعل فى الشخص الذى يقبله ، ولكن سر الشكر فضلا عن كونه اكثر سموا عن الادراك واكثر خلاصا بين الأسرار، فهو أيضا ذبيحة تقدم لله كفارة عن الجميع احياءا وامواتا .

٢ ـ أسماء السر:

وقد سمى هذا السر منذ القديم بأسماء متعددة فدعى « سر الشكر» و « العشاء الربانى » و« العشاء السرى » و« العشاء الالهى » و « مائدة الرب » و « مائدة المسيح » و « المائدة المقدسة » و « المائدة السرية » و « سر المذبح » و « خبز الرب » و « خبز الله » و « الخبز السماوى » و « الخبز الجوهرى » و « جسد المسيح » و « الجسد الربانى والخلاصى والمقدس » و « دم المسيح » و « الدم الكريم » وسمى أيضا « شركة » و « اتحادا » و « كأس الحياة

الخلاصية » و « الأسرار المقدسة » و « الأسرار الالهية » و « الأسرار المخوفة السموية » و « الذبيحة المقدسة السرية » ، وهكذا من الاسماء الرهيبة .

٣ ــ الوعد بهذا السر المقدس :

قد شاء مخلصنا له المجد أن يهيىء الناس لقبول هذا السر السامي قبل تأسيسه بزمن ، فوعدهم به وأوضح لهم طبيعته وضرورته وقوته . وقد أنبأنا بذلك القديس يوحنا الانجيلي فى الاصحاح السادس بعد ما صنع الرب معجزة اشباع الخمسة آلاف رجل من خمسة ارغفة وسمكتين . فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا ان هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم . وأما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف أيضا الى الجبل وحده . ولما تبعه الناس وأتوا اليه اراد أن يجذب أفكارهم فوعدهم بتأسيس هذا السر المقدس ، وأخذ ينقل افكارهم من القوت الجسدى الى القوت الروحى غير الفاسد ، فقال لهم : « أنتم تطلبوننى ليس لانكم رأيتم آيات بل لانكم أكلتم من الخبز فشبعتم . اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى للحياة الابدية الذى يعطيكم ابن الانسان ، لان هذا الله الآب قد ختمه » ولما قالوا له « آباؤنا أكلوا المن فى البرية كما هو مكتوب انه أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا » قال لهم يسوع « الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء . لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم . فقالوا له يا سيد اعطنا فى كل حين هذا الخبز . فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة . من يقبل الى فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطش أبدا » ولما تذمروا من كلامه قال لهم « آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا . هذا هو الخبز النازل من السماء ، لكى يأكل منه الانسان ولا يموت .. أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء ، ان أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الابد ، والخبز الذى أنا اعطى هو جسدى الذى ابذله من أجل حياة العالم » . ولما خاصم اليهود بعضهم بعضا قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل عاد فأكد لهم كلامه قائلا : « الحق اقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم ، من يأكل جسدى و يشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الاخير ، لان جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق . من يأكل جسدى و يشرب دمي يثبت فى وأنا فيه . كما أرسلنى الاب الحى وأنا حى بالاب فمن يأكلنى فهو يحيا بى . هذا هو الخبز الذى نزل من السماء ، ليس كما اكل آباؤكم المن وماتوا . من يأكل هذا الخبز فانه يحيا الى الابد » حتى أن كثيرين من تلاميذه قالوا ان هذا الكلام صعب ، من يقدر أن يسمعه . فقال لهم يسوع « أهذا يعثركم . فان رأيتم ابن الانسان صاعدا الى حيث كان اولا » . ومن هذا الوقت رجع عنه كثيرون من تلاميذه لعدم احتمالهم هذا الكلام . فقال المسيح لتلاميذه الاثنى عشر العلكم أنتم ايضا تريدون أن تمضوا . فأجابه سمعان بطرس يارب الى من نذهب . كلام الحياة الابدية عندك ، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحى .

بهذا الكلام وبهذا الوعد قد هيأ الرب تلاميذه لقبول هذا السر ، حتى أنه عند تأسيسه وتسليمه لهم ليلة آلامه قبلوه ولم يظهر أحد منهم أدنى اشارة للشك فى حقيقته ، ولا سألوه شيئا بخصوصه لانهم كانوا متأهبين لقبوله .

٤ ـ تأسيس السر فى ليلة آلامه :

وكما شاء الرب أن يهيىء تلاميذه لقبول هذا السر ، هكذا سر وأرتضى أن يؤسسه و يسلمه لهم فى ظروف هامة . فانه له المجد لما قرب عيد الفصح الذى كان أعظم أعياد اليهود ، وكان رمزا الى حمل الله الذى يرفع خطايا العالم ، وجاء الوقت الذى فيه يقدم المسيح نفسه ذبيحة لله أبيه لاجل خلاصنا . ففى ذلك الوقت قبل أن يقدم اليهود فصحهم بيوم واحد أرسل الرب اثنين من تلاميذه الى أورشليم ليعدا الفصح وفى الليلة التى فيها أسلم حضر مع تلاميذه الا ثنى عشر الى علية صهيون وهناك غسل ارجل تلاميذه معلما اياهم التواضع ، ثم سلمهم سر جسده ودمه الاقدسين كما يقول القديس متى الانجيلى : « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز و بارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم ، لان هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » (مت ٢٦ : ٢٦ ــ ٢٨) وقد كتب بولس الرسول قائلا : « لاننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لاجلكم . اصنعوا هذا لذكرى . كذلك الكأس أيضا بعد ما تعشوا قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى ، فانكم كلما اكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب الى أن يجيء . اذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز و يشرب من الكأس لان الذى يأكل و يشرب بدون استحقاق يأكل و يشرب دينونة لنفسه من غير مميز جسد الرب . من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون » (١ كو ١١ : ٢٣ ــ ٣٠) .

الفصل الثانى

١ ـ ايمان الكنيسة الأرثوذكسية فى هذا السر:

اننا نؤمن أنه بعد تقديس سر الشكر واستدعاء حلول الروح القدس على القرابين يستحيل الخبز والخمر استحالة سرية الى جسد المسيح ودمه الأقدسين . حتى أن الخبز والخمر اللذين ننظرهما على المائدة ليسا خبزا وخمرا بسيطين بل هما جسد الرب ذاته ودمه تحت شكلى الخبز والخمر. ونؤمن أن ربنا يسوع المسيح حاضر فى هذه الخدمة لا بوجه الرمز أو الاشارة أو الرسم أو الصورة أو المجاز. ولا بأنه مستتر فى الخبز بل هو حاضر حضورا فعليا . وهذا الايمان هو ايمان الكنيسة كلها شرقا وغربا منذ ابتدائها . لأن الرسل الأطهار تسلموا هذا الايمان وسلموه لجميع المؤمنين فى كل المسكونة . وظل هذا السر يمارس فى جميع الكنائس على هذا الايمان الى الآن والى الأبد .

٢ ـ الذين أنكروا حقيقة هذا السر:

وحتى القرن الثامن لم يقم من يقاوم حقيقة هذا السر الأقدس ، مع أنه قام كثيرون من الهراطقة وقاوموا أكثر التعاليم اللاهوتية . ولكن فى القرن التاسع قام يوحنا أريجانا الايرلندى وابتدع بدعة بأن هذا السر لا يحوى جسد المسيح ودمه حقيقة ، زاعما أن الافخارستيا ليست الا صورة يسوع المسيح . وفى هذه الهراطقة عينها وقع برنغاريوس رئيس مدرسة تورس بفرنسا فى القرن الحادى عشر آخذا هذا التعليم من كتاب أريجانا المذكور. وفى القرن الثانى عشر كان البطروبروسيون (تلاميذ بطرس دى بريز بفرنسا) واتباع هنريكوس الايطالي يعلمون هذه الضلالة أيضاً قائلين ان سر الشكر ليس الا اشارة محضة الى جسد المسيح ودمه . وفى هذا الضلال وقع ايضا الهراطقة المعروفين باسم الالبيجنسيين فى القرن الثالث عشر. ثم نشر هذه المزاعم أخيرا يوحنا و يكلف الانجليزى وزو ينكل وكلفن وتلاميذهم الذين ينكرون حضور الرب يسوع فى هذا السر، و يعلمون أن الخبز والخمر يلبثان بعد التقديس خبزا بسيطا وخمرا بسيطة ، وليسا هما سوى اشارة وصورة ورمزا ومثالا ومجازا لجسد المسيح ودمه .

أما أتباع لوثيروس فانهم يخالفون تلك الآراء و يعتقدون بحقيقة حضور الرب يسوع المسيح فى سر الشكر، غير أنهم يزعمون أن حضوره انما هو بواسطة دخوله فى الخبز والخمر اللذين يلبثان غير متغيرين ولا مستحيلين . وفى ذلك قال لوثيروس : « أو جسد المسيح هو فى الخبز مع الخبز تحت الخبز» ولكن الكنيسة الأرثوذكسية تنكر وترفض كل هذه الآراء والمزاعم من أسسها .

الفصل الثالث

اثبات صحة الحقيقة الأرثوذكسية فى هذا السر

ان الكنيسة الأرثوذكسية قبلت هذا السر وما زالت تقبله مفسرة كلام المسيح على حقيقته تفسيرا حرفيا . ومن الادلة الآتية يتضح لك صحة هذا الايمان وخطأ الذين يزعمون بأن هذا الكلام رمز أو مجاز:

أولا : ان كلام المسيح له المجد فى هذا السر يتضمن ثلاث قضايا أساسية ايجابية وهى : الشهادة ، والميثاق ، والأمر . فالشهادة الصحيحة فى سائر الأحكام الشرعية محكوم بها على حسب نطقها الصريح . ولا يدخلها المجاز ولا تقبل التأويل . وبمقتضاها يتبرر الانسان أو يحكم عليه . واذا دخلها شىء من المجاز أو التأويل أو لم تكن متوفرة الشروط المعتبرة فانها ترفض ولا يحكم بموجبها . وكما قال القديس يوحنا الرسول : « ان كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم » (١ يو ٥ : ٩) فالسيد المسيح شهد لجسده بأنه مأكل حق ولدمه بأنه مشرب حق . ونظير هذه الشهادة شهد لأبيه قائلا « كلامك هو حق » وشهد الآب لابنه قائلا « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » فمن ذا الذى يتجاسر و ينكر شهادة المسيح . فاذا كانت شهادة المسيح لجسده مجازية تكون شهادة الآب لابنه مجازية أيضا ، وهذا كفر لا يقول به أحد من المسيحيين .

أما الميثاق فهو عبارة عن عقد معاهدة بين اثنين فصاعدا . وحكمه كحكم الشهادة بالتمام . لأن المواثيق يحكم بمقتضاها فى سائر الأحوال الشرعية على حسب شروط المتعاقدين و يستحيل ادخال أقوال فى شروطها من قبيل المجاز أو أى قول يقبل التأويل . والشرط الذى يوجد فيه شىء من ذلك يرفض ولا يصح أن يكون ميثاقا ، لأن ذلك يوجب وقوع الاشكال والتنازع بين المتعاقدين ، وفى هذه الحالة يؤول كل من المتعاقدين الكلام بحسب غرضه فيتعذر صحة الحكم . وان لم تكن المواثيق متوفرة الشروط المعتبرة فانها لا تعتبر وتكون ملغاة لا عمل لها . وبحسب هذه القاعدة نرى المخلص له المجد فى كلمات العهد الجديد قرر ميثاقا ابديا عاقدنا به بقوله « من لم يأكل جسدى و يشرب دمى فليس له حياة أبدية » ونظير ذلك قرر أن « من لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يعاين ملكوت الله » « ومن لم يؤمن يدن » فاذا كان ميثاق السيد المسيح عن جسده مجازا تكون كل عهوده ومواثيقه مجازية لا حقيقة فيها . وهذا ضلال كبير .

أما الأمر فشرطه أن يكون صريحا ، خاليا من كل ابهام ، غير قابل للتأو يل والمجاز، لأنه لو قبل ذلك لتوقف عمله ، والأوامر منزهة عن التأو يلات . فالسيد المسيح له المجد أمر تلاميذه قائلا : خذوا هذا هو جسدى وهذا هو دمى » فمن يقدر أن يغير كلامه أو يدخل فيه نوعا من المجاز و يقول انه شبه جسده أو رسم جسده أو رمز الى جسده . واذا كانت الأوامر الملكية تقبل كنصها الظاهر ولا يدخلها التأو يل والمجاز فكيف يجوز للانسان أن يؤول أوامر الله ويحولها من الحقيقة الى المجاز. فلو صح ذلك لأصبحت كل أوامره قابلة للتأو يل ، و بالتالى أمكننا أن نفسر كل شيء حسب غرضنا ، وليس من يقول بذلك .

ولنرجع الآن الى تلك الأوقات والظروف التى فيها وعد السيد بهذا السر، وظروف تأسيسه ، لنرى هل كان كلام السيد مجازا أم حقيقة .

أولا : ان اليهود أنفسهم الذين خاطبهم السيد بتلك الأقوال قد فهموها فهما حرفيا لا رمزيا ولا مجازيا . لأنهم عندما سمعوه يقول : « أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء . أن أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الأبد . والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » (يو ٦ : ٥١) ابتدأوا يتخاصمون و يتساءلون فيما بينهم لعدم امكانهم فهمه . وقالوا — كما يقول المعترضون اليوم — كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله . فلو لم يفهموا كلام السيد فهما حرفيا لما كان محل لهذا الاعتراض ، ولا وجد داع لهذا الخصام .

ثانيا : ان الرب يسوع كان من عادته متى تكلم عن أمر ورأى أن اليهود قد فهموه على غير المقصود ، يبادر له المجد و يوضح لهم المعنى الحقيقى و يرفع من أمامهم كل ابهام (راجع يو ٢ : ٣ — ٥ ، ٤ : ٣٢ ، ٨ : ٢١ — ٤٠ ، ١١ ، ١٦ : ١٨ ، مت ١٦ : ٦ ، ١٩ : ٣٤) فلو رأى الرب أن اليهود أخطأوا فى فهم كلامه وقصده لأوضح لهم ذلك وأبان لهم أنه يتكلم مجازيا ورمزيا . ولكننا نرى الأمر بالعكس فانه أخذ يردف كلامه بالأقوال المتكررة المشددة ، و يزيد الكلام قوة وايضاحا للمعنى الحرفى قائلا : « الحق الحق أقول لكم أن لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم . من يأكل جسدى و يشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير. لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق » (يو ٦ : ٥٣ — ٥٥) فنلاحظ هنا :

١ — انه بدأ كلامه بقوله « الحق الحق » التى كان معتادا أن يبدأ بها عندما يقصد ايضاح حقيقة من الحقائق وزيادة تأكيدها .

٢ — انه يفرض الشركة فى جسده وفى دمه أمرا ضروريا للحصول على الحياة الأبدية بقوله « ان لم تأكلوا .. فليس لكم حياة فيكم .. من يأكل جسدى و يشرب دمى فله حياة أبدية » .

٣ ــ ان كلمة «حق» في قوله «جسدى مأكل حق ودمي مشرب حق» تشهد بأن موضوع التأكيد في كلامه غير قابل للتغيير الى آخر غير معنى الجسد.

ثالثا : ان تلاميذ المسيح قد فهموا هذا المعنى الحرفي ولذا ضاق فكرهم ولم يستطيعوا فهمه. فطفق كثيرون منهم يتذمرون قائلين: «ان هذا الكلام صعب من يقدر أن يسمعه» (يو ٦: ٦٠) ولذلك أخذ المسيح يقنعهم بامكان شركتهم في جسده ودمه مؤيدا كلامه بآية أخرى وهي صعوده الى السماء حيث كان أولا. وكان يأتي بهذا البرهان كلما اقتضى الحال اقامة برهان يدل على اقتداره.

رابعا : ان كثيرين من تلاميذه رجعوا عنه لأنهم لم يقدروا أن يفهموا كلامه واستصعبوا الأمر، فلو لم يكن المسيح يقصد جسده الحقيقي ودمه الحقيقي بل يقصد الرمز الى جسده ــ كما يتوهم البعض الآن ــ لكان فسر لهم ذلك ولم يدع هؤلاء التلاميذ ينفصلون عنه، وهو الذى يريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون.

خامسا : ان السيد المسيح سلم هذا السر الأقدس في ليلة آلامه الى تلاميذه وأخصائه وأصفيائه الذين قال لهم أنتم أصدقائى، ونطق بكلامه في برهة لم يكن يتكلم فيها بأمثال وألغاز ورموز ومجازات، بل تكلم صريحا وعلنا لأنها الساعة الاخيرة من حياته. ومن المعلوم أن الانسان في مثل هذه الساعة يفتح قلبه لأصدقائه و يبين لهم ما يريده بكل ايضاح لا بألغاز ولا بمجاز. فهل يليق بالمسيح أن يأتي في مثل هذه الظروف التى لا تسمح للانسان الا بأن يوضح كلامه بكل صراحة، و يستعمل المجاز والرمز ؟

سادسا : ان جميع الآباء الكنيسة شرقا وغربا قد فهموا هذا الكلام وقبلوه بمعناه الحرفي. وكذلك فسرته المجامع. فلو فرضنا فرضا مستحيلا بأن السيد المسيح قصد بكلامه المعنى الرمزى لا المعنى الحرفي. فهل ياترى خدع المسيح تلاميذه الذين فهموا الكلام حرفيا، والتلاميذ خدعوا الكنيسة كلها التى فهمت هذا الفهم عينه؟ ومن يتجاسر و يقول ذلك؟ ومن يستطيع أن يغير الكلام الذى يقوله الله؟ . قال الرسول «فماذا ان كان قوم لم يكونوا أمناء. أفلعل عدم أمانتهم يبطل أمانه الله. حاشا. بل ليكن الله صادقا وكل انسان كاذبا» (رو ٣: ٣ و٤).

سابعا : ان عبارة «أكل اللحم» في الكتاب المقدس اذا وردت بمعنى رمزى فانها تدل على الوقيعة والسعاية والمذمة وعمل الشر (راجع مز ٢٦: ٢، أى ١٩: ٢٢، مى ٣: ٣، غل ٥:

١٥) ولا تدل فى الكتاب على غير هذا المعنى فمن هذا أراد أن يفسر كلام المسيح عن أكل جسده بهذا المعنى الرمزى يسقط فى أشنع تفسير .

ثامنا : ان قرائن الاحوال تدحض رأى المعترضين الذين يفسرون كلمة « أكل الجسد » بمعنى الاتحاد والاشتراك الروحى مع المسيح و بالتالى الايمان به . اذ يرد عليهم بأن المسيح كان يتكلم وقتئذ مع سامعيه ، و يعدهم بطعام جديد لم يذقوه الى ذلك الوقت ، وأنه مزمع أن يعطيه لهم فى المستقبل « الخبز الذى أنا أعطى هو جسدى » فلو كان يشير الى الايمان به لا الى جسده لوجب أن نصدق أن جميع تلاميذه الى ذلك الحين لم يكونوا قد آمنوا به ، على أن ظروف الاحوال ونفس الكلمات التى كررها المسيح تنفى هذا الزعم الباطل .

تاسعا : اذا التفتنا الى كلام الانجيليين نجد فيه الادلة القوية التى تزيل كل ريب ، حيث أن القديسين متى ومرقس ولوقا يوضحون المعنى بكلام صريح العبارة ، لا رمز ولا مجاز فيه ، و بولس الرسول الذى لم يكن حاضرا هذا السر وتسلمه فيما بعد يقول لاهل كورنثوس : « أقول كما للحكماء . احكموا أنتم فى ما أقول . كأس البركة التى نباركها . أليست هى شركة دم المسيح . الخبز الذى نكسره . أليس هو شركة جسد » (١ كو ١٠ : ١٥ و١٦) . فمن هذا الكلام يتضح :

١ ــ اننا نشترك فى جسد المسيح ودمه بواسطة اشتراكنا فى الخبز وفى الكأس .
٢ ــ ان الذى نشترك فيه هو جسد الرب ذاته لان من يتناوله بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب . فاذا لم يكن هو جسد الرب ذاته فكيف يكون انسان مجرما فيه ؟ هل يعطينا الله حجرا و يطالبنا بجوهرة ؟ وهل يعطينا خبزا بسيطا ــ كما يقول المعترض ــ و يطالبنا بجسده ؟ لذلك تهدد الرسول الذين يتناولونه بدون استحقاق قائلا : « لان الذى يأكل و يشرب بدون استحقاق يأكل و يشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب » . وأخيرا أتى الرسول بالادلة المحسوسة على أن الذين يقتربون من تلك الاسرار بدون استحقاق يقعون فى الامراض وفى الموت بقوله : « من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون لأننا لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حكم علينا . (١ كو ١١ : ٢٩ ــ ٣١) .

وقد أخبرنا القديسان كبريانوس و يوحنا ذهبى الفم فى أيامهما أن بعضاً من الذين أكلوا ذبائح الاوثان ثم تقدموا الى الافخارستيا اغتالتهم يد النقمة الالهية . فنهم من بلى بالخرس . ومنهم من أكل لسانه . ومنهم من كان يعذب بعذاب شديد ، الى غير ذلك من البلايا التى حلت عليهم

الفصل الرابع

اقوال آباء الكنيسة والمجامع وايمانهم بهذا السر

ذكرنا في صحيفة ٦٨ ان جميع آباء الكنيسة شرقا وغربا قد فهموا كلام المسيح فهما حرفيا . وآمنوا ايمانا وثيقا بحقيقة حضور الرب في سر الشكر واستحالة الخبز والخمر بعد التقديس الى جسد الرب ودمه . ونكتفي هنا بايراد أقوال واعترافات أشهر آباء الكنيسة :

قال القديس اغناطيوس عن الهراطقة : « انهم يبتعدون عن الافخارستيا والصلاة لعدم اعترافهم بأن الافخارستيا هي جسد مخلصنا يسوع المسيح الذي تألم لاجلنا والذي أقامه الاب بصلاحه » (رسالة الى أهل أزمير ٧) .

وقال القديس يوستينوس الفيلسوف الشهيد : « لاننا لا نتناولها بمثابة خبز عادي ، لكن كما أنه بكلمة الله لما تجسد يسوع المسيح مخلصنا قد اتخذ لاجل خلاصنا لحما ودما ، هكذا تعلمنا أن الغذاء الذي شكر عليه بدعاء كلامه وبه يغتذي لحمنا ودمنا بحسب الاستحالة هو لحم ودم ذلك المتجسد ».(احتجاج ١ : ٦١) .

وقال القديس ايريناوس عن الهراطقة : « كيف يستطيعون أن يدركوا أن الخبز الذي عليه تم الشكر هو جسد الرب ، وأن هذه الكأس هي كأس دمه ، ما لم يفهموا أنه هو ابن صانع العالم » (ضد الهراطقة ٤ : ١٨ : ٤ و٥) وقال ايضا : « لو كانوا يتناولون الكأس وهي ممزوجة بالماء و يتناولون الخبز وهو معد ككلمة الله ذاته ، ولو كانت لهم هكذا شركة الخبز والخمر سر شكر جسد المسيح ودمه اللذين يغذيان و يثبتان وجود جسدنا ، فكيف يستطيعون أن يقولوا ان هذا الجسد الذي يغتذي من جسد المسيح ودمه لا يشترك بموهبة الله الذي هو الحياة الابدية ([1]) » (ضد الهراطقة ٥ : ٢ ، ٤ : ١٧ : ٥ ، ٢٣ : ٢) .

وقال القديس كيرلس الاورشليمي : « لكونه هو نفسه تكلم وقال عن الخبز هذا جسدي فمن يجسر بعد ذلك أن يرتاب ، ولكونه هو نفسه ثبت وقال هذا هو دمي فمن يتوهم أو يقول أنه ليس

---

(١) كأن القديس يقول للهراطقة ، اذا اعترفتم بأن الخبز والخمر في سر الشكر يغذيان اجسادنا ويهبان هذه الاجساد ثباتا ، فلماذا تنكرون نصيبها في الحياة الابدية ؟

دمه ؟ لان الذى حول وقتا ما الماء الى خمر فى قانا الجليل باشارته ، أفليس مصدقا اذا قال انه حول الخمر الى دم ؟ وقد دعى الى عرس جسدى فصنع فيه تلك العجيبة الفائقة . فكيف لا نعترف له بالاحرى بأنه منح بنى العرس التمتع بجسده ودمه ؟ فلنتناولهما أذن باليقين التام أنهما جسد المسيح ودمه . لانه برسم الخبز يعطى لك الجسد ، و برسم الخمر يعطى لك الدم ، لكى بتناولك من جسد المسيح ودمه تصير متحدا معه جسدا ودما . لاننا بهذه الحالة نصير لابسى المسيح ، أى بامتزاج جسده ودمه فى أعضائنا ، وبهذه الواسطة نصير مشاركى الطبيعة الالهية كما يقول بطرس المغبوط . فلا تنظر اذن الى الخبز والخمر كأنهما عاديان ، اذ هما جسد ودم حسب القول السيدى . لانه وان كان الحس يظهرهما لك عاديين لكن الايمان يحقق لك أنهما جسد ودم . فلا تحكم اذن بحسب الذوق الحسى بل تحقق من الايمان وتأكد بلا ارتياب أنك قد أهلت لجسد المسيح ودمه » (فى الاسرار ٤ : ١ و٢ و٣ — ٦) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم : « كم منكم يقول الان ليتنى كنت أرى هيئة الرب وشكله وملابسه . أنت تنظره وتلمسه وتأكله هو نفسه ، وأنت تشتهى أن ترى ملابسه مع أنه هو يعطيك ذاته ، لا لتراه فقط بل لتلمسه أيضا ولتأكله ولتأخذه فى داخلك ، فلا يتقدم أحد غافلا ولا متراخيا ، بل فلنبادر جميعنا بحماسة وحمية ونهضة . . ويجب أن نكون من كل جهة ساهرين ، لأن القصاص المعد للمشتركين على خلاف الاستحقاق ليس صغيرا . تفطن كم أنت تتمرمر من الذى خانه ومن الذى صلبوه . فاحترس اذن من أن تصير أنت أيضا مجرما فى جسد المسيح ودمه . فان أولئك قد ذبحوا الجسد الكلى قدسه ، وأما أنت فتقتبله حينئذ بنفس دنسة بعد احسانات كثيرة جدا . لانه لم يكتف بأن يصير انسانا و يضرب و يذبح عنا بل أن يمزج ذاته فينا ، لا بالايمان فقط بل بالفعل أيضا ، جاعلا ايانا جسدا له أفلا ينبغى أن لا نكون أقل نقاوة من الذى يتمتع بهذه الذبيحة . وأى شعاع شمسى (١) يجب أن لا يكون أقل بهاء من اليد التى تقطع هذا الجسد ، والفم الذى يمتلىء من النار الروحانية ، واللسان الذى يصطبغ بالدم المخوف ؟ فتأمل الكرامة التى كرمتها والمائدة التى تتمتع بها . ان الذى تنظر اليه الملائكة وترتعد ولا تجسر أن تحدق به بلا خوف من البرق الساطع منه ، هذا نفسه نحن نغتذى به ، و به ننعجن وقد صرنا جسدا واحدا للمسيح لحما ودما . من يتكلم بعظائم الرب ويجعل تسابيحه مسموعة ؟ أى راع يغذى خرافه بأعضائه . وما لى أذكر الراعى . كثيرا ما دفعت أمهات أولادهن بعد أوجاعهن الى مرضعات أخر . وهو لم يطق أن يفعل ذلك ، بل شاء هو نفسه أن يغذينا بدمه ويجعلنا مرتبطين ومتحدين بذاته بكل الوسائط » (تفسير متى مقالة ٨٢ : ٤ و٥) .

---

(١) يقصد بقوله (أى شعاع شمسى الخ) أن يقارن بين الاشعة الظاهرة و بين اليد التى تمسك جسد الرب ، والفم الذى يأكله ، وان يبين أن هذه الاشعة مع نقائها فهى أقل بهاء من هذه اليد وهذا الفم .

وقال القديس أمبروسيوس : « هذا الجسد الذى نقدمه فى سر الشكر قد جاء من البتول . ولماذا تبحثون هنا وتطلبون العمل الطبيعى والموضوع هو جسد يسوع المسيح . أفلم يولد الرب نفسه من البتول بحال تفوق الطبيعة . هذه هى بشرة يسوع المسيح المصلوبة والمدفونة . فهذا هو اذن سر الجسد بعينه بكل الحقيقة » (فى الاسرار ٩ : ٥٣ ، ٨ : ٣٧ و٤٨) كأنه يقول كيف آمنتم بسر تجسده الفائق الطبيعة ثم تحاولون وضع سر الشكر تحت البحث العقلى فقط مجردا من الايمان .

والخلاصة أن هذا الايمان هو ايمان جميع الاباء فى كل عصر منذ نشأت الكنيسة حتى الان ، وتجد هذا التعليم فى مؤلفات القديس اكليمنضس الاسكندرى (كتاب المربى ١ : ٦١ ، ١١ : ٥) والعلامة ترتوليانوس فى (كتابه ضد مركيون ٥ : ٨) وديوناسيوس الاسكندرى فى (مجموع القوانين) والقديس باسيليوس فى (رسالته ٩٣) والقديس ابيفانيوس والقديس كيرلس الاسكندرى فى (تفسيره يوحنا ٢٠ : ٣٧ وضد نستور ٤ : ٥ : ٦) وغيرهم من الاباء .

وكذلك ترى هذا التعليم واضحا فى اقرار المجامع فقد ورد فى قرارات المجمع المسكونى الاول « لا ينبغى أن ننظر على المائدة المقدسة الى الخبز والكأس كأنهما مقدمان على بسيط الحال ، بل يجب أن نرفع الروح فوق الحواس . ونتفهم بالايمان أن حمل الله الرافع خطية العالم يستريح ههنا مذبوحا من الكهنة ، وأنهم يتناولون جسد الرب نفسه ودمه الكريم نفسه اللذين نؤمن بأنهما رسوم لقيامتنا » .

وقد ثبت المجمع الثالث المسكونى رسالة القديس كيرلس بطريرك الاسكندرية الى نسطور ، وهذه الرسالة كتبت من قبل مجمع اسكندرية المكانى وجاء فى نصها هذه العبارة وهى « أننا ننادى بأن ابن الله الوحيد ربنا يسوع المسيح مات بالجسد ، ونقر بقيامته و بصعوده الى السموات ، فنتمم فى الكنائس الذبيحة الغير الدموية ، وهكذا نقترب من الاسرار المباركة ونتقدس اذ نشارك جسد يسوع المسيح مخلصنا المقدس ودمه الكريم .. لكن لا ينبغى أن ننظر الى جسده كما الى جسد انسان يماثلنا من كل الوجوه فى أهوائنا ، بل يجب أن نوقن أنه بالحقيقة جسد الذى قد صار وسمى لاجلنا ابن الانسان نفسه » (مجمع أفسس جلسة ١ وكيرلس الاسكندرى جزء ٥ قسم ٢) .

تمسك مارتين لوثر واعتقاده بهذا السر:

ومما يجب ذكره هنا أن مارتين لوثر زعيم البروتستانت عندما كان يجادله أصحابه جدالا عنيفا فى هذا السر ، لم يخرج عن الاعتقاد الصحيح ولم يتحول عن فكره ، بل كان يقرر قول الرب « هذا هو جسدى » و يكتبها فى المحضر بخطه أمام الجميع ، رافضا كل فلسفة بشرية ، و يقول

« انى اصرح بأنى اختلف عن خصومى فى تعليم عشية الرب ، وأنى أختلف دائما عنهم فان المسيح قد قال هذا هو جسدى ، فليبينوا لى أن الجسد ليس هو جسده . وانى أرفض العقل والعرف والاحتجاجات اللحمية والبراهين التعليمية فان الله أعلى من الهندسيات . عندنا كلام الله فيجب علينا أن نكمله ونحترمه » (راجع تاريخ الاصلاح للعلامة ميرل رو بينياه جزء ٢ صحيفة ٣٨٢) .

الفصل الخامس

كيفية حضور الرب فى هذا السر ومعنى الاستحالة

مما تقدم يتضح جليا أن التقدمة المقدسة لا تبقى بعد البركة خبزا بسيطا ولا خمرا بسيطا بل يتناولها المؤمنون بأنها جسد المسيح نفسه حسب قوله الطاهر. وذلك يتم باستحالة سرية لا تدرك بالحواس و يتضح ذلك مما يأتى :

أولا : من عبارات الكتاب الالهى التى أوردناها سابقا ، فان الرب جل ذكره لما وعد بهذا السر قال « أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء . أن أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الأبد . والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » (يو٦ : ٥١) وحين سلم تلاميذه هذا السر قال « خذوا هذا هو جسدى . وهذا هو دمى » و بولس الرسول كتب الى أهل كورنثوس يقول « كأس البركة التى نباركها أليست هى شركة دم المسيح الخبز الذى نكسره أليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠ : ١٦) وقال « اذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز و يشرب من الكأس . لأن الذى يأكل و يشرب بدون استحقاق يأكل و يشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب » (١ كو ١١ : ٢٧ ــ ٢٩) . والحقيقة هنا واضحة من كل هذه النصوص وهى أن الرب والرسول يسميان الخبز جسد المسيح ، والخمر دم المسيح بأصرح عبارة . ولم يقل الكتاب أن جسد المسيح يكون فى الخبز ، أو مع الخبز ، أو تحت الخبز . ولم يقل السيد أن الخبز الذى أعطيه يكون فيه جسدى ، بل قال « الخبز الذى أنا أعطى هو جسدى » .

ثانيا : اذا راجعنا جميع كتب القداسات المستعملة فى كل الكنائس شرقا وغربا ، وهى قديمة جدا . نجدها كلها متفقة فى تضرعاتها على هذه الكلمات « ليحل روحك القدوس على هذه القرابين الموضوعة و يطهرها و ينقلها و يظهرها قدسك لقديسيك . وهذا الخبز يجعله جسدا مقدسا له ، وهذه الكأس أيضا دما كريما للعهد الجديد الذى له .. الخ » وهذا يدل على ايمان الكنيسة الجامعة الذى لم يتغير منذ القديم حتى الآن .

ثالثا : مما ورد فى أقوال الآباء التى سبق ذكرها حيث وردت فيها كلمات « ينتقلان ، يتغيران ، يستحيلان » كما قال القديس غريغوريوس « اننى أعتقد وأقر بالحقيقة أن الخبز

يستحيل اليوم أيضا اذ يتقدس بالكلمة الالهية الى جسد الاله الكلمة » (تعليمه فصل ٣٧) وقال القديس أمبروسيوس « كلما تناولنا القرابين المقدسة التي تتحول سريا بالطلبة المقدسة الى جسد المسيح ودمه نخبر بموت الرب » (في الايمان ٤ : ١٠ : ١٢٤) وقال القديس افرآم السرياني « انكم تشتركون في جسد الرب الكلي قدسه بايمان كامل غير مرتابين بأنكم تأكلون الحمل كله » وقال في موضع آخر « ان جسد الرب يتحد بجسدنا على وجه لا يلفظ به أيضا ودمه الطاهر يصب في شراييننا ، وهو كله بصلاحه الأقصى يدخل فينا » (جزء ٣ : ٤٢٤) .

عدم انقسام القدسات مع تفصيل اجزائها ، ووحدة السر:

وان كان الجسد المقدس يفصل و يقسم في سر الشكر، و يوزع على المؤمنين تحت شكلي الخبز والخمر اللذين بهما يصير الجسد والدم منظورين وملموسين ، الا أنهما كاملان بذاتهما وغير منقسمين . ولهذا نؤمن أن كل جزء من الخبز ومن الخمر في هذا السر الاقدس حتى أصغر الاجزاء منها ليس هو جزء من جسد المسيح ودمه ، بل ينال به المؤمن جسد المسيح كله ودمه كله .

كذلك وان كان سر الشكر يتمم في جميع كنائس المسكونة ، فجسد المسيح هو واحد ودمه واحد في جميع الامكنة والازمنة ، والمسيح حاضر فيه بذاته . لا يمكن ادراك وفهم ذلك الا بالايمان . كما نؤمن ايضا أن الخبز والخمر بعد تقديسهما وانتقالهما واستحالتهما سريا الى جسد الرب ودمه ، يلبثان دائما هكذا أي أن حضور الرب في الأسرار بعد التقديس هو ثابت وغير منقطع في وقت الشركة و بعده ، خلافا للذين يزعمون أن حضور الرب محصور في وقت اشتراك المؤمنين بالاسرار، وان القرابين بعد الشركة ليست سوى خبز وخمر بسيطين .

وبما أن الخبز والخمر في هذا السر الأقدس هما جسد المسيح ودمه فيجب أن تقدم لهما العبادة والسجود . قال القديس يوحنا ذهبي الفم « هذا الجسد لما كان بعد في هذا المذود خجل منه المجوس . ورجال كفرة و برابرة تركوا أوطانهم و بيوتهم وقطعوا طريقا طويلة ، وأتوا بخوف وارتجاف كثير وسجدوا له . فلنقتدين اذن بالبرابرة على الأقل نحن أبناء السموات . لأن أولئك مع أنهم رأوه في مذود وضمن كوخ ، ولم يروا شيئا مما تراه أنت الآن تقدموا برعب كثير. وأما أنت فلست تراه في مذود بل على مذبح ، ولست ترى امرأة حاملة اياه بل كاهنا واقفا وروحا طائرة على الموضوعات ونازلا عليها بغزارة لأنك لست تنظر الجسد وحده فقط على بسيط الحال مثل أولئك ، لكنك تعلم أيضا قدرته وكل التدبير، وليس خافيا عليك شيء مما تمم به لأنك متعلم جميع الاسرار بتدقيق » (مقالة على تفسير ١ كو ٢٤ : ٥) وقال القديس اغسطينوس « ما من أحد يشارك جسد يسوع المسيح ما لم يقدم له عبادة الهية » (على مزمور ٩٨) .

الفصل السادس

ادحاض الاعتراضات على هذا السر

ان بعض الفرق المسيحية الذين لا يؤمنون بهذا السر الأقدس يعترضون على تعليم الكنيسة في شأنه ببعض اعتراضات نذكر هنا أهمها مع الرد عليها وهي :

اولا : يزعمون أن الخبز والخمر في هذا السر ما هما الا مثال ورمز لجسد المسيح ودمه .

ولدفع هذا الاعتراض نقول : جاء في كتاب القواعد السنية في تفسير الاسفار الالهية تأليف القس **جيمس انس** الامريكي (صفحة ١٦٢) ما يأتي : « ان الرمز هو ما عينه الله اشارة الى أمر أعظم منه عتيد أن يكون في نظام ملكوته سمي المرموز اليه . وهذا الحد يتضمن ثلاثة شروط . **الأول :** وجود اشارة حقيقية في الرمز الى المرموز اليه وهي مبنية اما على مشابهة خارجية أو داخلية روحية . **والثاني :** تعيين الرمز من قبل الله للاشارة الى المرموز اليه . وهذا التعيين من باب الاستعداد لاظهار المرموز اليه في حينه . **والثالث :** أن المرموز اليه يكون من الامور المتعلقة بمستقبل ملكوت الله » . فاذا طبقنا هذا التعريف على ما نحن بصدده ظهر الفرق الواضح بين الرمز و بين هذا السر الذى وضعه السيد للعهد الجديد .

قال طيب الذكر المرحوم **عريان مفتاح** في رده على هذا الاعتراض « المثال والرمز لابد أن يكون بينهما و بين الممثل به والمرموز اليه تناسب معنوى يدل على صفته التي يقصد تمثيلها والرمز اليها ، والقياس على ذلك ذبح اسحق حين أمر الله أباه ابرهيم بأن يقدمه له قربانا (تك ٢٢ : ١ ـــ ١٨) فالتناسب المعنوى الذى بينه و بين المسيح هو أنه كان الابن الحبيب لابيه ، ولما أراد أبوه أن يقدمه ذبيحة أطاع أباه حتى الموت ، وحمل الحطب الذى كان مزمعا أن يرفع عليه ، هكذا السيد المسيح فانه الابن الحبيب الوحيد للآب ولما سر الآب أن يقدمه ذبيحة عن خطايا العالم أطاع حتى الموت وحمل صليبه . كذلك كان خروف الفصح الذى بلا عيب الذى كان يقدمه بنو اسرائيل رمزا الى المسيح ، فكما أنه بواسطة ذبحه واراقة دمه نجا بنو اسرائيل من الهلاك الزمنى ، هكذا بسفك دم المسيح حمل الله الذى بلا عيب ، خلصنا من الهلاك الأبدى . وقس على ذلك باقي الرموز والمثالات التي وردت في العهد القديم . ولكن في أكل خبز وخمر بسيطين ـــ كما يزعم المعترض ـــ لا نجد أدنى مناسبة معنوية لمثال موت المسيح ، لا في الصورة ولا في الصفة ولا

فى الفعل ، خصوصا وأن الرمز يستعمل لاشياء لم تظهر فى عالم الوجود بعد ، و بظهور المرموز اليه يبطل الرمز ، ونحن نعلم أن بمجىء المسيح له المجد بطلت الرموز التى كانت تشير وترمز اليه . قال بولس الرسول : « ان طريق الأقداس لم يظهر بعد ما دام المسكن الاول له اقامة الذى هو رمز للوقت الحاضر الذى فيه تقدم قرابين وذبائح لا يمكن من جهة الضمير أن تكمل الذى يخدم » (عب ٩ : ٨ و٩) وقال « لأن الناموس اذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الاشياء » (عب ١٠ : ١) فيلزم هنا أن نقول أما ان السيد المسيح أتى وبمجيئه أكمل الرموز التى تقدمت عنه وأبطلها بوجوده وأن الذى قدمه السيد المسيح لتلاميذه هو حقيقة لا رمز ، وأما أن المسيح لم يأت بعد وأن فعل الرموز هو غيره و بذلك نكون مع اليهود منتظرين مجيئه » (حاشا لله) .

ثانيا : يزعمون أن كلام السيد المسيح عن جسده ودمه مجازى لا حقيقى ، و يوردون بعض عبارات مجازية وردت فى الكتاب كقوله : أنا هو الباب والطريق ، وتسميته سمعان بصخرة ، وهيرودس بثعلب ، وتسميته المعمدان للسيد بحمل ، وأن السيد المسيح على هذا القياس قد سمى نفسه خبزا : و بناء عليه يعتقدون بأن تعليم السيد عن هذا السر مجازى .

وندفع ذلك بأننا سبق أن أثبتنا فى صفحة ٦٥ — ٦٩ أن كلام المسيح عن هذا السر حقيقى لا مجازى ونقول هنا : ان المجاز هو استعارة اسم شىء لغيره لتناسب بعض صفاته ، والمقصود منه تشبيه شى بشىء لتقريب المعنى المراد استعمال المجاز له ، فمثلا يستعار النور والظلمة للنجاح والضيق والفرح والحزن ، للمعرفة والجهالة . و ينابيع المياه والامطار والظل وندى الليل لبركات الانجيل ، وما أشبه ذلك . والمجاز فى الكتاب المقدس نوعان : **الأول :** ما يكون الغرض منه ظاهرا لسامعيه كتسمية السيد المسيح لهيرودس بثعلب نظرا لما كان معروفا ومتصفا به من المكر والخديعة المتصف بها الثعلب . وتسمية يوحنا بايليا لمشابهته له فى النسك والغيرة . وقد سبق النبى فأخبر بأنه يتقدم المسيح بروح ايليا وقوته (ملا ٣ : ١ ، ٤ : ٥) . واما **الثانى :** فهو ما يكون غامضا على سامعيه فيلتزم المتكلم بايضاح قصده منه كقول السيد « أنا هو الباب » الذى فسره بقوله « ان دخل بى أحد فيخلص و يدخل ويخرج ويجد مرعى » (يو ١٠ : ٩) وقول « أنا هو الطريق » وفسره بقوله « ليس أحد يأتى الى الآب الا بى » (يو ١٤ : ٦) وقوله « أنا الكرمة » وفسره بقوله « كما أن الغصن لا يقدر أن يأتى بثمر من ذاته ان لم يثبت فى الكرمة كذلك أنتم أيضا أن لم تثبتوا فى .. بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئا » (يو ١٥ : ١ — ٦) وكتسمية يوحنا المعمدان السيد المسيح بحمل ثم تفسيرها بقوله « الذى يرفع خطية العالم » (يو ١ : ٢٩) وتسمية المسيح سمعان ببطرس بناء على اعترافه بأن المسيح هو ابن الله الحى وأن المسيح مزمع أن يؤسس كنيسته على صخرة هذا الايمان ، وتسميته تلاميذه بملح الأرض لأنهم يكونون بصفة مصلحين لفساد العالم ، وقس على ذلك . فهذه العبارات المجازية متضمنة معانيها ، وفيها قرائن تدل على المراد بها

ولا ينطبق شيء منها على سر الافخارستيا مطلقا ، فلماذا نترك معنى الكتاب الواضح ونلتفت الى تأويلات بعيدة عن الصواب ؟ قال **لوثيروس** : « ان معنى الكتاب المقدس البسيط هو أساس الايمان ، والأمر الوحيد الذي لا يتزعزع في وقت الضيق والامتحان » وقال القس **جيمس أنس** الامريكي مؤلف كتاب « القواعد السنية في تفسير الاسفار الالهية » عند كلامه عن المجاز: « لابد للمجاز من قرينة تدل عليه وهي اما لفظية أو معنوية . فان انتفت القرينة حمل الكلام على الحقيقة مالم يعلم أو يظن أن قائله لم يعتقد ظاهره (ص ١٢٢) وقال في القاعدة الاولى من قواعد التفسير « ان معنى الكتاب البسيط الواضح هو على الغالب المعنى الصحيح ، وفسر هذه القاعدة بأن البسيط الواضح هو الكلام المتبادر اليه فهم الجمهور، و يؤ يد ذلك كون الكتاب كتب للعالم أجمع ، فلا بد أن معناه يطابق ظاهر الكلام » (صفحة ٧٨) وقال في القاعدة السادسة من قواعد المجاز « ان المجاز وحده ليس أساسا كافيا لتعاليم مهمة ولا يناسب لأنه أحيانا يقود الى الضلال » (صفحة ١٤٥) .

ثالثا : يقولون ان السيد المسيح قال عن هذا السر « اصنعوا هذا لذكرى » فهو اذن تذكار لجسد المسيح ودمه ، والشيء لا يكون تذكارا لنفسه .

ونـدفع هذا الاعتراض بعد أن نعرف أنواع التذكار: قسم المرحوم **عريان مفتاح** التذكار الى أربعة أنواع . فقال يلزم أن يكون التذكار بأحد أربعة أشياء . أما عينا (أى من عين الشيء) كالمن الذى أمر الله موسى بحفظه في قسط من الذهب تذكارا للمن (وهذا ينفى القول بأن الشيء لا يكون تذكارا لنفسه لأن المن كان تذكارا لنفسه) وأما اثرا كالحجارة التى امر يشوع بن نون بأخذها من أرض الاردن تذكارا لمرورهم فيه (يش ٤ : ٩) واما صورة كالكروبين اللذين أمر النبى بصنعهما ووضعهما في قبة الشهادة تذكارا للسمائيات (خر ٢٥ : ١٧ — ٢٢) واما خبرا كما فعل موسى النبى اذ قص على بنى اسرائيل ما ورد في سفرى الخروج والعدد ، عما صنع الله على يديه معهم ، والوقائع التى حدثت في خلال ذلك . واذا طبقنا تذكار موت المسيح على احد هذه الانواع الاربعة فانه يلزم أن يكون اما عينا أى من عين جسده ودمه . وأما اثرا أى بالآلات التى استعملت في آلامه وموته . وأما صورة أى برسم هيئة الواقعة . وأما خبرا أى بخبرها الوارد في الاناجيل المقدسة . فالخبز والخمر اللذين سلمهما السيد لتلاميذه ليسا تذكارا أثريا ولا صوريا ولا خبريا ، لأنهما ليسا آلة من آلات موته ، ولا هما صورة مرسومة على هيئته ، ولا هما مجرد حكاية تاريخية تحفظ لنا تذكار الواقعة خبريا ، وكيف يحصل تذكار موت المسيح من أكل خبز وشرب خمر، اذا كانا لا يزالان على بساطتها ولا يتحولان الى جسده ودمه الحقيقى . فلابد اذن أن يكون السر تذكارا من عين الشيء ، أى من عين جسده ودمه ، كما كان المن تذكارا لنفسه . وقد يكون الذكر أيضا لما يتصوره العقل ولا تدركه الحواس ، فان الله تعالى مثلا حاضر في كل مكان ، ومع

ذلك يقال أن الابرار يتذكرونه دائما ، كقول المرتل « ذكره الى جيل الاجيال » فاذن يقال بكل صواب ان هذا السر تذكار لموت المسيح لأنه حاضر فيه بنوع سرى غير منظور ولا تدركه حواسنا » .

رابعا : يزعمون أن السيد المسيح قصد بكلامه عن جسده ودمه فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا الايمان به .

وندفعه بأن قرائن الكلام وظروف الأحوال تنفى هذا الزعم ، لأن السيد له المجد كان يعدهم بطعام لم يذوقوه بعد ، بل وعدهم بأنه سيعطيهم اياه فى المستقبل . فلو كان كلامه يقصد منه الايمان به لا الى جسده ودمه لوجب أن نسلم بأن جميع الذين كانوا يسمعونه كانوا غير مؤمنين به ، والحال أن تلاميذه سبق فآمنوا به ، وأن نعمة الايمان كانت قد أعطيت لكثيرين ولا محل للوعد بها فى المستقبل . ومن الملاحظات الجديرة بالاعتبار أن يوحنا الانجيلى اكتفى بما أورده عن هذا السر فى الاصحاح السادس ، ولم يذكر تأسيسه عندما سلمه الرب لتلاميذه كما كتب باقى الانجيليين ، وهذا دليل مقنع أن يوحنا الانجيلى يقصد بكلامه جسد الرب ودمه لا الايمان به .

خامسا : يزعمون بأن كلام بولس الرسول (١ كو ١٠ : ١٥ ــ ٢٢) عن كأس البركة والخبز المقدس انها شركة جسد المسيح ، لا يترتب عليه أن يكون الخبز والخمر جسد المسيح ودمه بل شركة فقط ، وأن تسمية الرسول لهما خبزا وكأسا دليل على عدم الاستحالة .

وندفع هذه المغالطة بأن الاشتراك فى الشيء هو الحصول عليه ، والا فلا يكون المسيح اشترك فى جسدنا . لأن الرسول يقول « فاذ قد تشارك الاولاد فى اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما » (عب ٢ : ١٤) و يقول « لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه » (أف ٥ : ٣٠) و يقول (أليس الذين يأكلون الذبائح هم شركاء المذبح » (١ كو ١٠ : ١٨) بل أن كلام الرسول عن الشركة لا يقبل هذا التأويل ، لأنه يقول بصريح العبارة هكذا « احكموا أنتم فى ما أقول . كأس البركة التى نباركها أليست هى شركة دم المسيح . الخبز الذى نكسره اليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠ : ١٥ و١٦) لاسيما وأنه قال بعد ذلك « لأننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا » الى أن قال « اذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز و يشرب من الكأس . لأن الذى يأكل و يشرب بدون استحقاق يأكل و يشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب . من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون الخ » (١ كو ١١ : ٢٣ ــ ٣٤) .

وأما تسمية الرسول للجسد والدم خبزا وخمرا فذلك بناء على ظهور السر أمام أعيننا

هكذا ، و بناء على ما كانا عليه قبل التقديس ، وهذا أمر جائز في كل لغة اذ يسمى الشيء باسم ما كان عليه اولا ، وقد ورد مثل ذلك في الكتاب المقدس ، كما ذكر عن الماء الذى حوله السيد المسيح الى خمر في عرس قانا الجليل حيث يقول « فلما ذاق رئيس المتكأ الماء » (يو ٢ : ٩) مع أنه كان قد تحول خمرا ، فسماه ماء باعتبارا ما كان أولا ، ومنه قول الكتاب « ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم » (خر ٧ : ١٢) مع أنها كانت تحولت الى ثعبان ، وقوله عن لعازر عند قيامته « فخرج الميت و يداه ورجلاه مربوطات بأقطة الخ » مع أنه خرج حيا . فسماه « الميت » باعتبار ما كان ، ولم يقل خرج الحي الذى كان ميتا ، ولا خرج الميت الذى صار حيا . فهل يترتب على ذلك أن لعازر كان لا يزال مائتا حال خروجه . و بناء عليه لا تكون تسمية الرسول للسر خبزا وخمرا دليلا على عدم تغيره واستحالته الى جسد المسيح ودمه .

سادسا : يعترضون بقولهم كيف أن الخبز والخمر اللذين هما من نباتات الارض يستحيلان الى جسد المسيح ودمه و يكونان هما جسد ودم المسيح .

ونرد على ذلك بأن الاستحالة نوعان ، حسية أى واقعة تحت الحواس ، وسرية لا يقع عليها حكم ، والاستحالة هى انتقال الشيء الى غيره . فالحسية هى تحويل طبع وصورة وفعل شيء ما الى طبع وصورة وفعل الشيء الذى يتحول اليه ، كتحويل امرأة لوط الى عمود ملح ، وتحويل عصا هرون الى ثعبان ، وتحويل ماء النهر في مصر الى دم ، وتحويل الماء في عرس قانا الجليل الى خمر. وأما الاستحالة السرية التى لا تدخل تحت الحواس فهى استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه في سر الافخارستيا ، وذلك بناء على قول السيد الصريح « هذا هو جسدى وهذا هو دمى » . وان قال المعترض كيف يكون ذلك ، فنرد عليه بأن أعمال الله لا يسأل عنها بكيف . وقد اقتضت الحكمة الالهية أن تكون استحالة امرأة لوط الى ملح ، والماء الى دم في مصر، والى خمر في عرس قانا الجليل لضرورة اعتبار الحس ، لأن الغاية منها ظهور قوة الله علنا . وأما الاستحالة في سر الافخارستيا فليس من الضرورى ظهورها للحواس : وليس أيضا من المناسب اذ لا يمكن للانسان أن يأكل لحما و يشرب دما ، فهذه الاستحالة سرية لا تدرك بالحواس ، فمع أننا نأكل خبزا ونشرب خمرا الا أن هذا الخبز وهذا الخمر ليسا بعد التقديس خبزا وخمرا عاديين بل هما جسد ودم المسيح كما قال الرسول « لأننا بالايمان نسلك لا بالعيان » (٢ كو ٥ : ٧) « ولأننا بالرجاء خلصنا . ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء ، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضا » (رو ٨ : ٢٤) والايمان بأعمال الله السرية أعظم من الايمان بأعماله الظاهرة ، لأن هذه يحكم عليها بالحواس ، وأما تلك فيراها العقل بنور الايمان . وقد سبق نيقوديموس وسأل المسيح له المجد عن سر الميلاد الثانى فأجابه مو بخا « المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح (وطبعا يحصل ذلك بسر لا يدرك وانما يفعله الروح القدس) لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى

أن تولدوا من فوق. الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها ولكنك لا تعلم من أين تأتى ولا الى اين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح» (يو٣ : ٦ : ٨).

أما قول المعترض أن الخبز والخمر هما من نباتات الارض فانه اذا تأمل فى فعل الطبيعة وجد أن كل جسد ودم هما من نبات الارض و يعودان أيضا نباتا، وهذا أمر مسلم به، وأما صيرورتها جسد المسيح ودمه فهذا موكول لفعل القدرة الالهية التى لا يشك فيها.

سابعا: يقولون كيف أن الذى سلمه السيد المسيح لتلاميذه هو جسده ودمه، مع أنه كان جالسا فى وسطهم، ولم يسلمهم الا خبزا وخمرا منظورين.

فنقول بأن هذا الاعتراض ليس موجها لنا، وانما هو موجه لشخص السيد، لأن هو الذى قال هذا وفعل هكذا، وقد سبق أن اعترض اليهود بهذا الاعتراض قائلين: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل» فسمعوا جوابه المسكت «ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق». ونحن هكذا آمنا وقبلنا هذا السر بناء على شهادة الحواس فانهم يهدمون أركان الديانة المسيحية. لأن الحواس لا تستطيع أن تدرك شيئا من أسرار الديانة. فمثلا ان الله الآب قد شهد لابنه قائلا «هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت» فاذا اعتمدنا على الحواس رأينا أن العين لم تشاهد الا هيئة شخص مثل بنى البشر. فاذا كنا لا نؤمن الا بما تحكم به الحواس أنكرنا هذه الشهادة (حاشا الله من ذلك). وليقل لنا الذين يهتمون بحكم الحواس كيف صير الله نار أتون بابل على الفتية الثلاثة كنسيم بارد، حتى أنها لم تؤثر فى أجسامهم ولا فى شعورهم ولا فى رائحة ثيابهم. فان قالوا قد نزعت منها قوة الاحراق فنجيبهم كيف اذن أحرقت الكلدانيين الذين اقتربوا منها؟ وان كان فيها قوة الاحراق فلماذا لم تحرق الفتية؟ كيف تكون النار حارة و باردة فى آن واحد؟ هل يمكن أن يفهم ذلك بالحواس. وكيف أشبع السيد المسيح الالوف من خمسة أرغفة وسمكتين وفضل عنها اثنتا عشرة قفة من الكسر. وكيف تجسد المسيح فى بطن السيدة العذراء وهو مالىء الكون، وكيف صلب على الصليب وهو مع ذلك لا يزال فى حضن أبيه، وكيف خرج من القبر وهو مختوم والحراس واقفون على بابه، وكيف دخل على التلاميذ والابواب مغلقة؟ الا نعترف بأن الديانة المسيحية كلها أسرار فائقة لا قدرة للعقل ولا للحواس على ادراكها. ألم يقل السيد بأن كلامه هو روح وحياة، و بولس الرسول يقول «كلامى وكرازتى لم يكونا بكلام الحكمة الانسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة لكى لا يكون ايمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله» (١ كو٢ : ٤ و٥) وقوله «ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذى من الله لنعرف الاشياء الموهوبة لنا من الله التى نتكلم بها أيضا. لا بأقوال تعلمها حكمة انسانية بل بما يعلمه الروح القدس قارنين الروحيات

بالروحيات ، ولكن الانسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ، ولا يقدر أن يعرفه لأنه أنما يحكم فيه روحيا » (١ كو ٢ : ١٢ ــ ١٤) فعلينا أن نرفع اسرار الديانة فوق العقل والحواس حتى نستطيع أن نؤمن بها .

ومالى أقول بوجود أسرار فى الديانة ، وهوذا الطبيعة كلها أسرار لا تزال فائقة لا تدرك ، مثال ذلك الانسان فاننا نعلم أنه مؤلف من نفس وجسد متحدين اتحادا طبيعيا جوهريا ، ولكن لا يوجد من يستطيع أن يدرك كيفية هذا الاتحاد العجيب . ونعلم أن نفسنا تأمر يدينا ورجلينا بالحركة ولا نعرف كيف ينفذ هذا الروح البسيط أمره بهذه السرعة العجيبة فى الجسد الهيولى . ونرى أن حبة صغيرة تبذر فى الارض و بعد قليل نشاهدها شجرة كبيرة ذات أغصان مرتفعة ولا ندرك سر نموها . وأيضا نرى صور المبصرات تنطبع فى الاعين معكوسة ولكننا نراها مستقيمة ولا نقدر أن نبرهن علة ذلك . وها هى المآكل التى نأكلها ونتغذى بها كل يوم تتحول الى دم ينبت و ينتشر فى سائر اجزاء الجسد ولا نعلم كيف يكون ذلك . والمياه التى نشربها مركبة من الاوكسجين والهيدروجين ، فالاول عنصر بسيط يعين المواد على الاشتعال اذ يتحد بكربونها ، والثانى عنصر بسيط يشتعل باتحاده مع الاوكسجين و يولد حرارة عظيمة ، ونفس هذا الاتحاد يولد لنا المياه التى نروى بها عطشنا فكيف أن المياه المؤلفة من عناصر تذيب الجلمود لشدة حرارتها نرتوى بها . فهذا الانقلاب الذى حدث فى طبيعة هذين العنصرين لا يعلم كيفيته الا الله . وهكذا من الاسرار الغريبة نظير القوة الكهربائية ، والقوتين الجاذبة والدافعة وسير النور العجيب ، والهواء المتحرك والنار المخيفة ، وغير ذلك من الاسرار التى نؤكد وجودها فى الطبيعة ونجهل كيفيتها وعلتها الحقيقية . فهذه كلها تبطل ادعاء الفهم البشرى وتبرهن على ضعفه . فاذا كانت الطبيعة مملوءة بالاسرار العسرة الفهم فهل من المستحيل وجود اسرار فائقة الادراك فى الديانة الالهية . فاما أن توجد حقائق فائقة الادراك البشرى ، واما أن يكون العقل قياس كل الحقائق . و بذلك نسقط فى مذهبى العقليين والماديين المرفوضين من كل المسيحيين ، ونسقط فى ضلال وخيم ، هو أن معرفة الله لا تتميز عن معرفة البشر . وهذا ظاهر البطلان .

الفصل السابع

سر الشكر من حيث هو ذبيحة ، وصفات هذه الذبيحة ، ونسبتها الى الذبيحة التى قدمت على الصليب

ان الكنيسة الارثوذكسية تؤمن وتعترف بأن سر الشكر فضلا عن كونه سرا ، فهو أيضا ذبيحة تقدم لله ، والبراهين على ذلك هى :

أولا : تعليم المخلص نفسه الذى أوضح هذه الحقيقة فقد قال عند وعده باعطاء هذا السر « أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء . ان أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الابد . والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » (يو ٦ : ٥١) ومن هذا الكلام الالهى يتضح أن هذا السر الخلاصى هو ذبيحة غفران أمام الله . وكذلك عند تسليمه السر لتلاميذه قال لهم « هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم . اصنعوا هذا لذكرى ... هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم » (لو ٢٢ : ١٩ و ٢٠) فهذا السر الذى يقام تذكارا لذبيحة الاستغفار التى قدمت على الصليب ، هو ذبيحة حقيقية فعلية .

ثانيا : ان الرسل الاطهار علموا هذا التعليم . فقد كتب بولس الرسول الى أهل كورنثوس يقول « أنظروا اسرائيل حسب الجسد . أليس الذين يأكلون الذبائح هم شركاء المذبح . فماذا أقول . ان الوثن شىء أو أن ما ذبح للوثن شىء . بل ان ما يذبحه الامم فانما يذبحونه للشياطين لا لله . فلست أريد أن تكونوا أنتم شركاء الشياطين . لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين . لا تقدرون أن تشتركوا فى مائدة الرب وفى مائدة شياطين » (١ كو ١٠ : ١٨ — ٢١) ففى هذه الآية يقابل الرسول مائدة الرب أى مذبح المسيحيين ، بمائدة الشياطين أى مذبح الامم الذى كانت تقدم عليه ذبائح — وان كانت رجسة وغير مقبولة — وبهذا يؤكد أن ما يقدم على مذبح المسيحيين فى سر الشكر هو ذبيحة حقيقية أمام الله . وهذا الرسول نفسه كتب فى رسالته الى العبرانيين يقول « لنا مذبح لا سلطان للذين يخدمون المسكن أن يأكلوا منه » (عب ١٣ : ١٠) وبمقابلته مذبح العهد الجديد بمذبح العهد القديم الذى كان الاسرائيليون يقدمون عليه ذبائح حقيقية يأكلون منها ، يشهد بأن المسيحيين يقدمون لله ذبيحة حقيقية على مذبحهم ، ولهم وحدهم السلطان أن يأكلوا منها .

ثالثا : ان ذبيحة العهد الجديد سبق الله فأنبا بها على لسان ملاخى النبى قائلا « ليست لى مسرة بكم قال رب الجنود ولا أقبل تقدمة من يدكم . لأنه من مشرق الشمس الى مغربها اسمى عظيم بين الامم وفى كل مكان يقرب لاسمى بخور وتقدمة طاهرة لأن اسمى عظيم بين الأمم قال رب الجنود » (ملا ١ : ١٠ و١١) وواضح من هذا القول أن النبى يتكلم عن ذبيحة جديدة طاهرة . ولا يمكن أن نقول أنها ذبائح اليهود التى أعلن الرب كراهيته لها ، وهى محصورة ضمن حدود اليهودية . ولا يمكن القول ايضا انها ذبائح الامم التى لا قيمة لها فى الكتب المقدسة لأنها رجسة ومرذولة عند الله . ولا يمكن الظن بأن النبى يشير الى الذبيحة الروحية التى أشير اليها فى المزمور (٥١ : ١٩) لأن هذه الذبيحة قدمها كثيرون من رجال الله الأتقياء منذ تأسيس العالم . لاسيا وأن ملاخى النبى يخبر عن ذبيحة جديدة لم تكن موجودة من قبل . ذبيحة منظورة مدركة ومعدة لأن تبطل الذبائح اليهودية وتحل محلها . ولا يمكن الظن بأن النبى قصد بهذه الذبيحة تلك الذبيحة السامية التى قدمها المخلص على الصليب ، **لأن هذه الذبيحة قدمت فى مكان واحد** وهو الجلجثة . ولكن النبى يخبرنا عن ذبيحة طاهرة مزمعة **أن تقدم فى كل مكان على الارض .** فلا يبقى اذن سوى أن نعترف بأن هذه الذبيحة هى سر الشكر الذى يقدم ذبيحة طاهرة لله فى كل مكان .

رابعا : ان الكنيسة المقدسة قد علمت منذ نشأتها هذه الحقيقة وهى أن سر جسد يسوع المسيح هو ذبيحة حقيقية وتعترف بذلك فى قداساتها بأنها تقدم لله ذبيحة مقدسة ناطقة غير دموية حيث تقول « ففيما نحن أيضا نصنع ذكر آلامه .. نقرب لك قرابينك من الذى لك » وعندما يبسط الكاهن يديه يقول « ربنا والهنا ومخلصنا يسوع ... يعطى عنا خلاصا وغفرانا للخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه » وقوله « هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل الهنا حمل الله الذى حمل خطية العالم كله » .

خامسا : نجد هذا التعليم واضحا فى شهادات المجامع المسكونية فقد جاء فى قوانين المجمع المسكونى الأول هذا التصريح « على المائدة المقدسة يوضع حمل الله الرافع خطايا العالم و يذبح من خدام الله ذبيحة غير دموية ، وجاء فى شهادات مجمع افسس هكذا « أننا نقدم فى الكنائس الذبيحة غير الدموية ، وهكذا نلمس الاسرار المقدسة والمباركة ونتقدس باشتراكنا بالجسد المقدس جسد المسيح مخلص العالم كله بدمه الكريم » وجاء فى أعمال مجمع نيقية « لا الرب ولا الرسل ولا الآباء سموا « الذبيحة غير الدموية » المقدسة من الكهنة « صورة » بل هم يسمونها دائما جسد الرب نفسه ودم الرب نفسه » .

سادسا : قد شهد جميع الآباء بهذه الحقيقة فى تعاليمهم . فقد قال القديس اغناطيوس « أن جسد الرب يسوع واحد . هو دمه المهرق عنا واحد . خبز واحد كسر . وكأس واحدة وزعت

للجميع . ومذبح واحد لكل الكنيسة » (رسالة لاهل فيلادلفيا فصل ٤ والى أهل مغنيسيا فصل ٨ والى أهل أفسس فصل ٥) وقال القديس يوستينوس الشهيد « نقدم باسمه « ذبيحة » قد امر الرب يسوع أن تقدم ، وذلك في سر الخبز والكأس وهي ذبيحة مقدمة من المسيحيين في كل مكان على الارض « ذبيحة طاهرة ومرضية لله » (في خطابه الى تريفن) وقال القديس ايريناوس « ان المسيح علمنا « ذبيحة » جديدة للعهد الجديد فالكنيسة تسلمتها من الرسل وتقدمها في كل المسكونة بحسب نبوة أحد الأنبياء الاثنى عشر وهو ملاخي حيث يقول لا ارادة لى بكم الخ و ينادى بأن الشعب الاول (أي اليهود) سيكف عن أن يقدم لله ذبائح وأنه فى كل مكان ستقدم ذبيحة طاهرة لاسمه الممجد في الامم » (ضد الهراطقة) . وقال القديس أيبوليطس « اننا من بعد صعود المخلص نقدم بحسب وصيته « ذبيحة » طاهرة غير دموية » (في المواهب فصل ٢٦) وقال القديس كبريانوس « ان دم المسيح لا يقدم ما لم يكن في الكأس خمر. وتقديس « ذبيحة الرب » لا يتم قانونيا ما لم يكن « قرباننا وذبيحتنا » مطابقين لآلامه .. لأنه اذا كان الهنا ومخلصنا يسوع المسيح وهو رئيس الكهنة العظيم للاله الآب قد قدم نفسه ضحية للآب وأمرنا أن نصنع ذلك لذكره فلا يتمم الكاهن على الحقيقة (١) عمل المسيح ما لم يعمل كما عمل يسوع المسيح نفسه . أعنى أن يقدم في الكنيسة للاله الآب « الذبيحة الحقيقية بتمامها » متبعا في ذلك مثال المخلص نفسه » (رسالة ٤٣) وقال القديس غريغوريوس « لأن المدبر لكل شيء بحسب سلطانه السيدى لم ينتظر الاضطرار الناتج عن الخيانة (٢) ولا هجوم اليهود اللصى ، ولا محاكمة بيلاطس الخارجة عن الشريعة ، كى لا يكون شر هؤلاء بدءا لخلاص الناس العام وعلة له . لكنه بتدبيره قد سبق هجومهم وهو نفسه قدم ذاته قربانا وذبيحة عنا بعمل التقديس الذى لا ينطق به ، غير المنظور من البشر اذ هو كاهن معا وحمل الله الرافع خطية العالم . وان سألت متى كان هذا ؟ أجيبك . انه كان عندما جعل جسده مأكلا بصريح العبارة وأعطاه للاكل وصارت ذبيحة الحمل كاملة . لانه لو كان الجسد ذا روح لما كان ضحية تصلح للاكل . فلما منح تلاميذه أن يأكلوا جسده و يشربوا دمه « ضحى جسده بوجه لا ينطق به وغير منظور. مدبرا هذا السر كما أرادت سلطته » (على قيامة المسيح خطاب ١) وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « ألسنا نحن نقدم كل يوم قرابين ؟ نعم نقدم ولكنا نصنع تذكار موته ، وهذه الذبيحة » التى كل يوم نقدمها هي واحدة لا أكثر لانه قدم مرة واحدة مثل الذبيحة التى كانت تقدم الى قدس القديسين (٣) . وكما أنه هو رسم لتلك هكذا هذه « الذبيحة » رسم لها . لاننا نقدمه نفسه دائما حملا واحدا ، ولا نقدم الآن خروفا آخر بل الحمل نفسه دائما . « فالذبيحة » اذن هي واحدة . أو

---

(١) أى على الوجه الأكمل .

(٢) أى لم ينتظر السيد ما ينتج بالضرورة عن خيانة يهوذا وغيره من صلب وفداء حتى لا يكون عملهم الشرير بدءا لخلاص الناس .

(٣) يقصد قدس الأقداس .

هل المسحاء كثيرون لأن « الذبيحة » تقدم في محلات كثيرة ؟ حاشا . لأن المسيح واحد في كل مكان ، وهو هنا بكليته جسدا واحدا ، كما أنه يقدم في أماكن متعددة ولا يزال جسدا واحدا لا أجسادا كثيرة ، هكذا « الذبيحة » أيضا واحدة هي » (في تفسيره العبرانيين مقالة ١٦ : ٧ وعلى ١ كو ٢٤ : ٤ وعلى رسالة افسس ٣ : ٥ وخطاب ٣ : ٤ ، ٤ : ٤ في الكهنوت) ونجد مثل هذه الاقوال في تعاليم جميع آباء الكنيسة شرقا وغربا .

وهذه الذبيحة التي نقدمها لله في سر الشكر ، هي الذبيحة التي قدمت على الصليب لأن الذي نقدم على المذبح الآن هو حمل الله نفسه الذي قدم ذاته على الصليب لاجل خطايا العالم . وكما أن المخلص له المجد كان على الصليب مقدما ومقدما هكذا الآن هو أيضا المقرب والمقرب والضحية والمضحي . وفي هذا المعنى قال القديس يوحنا ذهبي الفم « ان رئيس كهنتنا العظيم قدم الذبيحة التي تطهرنا . ومن ذلك الوقت الى الان نقدم نحن أيضا هذه الذبيحة نفسها ، وهذه الذبيحة غير الفانية وغير النافذة هي نفسها ستتمم الى انقضاء الدهر حسب وصية المخلص « هذا اصنعوه لذكرى » غير أن بين ذبيحة سر الشكر والذبيحة التي قدمت على الصليب فرقا بالنظر الى ظروفها وطريقة تقديمها ، فان المخلص قدم لأبيه على الصليب جسده ودمه الكريمين ذبيحة منظورة . وأما في سر الشكر فلا يقدمها تقديما حسيا منظورا بل سر يا تحت شكلي الخبز والخمر. على الصليب قدم الذبيحة الاستغفار ية لأنه رئيس الكهنة الأعظم . وهنا على المذبح تقدم تلك الذبيحة بواسطة كهنته . هناك على الصليب قدمت ذبيحة حقيقية بذبح الحمل وهرق دمه ، وهنا بما أنه قام من الاموات ولا يسود عليه الموت مرة ثانية تقدم الذبيحة في سر الشكر باستحالة سر ية بدون هرق دم ولا موت . ولهذا سميت هذه الذبيحة « ذبيحة غير دمو ية » . بذبيحة الصليب حصل الخلاص لكل الجنس البشري وتم وفاء العدل الالهي ، وأما ذبيحة سر الشكر فانها تستعطف الله دائما للصفح عن خطايا الذين قدمت لاجلهم فينالون الحياة الابدية بالتناول منها ، ان ذبيحة الصليب قدمت مرة واحدة على الجلجلة ، ولكن ذبيحة سر الشكر فمنذ تأسيسها تقدم دائما وتقدم الى الابد الى وقت مجيء المسيح الثاني في كل العالم ، وعلى مذابح لا تعد ولا تحصى : ونستنتج مما تقدم أن الذبيحتين متحدتان بلا انفصال وهما ذبيحة واحدة ، الاولى أصل والثانية شجرة ثابتة من ذلك الاصل ، غطت أغصانها كل كنيسة المسيح وتغذى جميع الذين يطلبون الحياة الابدية بالتناول منها .

ولهذه الاعتبارات اعتبرها جميع الآباء بأنها ذبيحة استغفار تقدم عن الاحياء والاموات ، كما ورد في كتب القداديس وفي شهادات الاباء القديسين . قال العلامة ترتوليانوس « انها تقدم عن الاحياء والاموات ، (في الاكليل ٣ وفي وحدة الزيجة فصل ٩) . وقال القديس كبريانوس « انها تقدم عن الاموات » (رسالة ٦٦) وقال القديس كيرلس الاورشليمي « انها ذبيحة

استغفارية . واننا نقدم المسيح مذبوحا لاجل خطايانا ، مستغفرين الاله المحب البشر عنا وعنهم »
(فى الاسرار ٦ : ٨ ، ٥ : ٨ و١٠) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « لأنه لم يرتب هذا الترتيب على بسيط الحال ، ولا باطلا نذكر المتوفين على الاسرار الالهية ، ونأتى متضرعين لاجلهم للحمل الموضوع الرافع خطية العالم ، بل لكى تحصل من ذلك تعزية لهم . ولا عبثا يصرخ الواقف على المذبح عند تتميم الاسرار الرهيبة من أجل جميع الراقدين بالمسيح والذين يصنعون التذكار من أجلهم . ولو لم يقم التذكار من أجلهم لما قيلت هذه الكلمات . فلا نكل اذن فى مساعدتنا الراقدين بتقديمنا الصلوات من أجلهم لان التنقية العامة لكل المسكونة هى حاضرة . ولهذا نتجاسر أن نطلب من أجل المسكونة وقتئذ وندعو للراقدين والشهداء والمعترفين والكهنة » (مقالة ٤١ : ٤ على اكو) وفى محل آخر يشهد أن اقامة التذكارات فى سر الافخارستيا عن الراقدين شريعة رسولية و يقول « لم يشرع عبثا من الرسل اقامة تذكار الراقدين حين تتميم الاسرار الرهيبة لأن الرسل يعرفون أن للراقدين ربحا عظيما ونفعا جزيلا من ذلك » (مقالة ٣ على رسالة فيلبى) و يقول القديس كيرلس الاورشليمى « ثم بعد أن نتمم الذبيحة الروحية والعبادة غير الدموية نضرع الى الله تجاه ذبيحة الاستغفار هذه من أجل سلامة الكنائس عموما ، ومن أجل الملوك ، ومن أجل الجنود والمحاربين معهم ، من أجل الذين فى الامراض ، ومن أجل المتعبين ، و بالاجمال من أجل جميع المحتاجين الى مساعدة . فنطلب نحن جميعا ونقدم هذه الذبيحة » (فى الاسرار ٥ : ١) .

الفصل الثامن

وجوب تناول السر تحت الشكلين

ان الرب يسوع له المجد قد سلم جسده ودمه الأقدسين لتلاميذه الأطهار تحت شكلى الخبز والخمر، فقد أخذ الخبز وشكر وأعطاهم قائلا : « خذوا كلوا هذا هو جسدى الخ » وكذلك أخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا : « اشربوا منها كلكم » وقد سبق له المجد وقال « الحق الحق اقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم . من يأكل جسدى و يشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الاخير» (يو ٦ : ٥٣ و٥٤) وكذلك قال بولس الرسول « لأنى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم . اصنعوا هذا لذكرى . كذلك الكأس أيضا بعد ما تعشوا قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى . اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى . فانكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب الى أن يجىء» (١ كو ١١ : ٢٣ — ٢٦) وعلى ذلك سارت الكنيسة المسيحية منذ نشأتها بأن يتناول المؤمنون هذا السر تحت الشكلين الخبز والخمر، و يشهد بذلك سفر أعمال الرسل حيث يقول « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات » (أع ٢ : ٤٢ — ٤٦) راجع أيضا (١ كو ١٠ : ١٧ ، ١١ : ٢٠) .

ولكن كنيسة رومية خالفت هذا التعليم فمنعت الشعب من تناول كأس الرب الخلاصية ، اذ أنها تناولهم الجسد فقط دون الدم . والبراهين الآتية تبين فساد ذلك التعليم :

أولا : كلام المخلص له المجد حين وعده بسر الشكر فقد قال بصريح العبارة « الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم . من يأكل جسدى و يشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمة فى اليوم الأخير» (يو ٦ : ٥٣ و٥٤) .

ثانيا : كلام المخلص لتلاميذه حين تأسيس هذا السر الأقدس فقد قال لهم « خذوا كلوا هذا هو جسدى » وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا : « اشربوا منها كلكم » فان قالوا ان هذا الكلام موجه للرسل ، نرد عليهم بأنه قال أيضا « خذوا كلوا هذا هو جسدى » وقوله موجه للرسل

أيضا لأنهم هم وحدهم الذين تسلموه ، فيلزم على هذا القياس الباطل حرمان الشعب من الجسد أيضا ، لأن الكلام فى كلا الامرين موجه لأشخاص الرسل الاطهار.

ثالثا : قول بولس الرسول الذى يخاطب به أهل كورنثوس « احكموا أنتم فى ما أقول . كأس البركة التى نباركها أليست هى شركة دم المسيح . الخبز الذى نكسره أليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠ : ١٥ و١٦) وقوله أيضا « اذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز و يشرب من الكأس » (١ كو ١١ : ٢٧ و٢٨) فهل يوجد أوضح وأصرح من هذه الأقوال .

رابعا : ان الكنيسة المقدسة هكذا سارت منه نشأتها . واليك شهادة القديس يوستينوس الذى يقول فى احتجاجاته (١ : ٨٥) « و بعد أن يتمم الخادم الشكر و يقول الشعب « آمين » يناول الشمامسة جميع الحاضرين من الخبز والخمر والماء ، ويحفظون جزءا من التقدمة للغائبين » وشهادة القديس كبريانوس الذى يقول فى (رسالة ٥٤) « اننا نحثهم ونحرضهم على الجهاد ولا نتركهم بلا سلاح ، بل نحصنهم بالسلاح الكامل وهو جسد ودم المسيح ، لأننا كيف نعلم أن ندعو الى الاعتراف باسمه أن يهرقوا دمهم اذا كنا لا نمنح دم المسيح للمجاهدين عنه ؟ » وهكذا يقول كيرلس فى (الأسرار ٤ : ٣ و٦) والقديس يوحنا ذهبى الفم فى (مقالة ٨٢ على تفسير متى) والقديس أمبروسيوس فى (الأسرار ٨ : ٥٨) والقديس ايريناوس (ضد الهراطقة ٤ : ١٨ : ٥ ، ٥ : ٢) وترتليانوس فى (قيامة الأموات فصل ٨) .

خامسا : يشهد بهذه الحقيقة بعض البابوات ، فمنهم البابا لاون الكبير فى القرن الخامس الذى قال فى احدى عظاته فى الصوم الكبير « انهم يتناولون بأفواه غير مستحقه جسد المسيح ، لكنهم يبتعدون كل البعد عن دم افتدائنا فنذكر ذلك على علم من قدسكم ، لكى يصير هؤلاء معروفين عندنا و يكشف ر ياؤهم الثالم الالهيات ويمنعوا عن الاشتراك بالقدسات » ، والبابا جلاسيوس فى القرن الخامس الذى كتب هكذا « قد اتضح لنا أن بعضا من المسيحيين يتناولون جسد المسيح الالهى ، لكنهم يبتعدون عن كأس الدم الالهى . ولا نعلم لأى سبب يعملون هذا . فنأمر اذن أنه يجب على الجميع أن يشتركوا بالسر المقدس كاملا والا فليكن أمثال أولئك غير مقبولين فيه . لأن قسمة السر الواحد غير ممكنة من دون حصول أهانة عظيمة للموضوعات المقدسة والأشياء الشريفة » وكثير من المؤلفين الرومانيين يؤكدون ان الكنيسة الغربية كانت فى القرون الاثنى عشر الأولى تمنح سر الشركة لجميع المسيحيين تحت الشكلين مثل كنائس الشرق . (راجع المجمع التريدنتينى جلسة ٢١ فى الشكر قسم ١ فصل ٣ قضية ٢٥ قانون ٢ و بيرون فى مقدمات اللاهوت) ، وقال الكاردينال بارونيوس المؤرخ « أن غريغوريوس بابا رومية قال ان

المسافرين يحملون معهم جسد المسيح ودمه » (تاريخه خطاب ٣ فصل ٣١) و يشهد الكاردينال بونا نفس هذه الشهادة في النساك فى (الخدم ٢ : ١٨ : ١١) و يذكر مثال مريم البارة المصرية التى كانت تشترك من يدى القديس زوسيما بجسد المسيح ودمه (راجع السنكسار) .

الفصل التاسع

مناولة الأطفال من هذا السر

ان الكنيسة المقدسة الرسولية منذ نشأتها اعتادت حسب التعليم الرسولى أنها كما تعمد الاطفال على ايمان والديهم أو أشابينهم ، وهكذا تمنحهم سر جسد الرب ودمه الأقدس ، قوتا روحيا لهم لنيل الحياة الأبدية حسب وصية الرب ، ولكن كنيسة رومية كما حرمت الاطفال من سر الميرون المقدس هكذا ابتدأت منذ القرن الثانى عشر أن تحرمهم من سر الشركة المقدس ، بدعوى أنهم لا يفهمون ، على أن ذلك باطل لأنهم لا يفهمون معنى سر المعمودية الذى يمنحونه . وما قلناه سابقا فى سر الميرون ذلك كاف لادحاض هذا الزعم هنا أيضا ، لا سيما وأن المخلص يقول بصريح العبارة « دعوا الاولاد يأتون الى ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » فأى ذنب وأية جريمة اقترفها هؤلاء الاطفال حتى يحرموا من بركات هذا السر الاقدس . قال القديس أوغسطينوس « وحقا من يتجاسر و يقول أن هذا الرأى لا يخص الاطفال وأنهم يستطيعون أن تكون لهم حياة فيهم من دون مشاركة فى الجسد والدم » (الساقطين ١ : ٢٠) وقال البابا اينوشنسيوس الاول « أمر خارج عن الواجب أن يكرم الاطفال بقرابين الحياة الابدية قبل أن ينالوا نعمة المعمودية . لأنهم أن لم يمضغوا دمه (١) لا تكون لهم حياة فيهم » (رسالة ٤٣) وهاك القانون الذى سنته كنيسة رومية فى القرن التاسع « ينبغى أن يعتنى بالاطفال حتى لا يذوقوا غذاء ما أو يرضعوا بعد المعمودية قبل أن يشتركوا بسر جسد المسيح الا عند الضرورة الاخيرة راجع (أوامر الرسل كتاب ٨ فصل ٢١) وديوناسيوس الاريوباغى فى (رئاسة الكهنوت ٧ : ١١) وكبريانوس فى (الساقطين وشهادات ضد اليهود ٣ : ٢٥) .

---

(١) « يمضغوا » هنا منسوبة الى البابا اينوشنسيوس الاول ، وأمانة للنقل اضطرت المؤلف الى وضعها كما هى . ولكن كلمة (دمه) بعدها أكدت أن الكلمة (يمضغوا) يحتمل أن يكون أصلها (يرضعوا) لتقارب الكلمتين شكلا كما تتقارب فى الشكل مع كلمة (يمصوا) . والمص واللواك للطفل يشابه المضغ و بالاجمال فالفكرة فى مناولة الطفل دم السيد المسيح معروفة .

الفصل العاشر

الأثمار الخلاصية التى ننالها بواسطة سر الشكر

ان الذين يتناولون هذا السر الاقدس باستحقاق ينالون أثمارا خلاصية أهمها :

أولا : الثبات والاتحاد مع المسيح له المجد ، وذلك بناء على وعده الصادق القائل « من يأكل جسدى و يشرب دمي يثبت في وأنا فيه » (يو ٦ : ٥٦) فبتناولنا من هذا السر نكون — كما يقول آباء الكنيسة — أعضاء جسده ومشاركى طبيعته الالهية .

ثانيا : النمو فى النعمة والكمال الروحى والحياة فى الرب يسوع لأنه له المجد يقول « جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق .. كما أرسلنى الآب الحى وأنا حى بالآب فمن يأكلنى فهو يحيا بى . هذا هو الخبز الذى نزل من السماء . ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا . من يأكل هذا الخبز فانه يحيا الى الأبد» (يو ٦ : ٥٥ — ٥٨) .

فاذا كان القوت العادى يغذى الجسم و يقويه و يعيد اليه قواه ويمنحه دقائق حيوية جديدة ، فكم بالحرى هذا القوت الروحى يمنحنا الصحة والغذاء لأرواحنا و يوحدنا بالمسيح و يشفى ضعفنا و ينقى نفوسنا من الخطايا .

ثالثا : يمنحنا عربون الحياة والقيامة المجيدة كما قال له المجد « من يأكل جسدى و يشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الاخير .. من يأكل هذا الخبز فانه يحيا الى الأبد» (يو ٦ : ٥٤ — ٥٨) .

وقد قال عنه الآباء القديسون انه دواء لعدم الموت وحرز ضده ، وتثبيت للحياة الابدية بيسوع المسيح ، وان الاشتراك فى سر الشركة هو الاشتراك فى الحياة الابدية .

الفصل الحادى عشر

وجوب استعمال الخبز والخمير، وادحاض بدعة الفطير

ان الكنيسة الارثوذكسية قد تسلمت من السيد المسيح والسادة الرسل الاطهار أن تتمم سر الشكر بخبز خمير، تابعة فى ذلك تعليم الانجيل وما جرى عليه الرسل وآباء الكنيسة . ولكن كنيسة رومية ابتدعت منذ الجيل الحادى عشر بدعة جديدة وهى تقديس هذا السر بالفطير. ولما رأت أن كثيرين من أتباعها الشرقيين لم يقبلوا هذا التعليم ، فلئلا ينشقوا عن كنيستهم ، سمحت لهم باتمام السر بالخبز الخمير، مدعية أنه لا يجوز تقديس هذا السر بالنوعين سواء من الخمير أو الفطير، ولكنها لا تتممه الا بالفطير.

وأول ما ابتدع هذه البدعة هو **أبوليناريوس** الملحد الذى جدف قائلا عن المسيح له المجد أنه لما تجسد أخذ من البتول القديسة مريم والدته جسدا بلا نفس ولا عقل ، زاعما زعما فاسدا أن لاهوت المسيح أغنى عن هذين الاثنين (النفس والعقل) و بناء على بدعته هذه بدأ يقدس سر الشكر بالفطير خاليا من الملح والخمير. مشيرا بذلك الى أن المسيح عادم النفس والعقل البشريين ، وقد قطع أبوليناريوس هذا من الكنيسة واعتبر هرطوقيا ، وأنكرت الكنيسة استعمال الفطير فى هذا السر المقدس .

ولدحض هذا التعليم نذكر بالاختصار سنة الفطير عند اليهود وزمن تعييدهم الفصح وسبب ذلك . فنقول أنه لما أراد الله أن يخرج بنى اسرائيل من أرض مصر وشرع يضرب المصريين الضربة الاخيرة ، التى هى اماتة الابكار من الناس والبهائم . أمر بنى اسرائيل أن تأخذ كل عائلة منهم حملا وذلك فى اليوم العاشر من شهر نيسان ، الذى جعل رأسا لسنتهم . وأن يذبحوه فى اليوم الرابع عشر و يأخذوا من دمه ويجعلوه على قائمتى الباب وعتبته العليا . و يأكلوا لحمه فى تلك الليلة التى هى الخامس عشر من الشهر مشويا بالنار مع فطير على أعشاب مرة . و يأكلونه وأحقاؤهم مشدودة وأحذيتهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم و يأكلونه بعجلة . هو فصح للرب ، فان الرب يجتاز فى تلك الليلة و يضرب كل بكر فى أرض مصر، و يرى الرب الدم علامة على بيوت الاسرائيليين فلا يكون عليهم ضربة للهلاك . و يكون ذلك فريضة دهرية لهم يخلون منازلهم سبعة أيام من الخمير و يأكلون عوضه فطيرا (راجع خر ١٢ و١٣ ، لا ٢٣ ، عدد ٩ و٢٨ ، تث ١٦) .

و بناء على ذلك تعلم كنيستنا أن المسيح له المجد صنع العشاء الربانى قبل أن يأتى عيد الفصح بيوم كامل . أى مساء الخميس ١٣ نيسان الذى هو بدء الجمعة ١٤ منه . لأن اليوم يبتدىء من مساء اليوم الذى قبله . فبدء الجمعة هو مساء الخميس . و بدء السبت الذى كان واقعا وقتئذ ١٥ نيسان أى اليوم الاول من عيد الفطر هو مساء الجمعة ، وعليه يكون السيد له المجد تمم هذا السر بخبز خمير قبل أن يبدأ استعمال الفطير . وأما الكنيسة البابا وية فتزعم أن الخميس الذى صنع المسيح فى مسائه العشاء السرى كان واقعا وقتئذ ١٤ نيسان لا ١٣ منه كما تعلم كنيستنا ، فيكون اليوم الاول من عيد الفطر وقتئذ الجمعة و بدؤه مساء الخميس . وسنورد فيما يأتى البينات الكتابية القاطعة لا ثبات صحة تعليم الكنيسة الارثوذكسية :

أولا : قال القديس يوحنا الانجيلى « أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم الى الآب اذ كان قد أحب خاصته الذين فى العالم أحبهم الى المنتهى . فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان فى قلب يهوذا سمعان الاسخر يوطى أن يسلمه ... قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزربها . ثم صب ماء فى مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التى كان متزرا بها ... وقال الحق الحق أقول لكم أن واحدا منكم سيسلمنى ... أجاب يسوع هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه . فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الاسخر يوطى فبعد اللقمة دخله الشيطان » (يو ١٢ : ١ ــ ٢٧) .

فهنا يصرح يوحنا الانجيلى أن العشاء الربانى الذى عقبه غسل أرجل التلاميذ وتسليم يهوذا ، قد صنعه الرب يسوع قبل عيد الفصح لا فيه أو بعده .

ثانيا : قال القديس يوحنا الانجيلى « ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع الى بيت عنيا حيث كان لعازر الميت الذى أقامة من الاموات . فصنعوا له هناك عشاء ... وفى الغد سمع الجمع الكثير الذى جاء الى العيد أن يسوع آت الى أورشليم فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه » (يو ١٢ : ١ ــ ١٣) فهذا العشاء الذى صنعه يسوع كان قبل الفصح بستة أيام . أى كان مساء ليلة الاحد الذى دخل فيه الرب الى أورشليم راكبا الاتان . وهذا يؤيده تفاسير البابا و يين . قال نيافة المطران يوسف الدبس مطران الموارنة فى كتابه « تحفة الجيل فى تفسير الاناجيل » الذى ترجمه عن اللاتينية من تفاسير كرنيليوس الحجرى و يوحنا ملدوناتوس و يعقوب تيرينى اليسوعيين فى صفحة ٣١٤ عند تفسير العدد ٦ من ص ٢٦ من تفسير متى « وفيما كان يسوع فى بيت عنيا : ان هذا الامر كان حدوثه قبل هذا الوقت (١) فى اليوم السادس مساء

---

(١) قبل هذا الوقت : أى الوقت الذى تم فيه الفصح ، فقد وقع الفصح بعد دخول السيد بيت عنيا بستة أيام .

الاحد الذى دخل فيه الى أورشليم راكبا الآتان ، وذكره متى هنا تمهيدا لذكر خيانة يهوذا ، وذلك يظهر من بشارة يوحنا (١٢ : ١) حيث روى أن يسوع أتى الى بيت عنيا قبل الفصح بستة أيام فصنعوا له هناك عشاء » واذا تقرر أن قبل الفصح بستة أيام كان السبت مساء الاحد . فهل يكون عيد الفصح عند اليهود الخميس مساء الجمعة كما تدعى الكنيسة البابا وية أم الجمعة مساء السبت كما تعلم الكنيسة الارثوذكسية ؟

ثالثا: جاء ايضا فى (يو ١٨ : ٢٨) « ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا الى دار الولاية . وكان صبح . ولم يدخلوا هم الى دار الولاية لئلا يتنجسوا فيأكلون الفصح » والظاهر من هذه العبارة أن اليهود لم يدخلوا دار الولاية صباح الجمعة لئلا يتنجسوا لأن الذى يأكل الفصح يجب أن يكون طاهرا . واذا تنجس امتنع عن أكل الفصح كما جاء فى سفر العدد (٨ : ٦ ــ ١١) وهذا يدل على أن فصح اليهود لم يكن قد بدأ فى يوم الجمعة صباحا ولم يكونوا أكلوه بل كانوا مستعدين لأكله يوم الجمعة مساء . وهذا أمر لا يحتمل تأويلا .

رابعا: قال القديس متى الانجيلى (٢٧ : ٦٢ ــ ٦٤) « وفى الغد الذى بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون الى بيلاطس . قائلين .. فمر بضبط القبر الى اليوم الثالث الخ « وقال مار مرقس الانجيلى (١٥ : ٤٢ و٤٣) « ولما كان المساء اذ كان الاستعداد . أى ما قبل السبت جاء يوسف وطلب جسد يسوع » وقال لوقا الانجيلى فى (٢٣ : ٥٤) « وكان يوم الاستعداد والسبت يلوح » وقال يوحنا الانجيلى فى (١٩ : ٤٢) «فهناك (أى فى القبر) وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريبا » يتضح من أقوال الانجيليين الاربعة أن يوم الجمعة الذى صلب فيه المسيح كان يوم استعداد للفصح لا يوم الفصح . وعليه تسقط دعوى الكنيسة البابا وية بأن ذلك الجمعة كان ١٥ نيسان أى بدء عيد الفطير ــ واذا اعترض البابا ويون بأن ذلك الاستعداد كان للسبت لا للفصح فندفع اعتراضهم بقول يوحنا الانجيلى « فلما سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع وجلس على كرسى الولاية .. وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة » (يو ١٩ : ١٣ و١٤) فيوحنا الانجيلى يصرح بأن ذلك الاستعداد كان للفصح لا للسبت . وأما قول مرقس « ما قبل السبت » ولوقا « وأخذ السبت يلوح » فلا يفهم منه أن الاستعداد كان للسبت بل أن ذلك كان واقعا فيه الفصح ، ولو كان الفصح واقعا يوم الخميس مثلا لقالا « ما قبل الخميس » « وأخذ الخميس يلوح » ولا يكون المعنى حينئذ أن الاستعداد للخميس بل أن الفصح متفق وقوعه يوم الخميس .

خامسا: جاء فى (مت ٢٧ : ٢ ــ ٧) « حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ .. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحل أن نلقيها فى الخزانة لأنها ثمن دم ، فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخارى مقبرة للغرباء »

وورد فى مرقس (١٥ : ٤٦) ولوقا (٢٣ : ٥٣) « فاشترى يوسف كتانا فأنزله وكفنه بالكتان ووضعه فى قبر » وورد أيضا فى (مر ١٥ : ٢١ ، لو ٢٣ : ٢٦) « فسخروا رجلا مجتازا كان آتيا من الحقل وهو سمعان القيروانى أبو الكسندرس وروفس ليحمل صليبه » فمن قول متى أن رؤساء الكهنة اشتروا يوم الجمعة حقل الفخارى نتأكد أن يوم الجمعة لم يكن قد دخل الفصح لأنه لو كان دخل فكيف جاز لهم أن يشتروا فيه ، والناموس ينهى عن ذلك فى اليوم الاول من العيد . كذلك من قول مرقس أن يوسف الذى كان من كبار اليهود اشترى كتانا يوم الجمعة نتأكد أن يوم الجمعة لم يكن قد دخل الفصح ، وكذلك أيضا نتأكد من قول مرقس ولوقا أن سمعان القيروانى كان آتيا من الحقل يوم الجمعة ، أن ذلك اليوم لم يكن يوم عيد الفصح .

سادسا : قال يوحنا الانجيلى « ثم اذ كان استعداد فلكى لا تبقى الاجساد على الصليب فى السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيما سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم و يرفعوا » (يو ١٩ : ٣١) ففى هذه الآية نرى :

١ ــ أن يوم ذلك السبت كان عظيما بسبب وقوع الفصح فيه .
٢ ــ أن عصر الجمعة حين موت المسيح على الصليب كان استعداد الفصح لا يوم الفصح .
٣ ــ ان اليهود فى عصر ذلك اليوم سألوا بيلاطس أن تكسر سيقان المصلوبين لموتهم ودفنهم قبل السبت لئلا تبقى الاجساد على الصليب فى ذلك السبت الواقع فيه الفصح ، لأن دفنها فيه محرم و بقاؤها يذهب ببهاء العيد . فلو كان الفصح وقتئذ الجمعة لما كانوا يلحون على بيلاطس فى طلبهم .

سابعا : قال الانجيليون متى ومرقس ولوقا بأن الوالى كان يطلق لليهود فى العيد أسيرا من أرادوه وأنه أطلق لهم باراباس وأسلم اليهم يسوع بعد ما جلده (مت ٢٧ : ١٥ ــ ٢٦ ، مر ١٥ : ٦ و١٥ ، لو ٢٣ : ١٧) فمن اطلاق بيلاطس الوالى باراباس اللص يوم الجمعة حينما حوكم المسيح وأسلم للصلب ، يتبين أن الفصح لم يكن قد حل ، لأن العادة كانت أن يطلق الأسير قبل دخول الفصح ليعيده مع أهله ، لا بعد مضيه .

ثامنا : قال يوحنا الانجيلى عن يهوذا الاسخر يوطى « فبعد اللقمة دخله الشيطان . فقال له يسوع ما أنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة . وأما هذا فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به لأن قوما اذ كان الصندوق مع يهوذا ظنوا أن يسوع قال له اشتر ما نحتاج اليه للعيد » (يو ١٣ : ٢٧ ــ ٢٩) فالخميس مساء بدء الجمعة حينما صنع الرب يسوع العشاء السرى متكئا مع تلاميذه ، غمس لقمة وناولها ليهوذا ، وجرى ما جرى ، ومن هنا يتبين أن العيد لم يكن قد دخل لأن الاستعداد والشراء يكونان قبل حلوله لا بعده .

تاسعا : جاء في انجيل متى ومرقس « حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب الى دار رئيس الكهنة الذى يدعى قيافا . وتشاوروا لكى يمسكوا يسوع بمكر و يقتلوه ولكنهم قالوا ليس فى العيد لئلا يكون شغب فى الشعب » (متى ٢٦ : ٣ ــ ٥ ، مر ١٤ : ١ و٢) فمن قول البشيرين يتبين أن المسيح حوكم وصلب فى غير يوم العيد . لأن رؤساء الكهنة صمموا على ذلك لئلا يقع شغب فى الشعب الذى كان يجتمع من كل ناحية .

عاشرا : ان يوم الخميس المدعو عند اليهود عيد الاسابيع وقع فى تلك السنة التى صلب فيها المخلص يوم الاحد وفيه حل الروح القدس على الرسل وهذا اليوم هو أحد الخمسين من قيامته كما جاء فى سفر الاعمال (٢ : ١ ــ ١٣) ومن المعلوم عند دارسى الكتاب أن عيد الخمسين يقع بعد الفصح بسبعة أسابيع ، ولهذا يسمى عيد الاسابيع كما جاء فى سفر الخروج « وتصنع لنفسك عيد الاسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيد الجمع فى آخر السنة » (خر ٣٤ : ٢٢) وفى سفر اللاويين « ثم تحسبون لكم من غد السبت من يوم أتيناكم بحزمة الترديد سبعة أسابيع تكون كاملة . الى غد السبت السابع تحسبون خميسن يوما . ثم تقربون تقدمة جديدة للرب » (لا ٢٣ : ١٥ ،١٦) ومتى تقرر أن عيد الخمسين وقع فى تلك السنة فى يوم الاحد كما جاء فى سفر الاعمال وان هذا العيد يقع بعد الفصح بسبعة أسابيع . فهل يكون الفصح يوم الجمعة كما يقول البابا ويون أم السبت كما تقول الكنيسة الارثوذكسية ؟

حادى عشر : جاء فى (مت ٢٦ : ٢٦ ، مر ١٤ : ٢٢ ، لو ٢٢ : ١٩) أن الرب يسوع أخذ خبزا و بارك وكسر . وقال الرسول بولس « ان الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى » (١ كو ١١ : ٢٣) وكلمة خبز فى اليونانية « آرطوس » أى مرتفع تطلق على الخمير لا الفطير . ولسائل يسأل أين وجد الخبز المختمر وقتئذ ؟ فنجيب أنه وجد فى البيت الذى صنع فيه الرب العشاء . لأن اليهود الى ذلك الحين كانوا يأكلون الخبز المختمر . واذا سألنا نحن المعترض من أين وجد الفطير قبل حلول العيد ؟ فانه يصعب عليه الجواب . ولكن مرقس الانجيلى يرفع كل شبهه بقوله « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزا » (مر ١٤ : ٢٢) كذلك الرسل لم يستعملوا سوى الخبز والخمير الاعتيادى كما ورد فى سفر الاعمال (راجع أع ٢ : ٤٢ و٤٦ ، ٢٠ : ٧ ، ١ كو ١٠ : ١٦ و١٧ ، ١١ : ٢٣) .

ثانى عشر : ان سر الافخارستيا لم يتمم منذ الازمنة الرسولية الا بخبز خمير للأسباب الآتية :

١ ــ لأن الخبز الذى كان يستعمل فى السر كان يجمع من تقدمات الشعب أى من بيوت

المؤمنين وكانوا يقدمونه خبزا اعتياديا يصلح لموائد المحبة التى كانوا يعملونها ولاعانة الفقراء .

٢ ــ لم يسمه أحد من الآباء الاقدمين فطيرا بل يسمونه خبزا اعتياديا وأحيانا خبزا مختمرا .

٣ ــ ان القديس أبيفانيوس رئيس أساقفة قبرص عند تكلمه عن الهراطقة قال عن هرطقة الابيونيين « أنهم كانوا يتمسكون بالشريعة الموسوية وانهم كانوا يتممون سر الافخارستيا بفطير وماء فقط » (هرطقة ٣٠ : ١٦) ، موضحا أن ذلك مخالف لعادة الكنيسة .

٤ ــ ان كثيرين من المؤلفين الغربيين من الكاثوليك والبرتستانت يعترفون فى مؤلفاتهم ويبرهنون على أن الفطير لم يكن مستعملا فى الكنيسة الغربية الى القرن الحادى عشر : منهم (سيرموند فى تأليفه فى الفطير سنة ١٦٥١ وكوتيلاريوس فى مؤلفه فى الكنيسة اليونانية (صفحة ١٠٨) وباكيوس فى حواشيه على تاريخ بارون (٣١٣ : ١٥) وبينكام فى الكنيسة القديمة (١٥ : ٢) وتاريخ الكنيسة لكلاين (جزء ٤ صفحة ٤٣٠) . قال البابا اينوشنسيوس « ان القسوس يأخذون خبزا مختمرا لكى يشهروا ذواتهم (١) منفصلين عن ذلك الاله العلى » (رسالة ٢٥ : ٤ : ٨) وقال ملتيادس فى ترجمته « هكذا قد صنع أن تقدم قرابين للكنيسة .. القرابين التى نسميها « مختمرا » . وقال بيرون فى كتابه مقدمة اللاهوت فى شرح سر الافخارستيا (قسم ٢ فصل ٣ قضية ١) « ان الخمير والفطير يصلحان على السواء لا تمام سر الشكر الالهى » ولكنهم فى التقديس لا يستعملون غير الفطير وحده .

(١) لكى يشهروا ذواتهم منفصلين .. الخ يقصد أن بعض قسوسهم كانوا يقدمون الخبز بدل الفطير فى سر الشكر ، وبهذا يعلنون انفصالهم حسب رأيه عن الله لأنه كان يقدم الفطير .

الفصل الثانى عشر

ادحاض الاعتراضات فى هذا الشأن

أما دعاوى الكنيسة الباباو ية التى تقدمها وتزعم بناء عليها أن يوم ذلك الجمعة الذى صلب فيه المسيح كان ١٥ نيسان أول العيد . وأن المسيح له المجد قدس سر جسده ودمه الاقدسين على الفطير، فنوردها هنا مع الرد عليها :

أولا : جاء فى انجيل متى « وفى أول أيام الفطير تقدم التلاميذ الى يسوع قائلين له : أين تر يد أن نعد لك لتأكل الفصح . فقال اذهبوا الى المدينة الى فلان . وقولوا له المعلم يقول أن وقتى قريب . عندك اصنع الفصح مع تلاميذى . ففعل التلاميذ كما أمرهم يسوع وأعدوا الفصح » (مت ٢٦ : ١٧ — ١٩) وفى انجيل مرقس « وفى اليوم الاول من الفطير حين كانوا يذبحون الفصح قال له تلاميذه . أين تر يد أن نمضى ونعد لتأكل الفصح الخ » (مر ١٤ : ١٢) وفى انجيل لوقا « وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح . فأرسل بطرس و يوحنا قائلا اذهبا وأعدا لنا الفصح لنأكل » (لو ٢٢ : ٧ و٨) و يستندون على قول متى ومرقس « وفى أول أيام الفطير» وقول لوقا « وجاء يوم الفطير» .

فنرد على ذلك بأنه لا توجد مناقضة بين انجيل وآخر. ولا بين آية وغيرها ، ولا يمكن أن يخالف انجيلى نفسه أوغيره . وهذا أمر مسلم به عند جميع المسيحيين . وقد أثبتنا فيما سبق أن الانجيليين الثلاثة متى ومرقس ولوقا يصرحون أن يوم الجمعة كان استعداد الفصح لا يوم الفصح . وأن اليهود فى ذلك اليوم كانوا يشترون و يعملون يوم الجمعة أعمالا لا تجوز مطلقا فى اليوم الاول من العيد ، مثل شراء حقل الفخارى ، وشراء يوسف كتانا ، وذهاب سمعان القيروانى الى الحقل ، وتسخيره حمل الصليب . وان ظهر الجمعة أطلق باراباس اللص قبل أن يدخل العيد وغير ذلك . فمن المستحيل أن يناقض الانجيليون أنفسهم ، ومن المستحيل أيضا أن يناقضوا أخاهم يوحنا الانجيلى الذى يصرح ان قبل الفصح صنع يسوع العشاء السرى . وأن اليهود صباح الجمعة لم يكونوا أكلوا الفصح ، بل كانوا مستعدين لأكله ، وأن يوم ذلك السبت كان عظيما لوقوع اليوم الاول من الفطير فيه .. الخ . فاذن لابد أن نبسط الغرض والمعنى فى قول الانجيليين ونوضحه بأجلى بيان .

أما قول لوقا « وجاء يوم الفطير » فهو بمعنى « قرب » لأن الأمور المقرر وقوعها في وقت معين يقال عنها جاءت أو بلغت اذا كان هذا الوقت قريبا جدا . ففي يوم الجمعة العظيمة أو يوم السبت عندنا نحن المسيحيين يصح أن يقال « جاء عيد الفصح » أى صار قريبا جدا لا أنه جاء حقيقة ، وهكذا قصد لوقا كما يتضح من نفس قوله « واعدا لنا الفصح لنأكله » لأن الاستعداد يكون قبل دخول العيد لا بعده ، وهذا ما قاله القديس يوحنا ذهبى الفم فى شرحه كلام لوقا « وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح يعنى أنه كان قريبا على الابواب لا أنه أتى » (تفسير متى ٢٦ : ١٧) .

أما كلام الانجيلى متى فى اليونانى فهو (تى بروتى تون أزيمون) وتعريبه « وفى أول الفطير » وقول مرقس (كى تى أيميراتون أزيمون) وتعريبه « وفى أول يوم الفطير » فلفظة « بروتى » التى تعريبها « أول » تأتى أحيانا فى اللغة اليونانية بمعنى « قبل » ، وقد وردت مرارا فى شعر هوميروس أعظم شعراء اليونان بمعنى « قبل » . واليانوس أحد كتبة اليونان المشاهير استعملها بمعنى « قبل » فى قوله « أى بروتى موتافتا انيخنيفساندس نى » وتعريبه « الذين قبلى بحثوا هذه الأبحاث » فضلا عن أن القديس يوحنا الانجيلى نفسه أوردها فى الاصحاح الاول من بشارته بمعنى « قبل » حيث يقول « أوتى بروتوس مواين » اى « الذى يأتى بعدى أنه كان قبلى » (يو ١ : ١٥) وفى لغتنا العربية تأتى « أول » أحيانا بمعنى قبل نحو « أول من أمس « أى قبل أمس . فقول متى ومرقس « وفى أول أيام الفطير » يقصد به « قبل الفطير » كما يتبين من قولهما أين تريد أن نعد لك لتأكل الفصح .

وقد شرح كثيرون من اللاهوتيين بأن الفصح الذى صنعه مخلصنا ليس هو الفصح اليهودى القديم ، بل هو الفصح الجديد الذى أشار اليه المخلص بقوله « هذا هو دمى الذى للعهد الجديد » (مت ٢٦ : ٢٨) و بقوله « شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم » (لو ٢٢ : ١٥) فالفصح الناموسى اليهودى ما كان يشتهيه ، لأنه كان قد أكله معهم مرات ، بل الفصح الجديد ، أى أنه اشتهى أن يسلمهم فصحا جديدا بعهد جديد . ومن المعلوم أن مخلصنا وتلاميذه كانوا متكئين فى هذا الفصح ، وكانوا يشربون خمرا و يغمسون أيديهم فى الصفحة وما أشبه . فلو كان الفصح اليهودى لما جاز لهم ذلك ، لأنه يجب أن يأكله اليهود وقوفا بحمل مجرد مع أعشاب مرة فلا يتكئون ولا يشربون معه خمرا أو غيره . فضلا عن أن الفصح الاسرائيلى ابتدأ فى ذلك الوقت مساء الجمعة بدء السبت ، والمسيح صنع فصحه مساء الخميس بدء الجمعة . والقديس يوحنا ذهبى الفم فى شرحه الاصحاح ٢٦ من بشارة متى ظن أن فى مساء الخميس بدء الجمعة حينما صنع المسيح العشاء كان قد دخل الفصح اليهودى . ولكنه عندما شرح انجيل يوحنا غير رأيه

بعد أن تحقق وقال فى شرح الاصحاح الثامن عشر منه ما نصه « ان المسيح صنع الفصح قبل بيوم حافظا ذبيحة الى الجمعة عندما صار الفصح قديما أيضا » (١) .

ثانيا : يزعم البابا و يون ان حمل الفصح الاسرائيلى الذى خلص الاسرائيليين قديما كان رمزا الى المسيح حمل الله الرافع خطايا العالم . فمن الضرورى أن يذبح المسيح يوم ذبح الحمل الفصحى الاسرائيلى ، وبما أن المسيح صلب يوم الجمعة فيكون عيد الفطير يوم الجمعة لا يوم السبت .

ونرد على ذلك بأن هذه الدعوى عليهم لا لهم ، لأن حمل الفصح يجب أن يذبح مساء اليوم الرابع عشر بدء اليوم الخامس عشر ، و يؤكل تلك الليلة ولا يبقى منه شىء الى الصباح . فلو كان عيد الفطير يوم الجمعة حين صلب المسيح لكان ذبح الحمل الفصحى مساء الخميس . والمسيح ذبح الساعة التاسعة من يوم الجمعة ، و بين مساء الخميس وعصر يوم الجمعة احدى وعشرون ساعة ، وعلى ذلك يكون العيد يوم السبت ليذبح الحمل الفصحى الاسرائيلى مساء الجمعة ، أى وقت ذبح المسيح أو بعده بساعتين ، وحينئذ يقال أن المسيح والحمل تقدما فى وقت واحد ، فاذن تلك الدعوى ساقطة .

ثالثا : يزعمون أن المسيح له المجد لما رافق التلميذين فى طر يقهما الى عمواس يوم قيامته فى عيد الفطير واتكأ معهما « اخذ خبزا و بارك وكسر وناولهما » (لو ٢٤ : ١٣ ـــ ٤٥) وعلى ذلك يكون الرب يسوع صنع سر الشكر بفطير . فندحض هذا الزعم بأن ما عمله مخلصنا فى عمواس لم يكن سر الافخارستيا :

١ ـــ لأن الرب عمل هذا السر مرة واحدة وسلمه لتلاميذه قائلا « اصنعوا هذا لذكرى » وهو غير محتاج أن يذكر نفسه للتلميذين فى طر يق عمواس . وجميع الآباء القديسين متفقون على أن المسيح له المجد صنع عشاءة السرى مرة واحدة يوم الخميس مساء

٢ ـــ ان المسيح أعطى هذين التلميذين خبزا فقط ولم يعطهما خمرا ، ومن المعلوم ان هذا السر لا يتم الا تحت الشكلين الخبز والخمر .

٣ ـــ ان المسيح لما ناولهما الخبز لم يقل لهما هذا هو جسدى كما سماه يوم الخميس ، ليعلم التلاميذ أن القصد من تلك البركة تقديسه وصيرورته جسدا . أما هنا فاكتفى بأن بارك وكسر وناولهما ، وقصد بهذه البركة أعجو بة تفتيح أعين التلميذين ليعرفاه ، أما كونه كسر و بارك

(١) قوله صنع الفصح أى الفصح الجديد بسر الشكر . وقوله (قبل بيوم) أى قبل فصح اليهود بيوم ثم قدم نفسه ذبيحة يوم الجمعة الذى فى مسائه أكل اليهود فصحهم .

فهكذا اعتاد المخلص ، لأنه أيضا بارك وكسر وأعطى الخمسة الأرغفة والسمكتين (مت ١٤ ، مر ٦ ، لو ٩) فهل قصد بهذه البركة وهذا الكسر سر الافخارستيا ؟ وهل يصح التقديس على السمك بدعوى أن المسيح باركه وكسره وأشبع منه ألوفا ؟ ثم أن ذلك الخبز كان من الشعير كما يشير اليه يوحنا (٦ : ٩) فهل يصح التقديس على خبز الشعير بدعوى أن المسيح باركه ؟ لقد اعتاد الآباء رؤساء الكهنة والكتبة أن يباركوا و يكسروا الخبز في البيوت عند الأرثوذكسيين وعند الباباو يين ، فهل هم بذلك يصنعون سر الافخارستيا ؟ لا شك أن هذا الزعم ساقط من أساسه .

رابعا : يدعون أن بولس الرسول أشار الى تقديس هذا السر بالفطير بقوله « اذن نقوا منكم الخميرة العتيقة ، لكى تكونوا عجينا جديدا كما أنتم فطير . لأن فصحنا أيضا المسيح قد ذبح لأجلنا » (١ كو ٥ : ٧) .

فندحض هذه الدعوى بأن الرسول بولس لم يتكلم هنا عن الخميرة الحسية ، أى أن الخبز المختمر ، بل عن الخميرة المعنوية ، أى الخبث والشر ، وفى الآية التى بعدها يقول « اذن لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخمير الشر والخبث بل بفطير الاخلاص والحق » مشيرا بذلك الى ما كتبه لهم قبل ذلك فى أول الاصحاح عن الزانى لكى ينزعوه من بينهم . وقال لهم فى العدد السادس « ان خميرة صغيرة تخمر العجين كله » ، واليك تفسير الكنيسة الكاثوليكية نفسها فى ذلك . قال الخورى يوسف العلم الكاهن اللبنانى فى كتابه (تيسير الوسائل فى تفسير الرسائل صفحة ١٦٢) عند تفسيره قول الرسول هذا « أى أبعدوا عنكم خميرة الانسان العتيق الفاسد ، أى كل خطية ورذيلة . واطردوا من بينكم الزانى المشار اليه ، لئلا يفسد غيره كما قال الذهبى ، لتكونوا أطهارا قديسين كما أنتم كذلك . لأنكم بالمعمودية تطهرتم من كل خطية . فيجب عليكم أن تكونوا هكذا دائما . وكما أن العجين الفطير يخلو من كل خمير ، كذلك أنتم يجب أن تتنظفوا من كل خطية » وقال القديس يوحنا ذهبى الفم فى عظته التى قصد أن يوضح بها شرف العهد الجديد على العهد القديم ما نصه « ان فى العهد القديم كان الكتاب ، ولكن هنا الروح . هناك التابوت ، وهنا البتول . هناك عصا هرون ، وهنا الصليب . هناك الحمل ، وهنا المسيح . هناك الفطير ، وهنا الخمير » وقال القديس أبيفانيوس رئيس أساقفة قبرص ، فى دحضه بدعة الأبيونيين ، الذين كانوا يتمسكون بالشريعة الموسوية و يقدمون الفطير فى سر الشكر « أنهم يتممون الاسرار اقتداء بالقديسين فى الكنيسة من الحول الى الحول بالفطير والجزء الآخر بالماء فقط ، أى أن هؤلاء الهراطقة كانوا يريدون الاقتداء بآباء الكنيسة القديسين فى تقديم سر الشكر الالهى ، ولكنهم يريدون ان يتبعوا الانظمة اليهودية فيقدمون بدل الخبز الخمير فطيرا و بدل الخمر ماء فقط . فاستعمال الفطير فى سر الشكر احياء لبدعة أبوليناريوس وأمثاله .

٤ ــ ســر التوبــة

الفصل الأول

تعريف سر التوبة وتأسيسه

سر التوبة هو سر مقدس به يرجع الخاطىء الى الله و يتصالح معه تعالى ، باعترافه بخطاياه أمام كاهن الله ليحصل على حل منه بالسلطان المعطى له من الرب يسوع .و به ينال تجديده وغفران خطاياه . وقد دعا العلامة ترتوليانوس هذا السر « حلا للخطايا » و« ميناء ثانية بعد الغرق » ودعاه القديس اير يناوس « اعترافا » ودعاه أغسطينوس « مصالحة » ودعاه مجمع قرطاجنة « معمودية ثانية » ، وقبل أن يؤسس الرب يسوع هذا السر وعد به مرتين : **الأول :** عندما اعترف به بطرس قائلا أنت هو المسيح ابن الله الحى . فقال له السيد « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تر بطه على الارض يكون مر بوطا فى السموات . وكل ما تحله على الارض يكون محلولا فى السموات » (مت ١٦ : ١٩) ، **والثانية :** عندما أعطى الكنيسة سلطان الحل والربط بقوله لتلاميذه « وان لم يسمع منهم فقل للكنيسة : وان لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار. الحق أقول لكم كل ما تر بطونه على الارض يكون مر بوطا فى السماء . وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا فى السماء (مت ١٨ : ١٧ و١٨) و بناء على هذه المواعيد أسس الرب هذا السر بعد قيامته عندما ظهر لتلاميذه وقال لهم « سلام لكم . كما أرسلنى الآب أرسلكم أنا . ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢١ ــ ٢٣) فيتضح من هذه النصوص الالهية أن الرب يسوع منح تلاميذه وخلفاءهم سلطانا أن يحلوا الخطايا و ير بطوها ، وأن يتركوها ويمسكوها بقوة روح الله القدس . وأن يعلنوا غفران الخطايا للبشر .

الفصل الثانى

استعمال هذا السر فى الكنيسة

قد نشأت الكنيسة منذ العصر الرسولي وهى تستعمل وتمارس هذا السر ، وقد حفظه وعلم به جميع آباء الكنيسة بكل تدقيق . فقد ورد فى قوانين الرسل هكذا أن كل أسقف أو قسيس لا يقبل من يرجع عن خطيته بل يطرده لأنه يحزن المسيح القائل يصير فى السماء فرح بخاطىء يتوب » (قانون ٥٢) وورد أيضا فى أوامر الرسل تذكير لمتقدمى الكنيسة بأنهم أؤتمنوا على سلطان الحل والربط ، وأشارة الى الوجوه التى بها يفحصون الخطاة و يرشدون التائبين ، وفى الوقت نفسه أوصت المؤمنين بأن « وقروهم (الآباء الروحيين) وأكرموهم وقدموا لهم جميع أنواع الكرامة ، لأنهم اخذوا من الله سلطان الحياة والموت بأن يحاكموا الخطاة ويحكموا بموت نار أبدى ، وأن يحلوا الراجعين عن خطاياهم » (راجع كتاب ٢ : ١١ و١٢ و١٥ و١٦ وفصل ٣٦ — ١٠ : ٤٨) وقد مارس الرسل أنفسهم هذا السلطان كما يتضح مما جاء فى سفر اعمال الرسل (١٩ : ١٨) « وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقر ين ومخبر ين بأفعالهم » .

وقد استعمل بولس الرسول هذا السلطان مع المختلط بالدم فى كورنثوس حيث حرمه وفرزه من الكنيسة ، ولما أثمر فيه العلاج عاد وحله من قصاصه وأعاده الى الكنيسة (راجع ٢ كو ٢ : ٥ — ١١) .

وقد اعترف جميع آباء الكنيسة صراحة بهذا التعليم فقد قال القديس كبر يانوس « أن هؤلاء قبل أن يتو بوا عن خطاياهم بانسحاق قلب و بساطة وقبل أن يعترفوا أمام كهنة الله العلى و يطهروا ضمائرهم ، و يطلبوا من الكهنة علاجات خلاصية لجراحهم الروحية ، و يستعطفوا الرب على الاهانة التى أهانوا بها ايمانه العديم العيب كانوا يتجاسرون بلا حياء أن يشتركوا بجسد الرب ودمه .. فأطلب اليكم أيها الاحباء أن تعترفوا بخطاياكم مادمتم فى الحياة الحاضرة ، حيث الصفح عن الخطايا الممنوح من الكهنة مقبول ومرضى عند الله أيضا » (فى الساقطين ٢٨ و٢٩) وقال القديس أثناسيوس « كما أن المعمد يستنير بنعمة الروح القدس ، هكذا بواسطة الكاهن ينال التائب الغفران بنعمة المسيح » (ضد النواتيين) وقال القديس باسيليوس الكبير « ان الاعتراف بالخطايا للمؤتمنين على تدبير أسرار الله ضرورى ، الذين كانوا يندمون قديما نرى أنهم هكذا

صنعوا نحو القديسين وقد كتب في الانجيل أنهم كانوا يعترفون بخطاياهم ليوحنا المعمدان . وفي أعمال الرسل أنهم كانوا يعترفون للرسل الذين كانوا يعمدون منهم » (قوانينه المختصرة جواب على سؤال ٢٨٨) وقال القديس يوحنا ذهبي الفم « لأن ساكني الأرض والقاطنين فيها قد سمح لهم أن يسوسوا ما في السموات ، وأخذوا سلطانا لم يعطه الله لا للملائكة ولا لرؤساء الملائكة ، لأنه لم يقل لأولئك كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطا في السماء ، وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا في السماء . . ثم أن للمتسلطين سلطانا في الارض أن يربطوا ولكنهم يربطون أجسادا فقط ، وأما هذا الرباط فانه يمس النفس عينها ، ويجتاز السموات ، وما يعمله الكهنة تحت يثبته الله فوق ، و يؤيد السيد رأى العبيد [1] » (في الكهنوت خطاب ٣ : ٤ و٥) وقال أيضا « أي سلطان يمكن أن يكون أعظم من هذا السلطان ؟ ان الآب أعطى الحكم كله للابن وأرى أن هؤلاء تسلموه كله من الابن . . وقد كان لكهنة اليهود سلطان أن يطهروا برص الجسد ، و بالاحرى لم يكونوا يطهرونه بل يفحصون المعتوقين منه ، وأنت تعلم كم كان سلطانهم وقتئذ مشتهى . ولكن هؤلاء قد نالوا سلطانا لا على برص جسداني بل على الدنس النفساني ، ولا أن يفحصوه بعد التطهير بل أن يطهروه تماما » (الكهنوت خطاب ٣ : ٥ و٦) وقال القديس امبروسيوس « من يستطيع أن يترك خطايا الا الله وحده والذين أعطاهم هو هذا السلطان » (جزء ٥ : ١٣) وقال « ان هذا الحق أعطى للكهنة وحدهم » (التوبة ١ : ٢) وقال « أن البشر يتممون سر التوبة لغفران الخطايا من دون أن يكون لهم سلطان في ذلك باسمهم ، وانما يتممونه بالاسم الممجد اسم الآب والابن والروح القدس ، فهم يطلبون والله يعطى وعلى البشر الطاعة هنا ومن الله الهبة العظيمة » (في الروح القدس ٣ : ٨) وقال القديس كيرلس الاسكندرى « ان المتوشحين بالروح القدس يتركون الخطايا أو يمسكونها على نوعين كما أرى : أما بأنهم يدعون الى المعمودية الذين اقتضى نوالهم اياها حسن سلوكهم وخبرتهم في الايمان ، وأما بأنهم يمنعون البعض ويحجبونهم عن النعمة الالهية ، لأنهم لم يصيروا بعد مستحقين لها . أوعلى وجه آخر أيضا يتركون الخطايا ويمسكونها ، وذلك أما بقصاصهم أبناء الكنيسة عندما يخطئون واما بمسامحتهم اياهم عندما يندمون » (تفسير يوحنا ٢٠ : ٢٣) وقال القديس أغسطينوس « ان الخطية اذا فعلها موعوظ تغسل بالمعمودية ، واذا فعلها معتمد تترك بالتوبة » .

و يقول أخيرا أن هذا التعليم قد أجمعت عليه جميع الكنائس الرسولية شرقا وغربا ، وهذا الاتفاق العام دليل على أنه تعليم رسولي مارسته الكنيسة الرسولية منذ انشائها ، والتاريخ يشهد أيضا بهذه الحقيقة . أضف الى ذلك أن الكنيسة البروتستانتية التي أنكرت هذا التعليم تسلم به في كتبها ، فقد جاء في كتاب نظام التعليم في علم اللاهوت القويم ما نصه : « الكنائس اللوثرية

---

(١) يقصد بالعبيد : الكهنة الذين يؤيد الله سلطانهم في الحل والربط .

والاسقفية تستحسن الاعتراف السرى للراعى فى بعض الاحوال . وجميع الانجيليين يرفضون الحلة الكهنوتية الا نظير تصريح قانونى للتائبين برحمة الله الغافرة » (جزء ١ صحيفة ١١٧) وجاء فى كتاب الصلاة العامة للكنيسة الاسقفية ما نصه « وهنا يحث القس (الانسان) المريض على الاقرار بخطاياه وبعد الاقرار يحله القس على هذا الوجه : ربنا يسوع المسيح الذى ترك لكنيسته سلطانا على أن يحلوا جميع التائبين المؤمنين به حقا ، ليغفر لك خطاياك برحمته العظيمة ، وأنا بسلطانه الذى فوض الى أحلك من جميع خطاياك باسم الآب والابن والروح القدس آمين » (صحيفة ٢٧٩) .

الفصل الثالث

شروط التوبة

للتوبة اربعة شروط :

١ ـــ انسحاق القلب وندامته على الخطايا السالفة .
٢ ـــ عزم ثابت على اصلاح السيرة .
٣ ـــ ايمان وطيد بالمسيح يسوع ورجاء فى تحننه .
٤ ـــ اعتراف شفوى بالخطايا أمام الاب الروحى .

فالشرط الأول : وهو انسحاق القلب ضرورى جدا ، وهو شرط جوهرى لازم للتوبة الحقيقية . فان على التائب حقيقة أن يشعر بثقل خطاياه و يعترف بنتائجها المهلكة ، و يعترف أنه اقترف أمام الله جريمة استحق بها ابتعاد الله عنه . وعليه أن يحزن و يتوجع لأنه أغضب الله وتعدى على شر يعته واذا فقد هذا الانسحاق وهذه الندامة فليست هناك توبة حقيقية بل ر ياء ظاهرى . ولهذا لما طلب الله من الاسرائيليين أن يرجعوا اليه بالتوبة قال لهم « ارجعوا الى بكل قلوبكم و بالصوم والبكاء والنوح . ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب الهكم لأنه رؤوف رحيم بطىء الغضب وكثير الرأفة و يندم على الشر » (يوئيل ٢ : ١٢ و١٣) وقال المرنم « ذبائح الله هى روح منكسرة القلب المنكسر والمنسحق ياالله لا تحتقره » (مز ٥١ : ١٧) . ولما أراد المخلص أن يبين فى العهد الجديد علامات التوبة الحقيقية فى الراجعين ، أوضح ذلك فى مثل الابن الشاطر الذى حكم على نفسه بأنه غير مستحق أن يكون ابنا ورجع الى أبيه متخشعا منسحقا قائلا « أخطأت الى السماء وقدامك . ولست مستحقا بعد أن ادعى لك ابنا . اجعلنى كأحد أجراك » (لو ١٥ : ١٨ و١٩) ومثل العشار الذى تواضع بحزن شديد وتنهدات عميقة طالبا رحمة الله قائلا « اللهم ارحمنى أنا الخاطىء » (١٨ : ١٣) وكما قال بولس الرسول « لأن الحزن الذى بحسب مشيئة الله ينشىء توبة لخلاص بلا ندامة » (٢ كو ٧ : ١٠) . و بناء على هذا التعليم اعترف جميع آباء الكنيسة بأن الانسحاق والندامة على الخطية خاصة جوهر ية للتوبة . وكتب القديس كبر يانوس هكذا : « اخوتى الاحباء : هلموا الى الندامة والتخشع بنفس منسحقة وافحصوا خطاياكم واعرفوا ثقل الاوزار بضمير حسن وافتحوا عين قلوبكم لتدركوا نقائصكم . و بقدر ما نكثر من الخطايا نحن مديونون أن ننوح على الخطايا » (فى الساقطين ٢٥) وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « ان كان بكاء بطرس محا خطية عظيمة جدا ، فأنت اذا بكيت كيف لا يمحو الله خطيتك ؟ لأن

انكار ذاك لسيده لم يكن جريمة صغيرة بل عظيمة وقوية . ومع ذلك فقد محت الدموع الخطية . فأبك اذن أنت أيضا على خطيتك ، ولكن لا يكونن بكاؤك على حسب العادة وفى الظاهر فقط بل أبك بمرارة مثل بطرس وقدم ينابيع دموعك من داخل العمق حتى يتحنن عليك السيد و يصفح عن ذنبك » (فى التوبة ٣ : ٣) وقال القديس باسيليوس « يجب على التائبين أن يبكوا بمرارة وأن يظهروا من قلوبهم سائر علامات التوبة » (فى أدبياته ١ : ٣) وقال أيضا « ان التوبة تدعو الانسان أولا أن يصرخ فى نفسه و يسحق قلبه ثم أن يصير قدوة صالحة للاخرين ويجعل طريقة توبته مسموعة و يشهرها » (شرح أشعياء ١٥) .

ولا يجب أن يكون هذا الانسحاق ناتجا عن الخوف من العقاب ، بل ينبغى أن يكون انسحاق القلب ناشئا عن شعور بأنه أغضب الله المحسن اليه . لأن الحزن الأول هو حزن العبيد ، أما النوع الثانى فهو شعور الأبناء . قال القديس يوحنا ذهبى الفم « تنهد عندما تخطىء لا لأنك مزمع أن تعذب لأن هذا ليس شيئا ، بل لأنك خالفت سيدك الوديع الذى يود و يصبو الى خلاصك حتى أنه أعطى ابنه عنك ، فلهذا تنهد واصنع هكذا دائما لأن هذا هو اعتراف » (مقالة ٧ : ٥ على ٢ كو) .

والشرط الثانى: الذى هو العزم الثابت على اصلاح السيرة هو نتيجة ضرورية للانسحاق على الخطية . ولا فائدة للتوبة ولا معنى لها بدون هذا الشرط . ولذلك لما نادى يوحنا المعمدان بالتوبة ورأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم « يا أولاد الافاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة » (مت ٣ : ٧ و٨) وقال السيد للمخلع الذى شفاه « ها أنت قد برئت . فلا تخطىء أيضا لئلا يكون لك أشر» (يو ٥ : ١٤) وقال للخاطئة « ولا أنا أدينك . اذهبى ولا تخطئى أيضا » (يو٨ : ١١) وقال بطرس الرسول « توبوا وأرجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب » (أع ٣ : ١٩) وفى سفر الرؤيا وجه السيد الخطاب الى ملاك كنيسة أفسس قائلا « فأذكر من أين سقطت وتب وأعمل الاعمال الاولى والا فانى آتيك عن قريب وازحزح منارتك من مكانها ان لم تتب» (رؤ ٢ : ٥) وقال القديس باسيليوس « لأن ليس الذى يقول أخطأت و يلبث مصرا على الخطية يعترف . لا . بل الذى يجد (١) خطيته و يبغضها كما قال الزبور. فما الفائدة للضعيف من اجتهاد الطبيب اذا كان هو يجلب ما يفسد حياته ؟ هكذا لا فائدة من الصفح عن الظالم أن لم يكف عن ظلمه ، ولا فائدة لمن يقول أنه ترك الرجاسة و يبقى فى نجاسته . فبدون المسامحة من الله لا يمكن للانسان أن يبتدىء بالحياة الفاضلة . ولهذا قد أراد مدبر حياتنا الحكيم من الذى امتحن ببعض الخطايا وعزم على السلوك بالسيرة المعافاة أن يضع حدا للامور الماضية

---

(١) كلمة « يجد » تأتى فى اللغة بمعنى يقطع و يوقف .

يجددها به ، ويجعل لنفسه بدءا جديدا بعد الخطايا كأن حياته قد تجددت بالتوبة . وأما الذى يعترف بخطاياه مرارا ثم يسقط فيها بتواتر فانه يغلق عنه باب تعطفه و يتركه في اليأس » (على اشعياء ١ : ٥ : ١٤) وقال ايضا « انه لا يكفي للتائبين غفران الخطايا وحده للحصول على الخلاص بل من الضرورى أن تكون لهم أثمار لائقة بالتوبة » (أدبيات ١ : ٤) .

والشرط الثالث : هو الايمان الثابت بالمسيح والرجاء الوطيد فى تحننه لأن « ليس بأحد غيره الخلاص . لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص » (أع ٤ : ١٢) و« له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا » (أع ١٠ : ٤٣) وقال بولس الرسول « فاذ قد تبررنا بالايمان لنا سلام مع الله بر بنا يسوع المسيح الذى به أيضا قد صار لنا الدخول بالايمان الى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون ونفتخر على رجاء مجد الله » (رو ٥ : ١ و٢) « فمن ثم يقدر أن يخلص أيضا الى التمام الذين يتقدمون به الى الله اذ هو حى فى كل حين ليشفع فيهم » (عب ٧ : ٢٥) .

والشرط الرابع : هو الاعتراف الشفوى بالخطايا أمام الاب الروحى وهو نتيجة طبيعية تقتضيها وظيفة الكاهن المعطى له من السيد المسيح سلطان حل الخطايا وربطها فى هذا السر . لأن السيد قال صريحا « أقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » فكيف يمكن للكهنة أن يغفروا الخطايا أو يمسكوها دون أن يعلموها و يفحصوها ؟ وكيف يعرفونها بدون الاعتراف بها ؟ وكيف يتأتى للقاضى أن يحكم فى قضية لم تعرض عليه ولم يعرفها ؟ فالسلطان المعطى من السيد المسيح لتلاميذه ولخلفائهم يقتضى ضرورة اعتراف التائب واظهار خطيته لينال الصفح عنها . و بناء على ذلك يعتبر الاعتراف بالخطايا لرعاة الكنيسة مؤسسا من السيد المسيح ، كما أن سلطان الحل والربط ممنوح منه له المجد . حتى أن من ينكر الاعتراف يضطر أن ينكر سلطان الحل والربط ، وهذا مخالف لتعليم الانجيل الواضح .

الفصل الرابع

الاعتراف

الاعـتـراف فـي اللـغـة هو الاقرار بالشيء والتصريح به علنا . وفي اصطلاح الكنيسة هو اقـرار الخاطيء بخطاياه أمام كاهن الله اقرارا مصحوبا بالندامة والتأسف والعزم الثابت على ترك الخطية وعدم الرجوع اليها ، لينال الحل منه بالسلطان المعطى له من الله القائل « من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » .

فـالاعـتـراف اذن جزء من سر التوبة . ومن المعلوم أن الاسرار هي بركات ومنح بها ننال نعما غير منظورة تحت مادة منظورة . فالعمل المنظور في سر التوبة هو توبة الخاطيء وندامته واعترافه وسماعه الحل من الكاهن . أما النعمة غير المنظورة فهي غفران خطاياه وسلامه مع الله وانعتاقه من عقاب الخطية ونيله الرجاء بالحياة الابدية .

أما وجوب الاعتراف واثباته فيظهر من الادلة الآتية :

أولا : مـن الـطـبيعة . فان الانسان في كل أدوار حياته يحتاج الى من يواسيه في أموره ، فـتـراه يـشـكـو همومه وأتـعـابـه ومـا يضايق نفسه الى صديق أو حبيب له ، طلبا لمشورة أو تنفسيا لـكـرب ، أو تخـفـيـفـا لألم ، أو مـشاطرة له فيا يشعر به . وما أحسن أن يكون للانسان أب روحي ومعلم مرشد يرجع اليه في أموره الروحية لارشاده وهدايته . أضف الى ذلك أن الانسان اذا أخطأ ضـد انـسـان آخر واعترف له بخطأه وطلب سماحه استراح ضميره وتصالح مع خصمه ، وكانت الـنـتـيجة سلاما وهدوءا في الخارج وفي الداخل . واذا تأملنا في التوراة نجد أن آدم لما أخطأ مهد الله لـه طـريق الاعتراف بخطأه وسأله « هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها » (تـك ٣ : ١١) قـال الـقـديس غريغوريوس والقديس أغسطينوس « أن الله تعالى سأل الانسان الأول والمـرأة الأولـى قـبـل أن يحـكـم عليهما لما خالفا ناموسه ، وذلك ليقدم لهما سببا للاقرار بذنبهما فـيـنـالا الغفران باعترافهما الذليل الوضيع » وهكذا قل عن سؤال الله لقايين « أين هابيل أخوك » فلو أنه اعترف بذنبه وتاب واستغفر لنال الصفح من الله .

ثـانـيـا : مـن ناموس موسى . ففي شريعة موسى كان الاعتراف جزءا ضروريا من توبة الخـاطـيء حـسـب قول الرب « اذا أخطأ أحد أو اذا مس أحد شيئا نجسا أو اذا حلف . فان كان

يذنب في شيء من هذه يقربما قد أخطأ به و يأتي الى الرب بذبيحة لا ثمه .. فيكفر عنه الكاهن من خطيته الخ » (لا ٥ : ١ ــ ٦) وقوله « يفنون بذنوبهم .. و بذنوب آبائهم معهم يفنون . لكن أن أقروا بذنوبهم .. اذكر ميثاقى مع يعقوب . الخ » (لا ٢٦ : ٣٩ ــ ٤٥) « وقل لبنى اسرائيل اذا عمل رجل أو امرأة شيئا من جميع خطايا الانسان وخان خيانة بالرب فقد أذنبت تلك النفس . فلتقر بخطيتها التى عملت » (عد ٥ : ٦ و٧) « وتأتي الى الكاهن الذى يكون فى تلك الايام وتقول له اعترف اليوم للرب الهك » (تث ٢٦ : ٣) و « من يكتم خطاياه لا ينجح ومن يقربها و يتركها يرحم » (أم ٢٨ : ٢٣) وقد قال أيوب مبينا اعترافه « ان كنت قد كتمت كالناس ذنبى لاخفاء اثمى فى حضنى » (٣١ : ٢٣) راجع أيضا (لا ١٦ : ٢١ ، ١ مل ٨ : ٣٨ ، عز ٩ ، نح ١ : ٦ ، ٩ : ٢ ، مز ٣٢ : ٥ ، أش ٣٨ : ١٧ ، ٥٩ : ١٢ ، ٦٤ : ٦ ، ار ١٤ : ١٠ ، دا ٩ : ٤ و٢٠) حيث تجد أدلة واضحة على الاعتراف . ألا ترى أن يشوع بن نون قال لعخان « اعترف للرب وأخبرنى » (يش ٧ : ١٩) وهذا دليل على أن الاعتراف لله يجب أن يكون على يد رجاله ، كما اعترف داود الملك امام ناثان النبى وقال « قد أخطأت الى الرب . فقال ناثان لداود . الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك . لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) فهنا اعتراف للرب على يد نبيه يعقبه تصريح واعلان بنقل خطيته .

وقد كان الاعتراف عند بنى اسرائيل يقرن مع الذبيحة وصلاة الكاهن عن الخطية . قال الربى ابن عزرا « ان الاعتراف لازم وانهم عندما يقدمون الذبيحة اذا لم يتوجعوا و يعترفوا اعترافا مرتبا مبينا الخطايا لا تكون للذبائح قوة وفائدة لهم ، وجاء فى التلمود « انه يظهر من التقليد أن الخاطىء يلزمه أن يوضح فى الاعتراف جميع أعماله » .

ولهذا السبب لما جاء يوحنا المعمدان مناديا ببشارة التوبة لاقتراب ملكوت الله والاستعداد له ، جاء اليه كثيرون واعتمدوا منه فى الاردن معترفين بخطاياهم (مت ٣ : ٥) .

ثالثا : من العهد الجديد : فان الرب يسوع قبل أن يؤسس سر التوبة وعد به عندما قال للقديس بطرس « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الارض يكون مربوطا فى السموات . وكل ما تحله على الارض يكون محلولا في السموات » (مت ١٦ : ١٩) وكذلك لما أعطى كنيسته هذا السلطان بقوله « وان لم يسمع منهم فقل للكنيسة . وأن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار . الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطا فى السماء . وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا فى السماء » (مت ١٨ : ١٧ و١٨) و بعد قيامته ثبت هذا السر بقوله لتلاميذه بعد ما نفخ فى وجوههم « أقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢٢ و٢٣) ومن هذا القول يتضح أن السيد له المجد أعطى تلاميذه وخلفاءهم سلطان الحل والربط لأعلان غفران الخطايا أو مسكها . وكيف

يمكنهم أن يربطوا الخطايا أو يحلوها و يعلنوا غفرانها الا بعد الاقرار والاعتراف بها علنا ؟ فان الخطايا في الغالب خفية سرية فكيف يغفرونها وهى مكتومة ؟ هل أرسل السيد تلاميذه ليكونوا جواسيس يتجسسون على خطايا الناس و يغفرونها دون علمهم ؟ حاشا . بل جعلهم قضاة وأطباء للنفوس ، والقاضى لا يقدر أن يحكم فى دعوى لم يسمعها و ينظر فيها و يفحصها ، كما أن الطبيب لا يستطيع أن يعالج مريضا لم يعرض عليه و يفحصه فحصا دقيقا . ولذلك نرى أن الذين كانوا يتوبون و يؤمنون كانوا يأتون للرسل مقرين ومخبرين بأفعالهم (أع ١٩ : ١٨) وقد فسر القديسان باسيليوس و يوحنا ذهبى الفم هذا النص بأنه الاقرار بالخطايا أمام الكاهن وجاء فى رسالة يعقوب الرسول عند كلامه عن سر مسحة المرضى قول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه و يدهنوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له . اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكى تشفوا » (يع ٥ : ١٤ ــ ١٦) . قال القديس أغسطينوس فى تفسير هذه الآية « ليس المقصود أن يعترف الكهنة على العلمانيين كما يعترف هؤلاء لهم فان هذه الجملة لا توجب دائما حصول المشاركة بين كل من الطرفين ــ أى لا يلزم منها اعتراف الكهنة للشعب . بل هى على حذ قولك علموا بعضكم بعض وعالجوا أحدكم الآخر وليسعف الواحد منكم صاحبه . بمعنى أن العالم يعلم الجاهل والطبيب يعالج المريض والقوى يشدد الضعيف وقس على ذلك » ومن هذا يتضح أن البعض الذى نعترف له هو كهنة الله الامناء ، الذين يدعوهم المريض لدهنه بالزيت والدعاء له من الله . قال يوحنا الرسول « أن قلنا انه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا . ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا و يطهرنا من كل أثم . ان قلنا اننا لم نخطىء نجعله كاذبا وكلمته ليست فينا » (يو ١ : ٨ــ ١٠) .

رابعا : من نظام الكنيسة وقوانينها ، فانك اذا راجعت قوانين الكنيسة وجدتها ملآنة بالادلة الصريحة على وجوب الاعتراف مع التوبة وقبل تناول الاسرار المقدسة . وجاء فى القوانين المنسوبة للرسل القواعد التى تذكر متقدمى الكنائس بأنهم أؤتمنوا على سلطان الحل والربط ، وتبين لهم الوجه الذى به يفحصون الخطايا وكيف يرشدون التائبين ، وتوصى المؤمنين أن يكرموا آباءهم الروحيين حيث تقول « وقروهم وأكرموهم وقدموا لهم جميع انواع الكرامة لأنهم أخذوا من الله سلطان الحياة والموت بأن يحاكموا الخطاة ويحلوا الراجعين من الخطايا وغير ذلك » . ولا يسعنا المقام أن نأتى بما جاء فى قوانين المجامع فان الشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى .

خامسا : شهادة الكتب الطقسية : فان لدينا كتبا قديمة يرجع تاريخها الى أكثر من ألف سنة فضلا عن الكتب الاكثر قدمية من هذه ولا تزال محفوظة بالمتاحف ناطقة بنظام الكنيسة فى شرح سر التوبة والاعتراف ، وهى دليل صادق على من ما كان جاريا فى الكنيسة منذ العصور الاولى .

سادسا : شهادة التاريخ : فان التاريخ الكنسي يشهد بأن الاعتراف كان جاريا على وجهين : أحدهما علني والآخر سري ، وعلى كلا الوجهين كان غفران الخطايا يعطى من الكهنة وحدهم الذين لهم الحق في التصريح به . ومع الزمان تنازلت الكنيسة عن الاعتراف العلني رفقا بأبنائها وحصرته في الاعتراف السري .

وقد شهد أوسابيوس المؤرخ الكنسي أن الاعتراف كان دارجا في الكنيسة في عصر الرسل بقوله « كان تلاميذ مخلصنا أشداء يتركون في نفوس سامعيهم مناخس تدخل تعاليمهم في صميم أفئدتهم حتى يبرزوا الخفايا من مطاميرها و يعترفوا جهارا بقبائح سيرتهم الماضية » . وروى أن الثلاثة الذين اتهموا القديس نرسيس ، مات اثنان منهم بتعاسة ، والثالث اعترف بكل ما جرى في التهمة وصنع توبة صارمة ، وروى أن القديس فانيانوس منع فيلبس القيصري عن التقدم الى الاسرار قبل أن يعترف بآثامه و ينضم الى من سقطوا ودخلوا مصاف التائبين . وروى أيضا أن سرابيون لما غلبه الاضطهاد ودنا من الموت دعا قسا ليمنحه احسان المصالحة . وذكر سقواط المؤرخ أن امرأة شريفة تقدمت الى الكاهن المعرف واعترفت بما ارتكبت من الخطايا بعد المعمودية بالتفصيل . وقد مدح الشماس بولينوس القديس أمبروسيوس وغيرته في سماع الاعترافات . وغير ذلك مما لا يحصى من الاخبار التاريخية الدالة على وجوب الاعتراف في سر التوبة ، و بالاخص قبل تناول الاسرار المقدسة . وقد أثبت ذلك موسهيم المؤرخ البروتستانتي في تاريخه (كتاب ١ قرن ١ قسم ٢ فصل ٤) .

سابعا : شهادة آباء الكنيسة : فان جميع الآباء منذ الجيل الأول يشهدون شهادة حقة للاعتراف ، ومن أقوالهم وتعاليمهم يتضح لنا أن الاعتراف كان جاريا في أيامهم ، وكان قاعدة من قواعد ايمان الكنيسة واليك بعض أقوال اشهرهم في العصور الاولى :

ففي الجيل الاول : قال القديس ديوناسيوس الاريوباغي تلميذ بولس الرسول في ميمره على الراقدين « ان صلوات القديسين تنفع جدا ، وكذا من تقدم الى رجل بار واعترف له بآثامه فانه ينال صفحا كأنه من الله . وتتمحص خطاياه و ينال المواهب الالهية التي يحتاجها ، لأن ذلك شرع في الاحكام الالهية أن يمنح الله المواهب و يعطيها بتوسط الآباء » وقال القديس برنابا في مؤلف آخر في الرسالة المشهورة التي كانت في الاجيال الاولى كثيرة الاعتبار ما نصه « اعترف بخطاياك ولا تقدم على الصلاة وأنت في سوء الضمير فهذا طريق الخلاص » وقال القديس اكليمنضس الروماني تلميذ بطرس الرسول في رسالته الاولى الى أهل كورنثوس « الاولى بالناس أن يعترفوا بآثامهم وخطاياهم من أن تتصلب قلوبهم ، وقال في رسالته الثانية « ما دمنا في هذا العالم فلنرعو بكل قلبنا عن الشرور التي وصفناها في الجسد ليخلصنا الرب ما دام لنا زمان التوبة . فاذا خرجنا من العالم لم يبق لنا أن نعترف هناك أو نتوب » .

وفى الجيل الثاني : روى القديس ايريناوس أن بعض أتباع فالنتينوس أفسدوا النساء اللواتي كن يتعلمن منهم هذا التعليم .. و بعد ارتداد النساء الى بيعة الله اعترفن بهذا الاثم مع باقي ضلالهن . وروى أيضا أن مرقس الساحر مكر بامرأة شماس فارتدت فبقيت مدة حياتها لا تكف عن الاعتراف بالاثم الذى اقترفته ماحية بدموعها الوصمة التى أنزلها بها الساحر .

وفى الجيل الثالث : قال العلامة ترتوليانوس « أن كثيرين ينتبهون الى الخجل أكثر من الخلاص فيهربون من هذا العمل (أى الاعتراف) سترة لهم أو يؤخرونه من يوم الى يوم كمن أصابه مرض فى الاعضاء المستحى منها فأخفى على الاطباء مرضه فيباد بخجله .. فاذا أخفينا نفوسنا عن معرفة الناس فهل تخفى على الله . وهل الاولى لنا أن نهلك وذنوبنا مخفية من أن نحل وهى مكشوفة فى التوبة » وقال « واذا لم يخجل الخاطىء من أن يبين خطيته لكاهن الرب و يستمد العلاج بحسب قوله . قلت اعترف للرب باثمي وأنت تغفر شر قلبى » وقال « كما أن من بقى فيهم الطعام غير مهضوم أو تثقلت معدتهم بخلط أو بلغم ، فاذا تقيأوا استراحوا . كذلك من أخطأوا وأخفوا الاثم فيهم تضايقوا داخلا وخنقهم بلغم الخطية وخلطها . ولكن أن شكا أحد نفسه فبشكايته واعترافه يتقيأ الاثم وتزول علة المرض كلها فلا خطر يحرز من يلزمك أن تعترف بخطيتك (1) وامتحن أولا الطبيب الذى تعرض عليه مرضك » . وقال القديس كبريانوس « كم يكون أعظم ايمانا وأحسن خوفا من يعترفون بتوجع و بساطة أمام كهنة الله بما افتكروا به من الاثم منقين ضميرهم .... الى أن قال .... فليعترف كل منكم أيها الاحباء باثمه ما دام الذى اثم (أى الاثيم) فى هذا العالم ، وما دام ممكنا قبول اعترافه وما دامت المغفرة بواسطة الكهنة مقبولة عند الله » .

وقال العلامة أوريجانوس المصرى « يوجد ترك آخر للخطايا مكرب جدا وصعب وممكن الحصول عليه بالتوبة وذلك عندما يبل الخاطىء فراشه بدموعه وعندما تصير دموعه له خبزا نهارا وليلا وعندما لا يخجل بأن يكشف خطيته أمام كاهن الله طالبا منه الشفاء . أو عندما يقول بعد الخطية قد عرفت خطيتي ولم أخف اثمي . قلت اعترف للرب بذنبى . فاذا عملنا هكذا أو كشفنا خطايانا ليس لله فقط بل للذين يستطيعون أيضا أن يشفوا جراحنا وآثمنا تمحى جهالاتنا من الله الذى قال : قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك » .

وفى الجيلين الرابع والخامس : قال القديس أثناسيوس الرسولى بابا الاسكندرية « كما أن المعتمد من الكاهن يستنير بنعمة الروح القدس هكذا من يعترف بخطاياه بواسطة الكاهن

---

(1) (يتحرز من يلزمك أن تعترف له) يقصد من تعترف له بالخطايا لا تخافه لأنه لا خطر منه ولا شر داخله بل هو حرز للرحمة .

يحظى بالغفران بنعمة المسيح » وقال القديس كيرلس الاورشليمى « ان الزمان الحاضر زمان الاعتراف فاعترف بما ارتكبت قولا وفعلا ليلا ونهارا » وقال القديس باسيليوس « من اللازم الاعتراف بالخطايا لمن سلم اليهم توزيع أسرار الله « وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « لأن ساكنى الأرض والقاطنين فيها قد سمح لهم أن يسوسوا ما فى السموات وأخذوا سلطانا لم يعطه الله لا للملائكة ولا لرؤساء الملائكة . لأنه لم يقل لأولئك كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا فى السماء ، ثم ان للمتسلطين فى الارض سلطانا أن يربطوا ولكنهم يربطون أجسادا فقط وأما هذا الرباط فانه يمس النفس عينها ويجتاز السموات . وما يعمله الكهنة تحت يثبته الله فوق و يؤيد السيد رأى العبيد » (يقصد الكهنة) .

ثامنا : شهادة الاتفاق العام . فان جميع الكنائس الشرقية والغربية فضلا عن افتراقها واختلافها بعضها عن بعض فى أمور كثيرة فانها متفقة تمام الاتفاق على جوهر الاسرار السبعة ومن جملتها سر التوبة والاعتراف وهذا الاتفاق دليل صادق على صحة هذا التعليم وقدميته منذ العصر الرسولى .

تاسعا : شهادة الخارجين عن الكنيسة . ونختم بحثنا هذا بشهادة الذين أنكروا الاعتراف وكيف أنهم يستحسنونه . قال لوثيروس فى كتابه سبى بابل « ان الاعتراف السرى يعجبنى كثيراً وهو نافع بل لازم » وقال كلفن فى (كتابه الرسومات ك ٣ رأس ٣) « من كان ضميره معرقلا فى شيء جنى من الاعتراف أحسن ثمرة . وفى قانون الايمان الذى سنه البروتستانت فى أغوسطا قالوا « ان الاعتراف فى الكنائس لم يبطل عندنا ».وجاء فى كتاب الصلوات العامة للكنيسة الاسقفية ما نصه « ان كان أحد غير قادر على أن يطمئن باله بهذه الوسيلة فليأت الى أحد خدام كلمة الله ... ثم يفحصه القس هل تاب حقا من خطاياه ... وهنا يحث المريض على الاقرار بخطاياه اقرارا خصوصيا ان لم يكن شعر بأن ضميره قلق لأمر باهظ و بعد الاقرار يحله القس على هذا الوجه . الخ » (صحيفة ٢٧٩) وجاء فى (كتاب نظام التعليم فى علم اللاهوت القويم الجزء الاول صحيفة ١١٧) « ان الكنائس اللوثرية والاسقفية تستحسن الاعتراف السرى للراعى فى بعض الاحوال .

الفصل الخامس

نتائج سر التوبة

نتائج سر التوبة هي :

١ ــ مسامحة الخاطيء ونيله غفران خطاياه (مز ٣٢ : ٥ ، أش ٥٥ : ٧ ، يو ٢٠ : ٢٣ ، ١ يو ١ : ٩) .

٢ ــ محوها وعدم ذكر الله لها (اش ٤٤ : ٢٢ ، حز ١٨ : ٢١ و٢٢) .

٣ ــ التبرر من الخطية (مز ٥١ : ٢ ، لو ١٨ : ١٤)

٤ ــ نيل الخلاص والحصول على رجاء الحياة الابدية (لو ١٩ : ٩ ، ١ كو ٥ : ٥) .

٥ ــ الانعتاق من عقاب الخطية (متى ٣ : ٧ و١٠ ، لو ١٣ : ٣ ، ٢٣ : ٤٢ و٤٣) .

٦ ــ المصالحة مع الله ونوال سلامه (رو ٥ : ١ ، أف ٢ : ٤ ، ٢ كو ٥ : ١٥ ــ ٢١) .

٧ ــ الحصول على رتبة البنوة التي فقدها الخاطيء بخطيته (لو ١٥ : ١٧ ــ ٢٤) .

قال القديس يوحنا ذهبي الفم « ان الآباء الطبيعيين اذا خالف أولادهم أحدا من الرؤساء أو ذوي القدرة في هذه الحياة لا يستطيعون أن ينفعوهم شيئا . وأما الكهنة فانهم كثيرا ما استعطفوا وصالحوا لا رؤساء وملوكا فقط بل الله نفسه » (في الكهنوت ٣ : ٦) وقال أيضا « ان اخطئت ؟ فأدخل الكنيسة وامح خطيتك . وكما أنك بقدر ما تقع في الشارع تنهض ، هكذا كلما خطئت تب عن الخطية ولا تيأسن من ذاتك . وان خطئت ثانية فتب توبة ثانية أيضا ولا تسقطن من الرجاء بالخيرات الموعود بها سقوطا كاملا بسبب اهمال . وان كنت في غاية الشيب وخطئت فادخل واندم . لأن هذا المكان هو مستشفى وليس محكمة وهو لا يطلب مجازاة على الخطايا بل يهب صفح الخطايا » (في التوبة ٣ : ٤) .

الفصل السادس

التأديبات الكنسية

اعتـادت الـكنيسة منذ ابتدائها أن تفرض على التائب بعض قصاصات تأديبية ، القصد منها تأديب الخاطيء واصلاح حاله وتقويم سيرته ، وفقا لقول الرسول « لأن الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله . ان كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين فأى ابن لا يؤدبه أبوه » (عب ١٢ : ٦ و٧) وقوله ولكن اذ قد حكم علينا أن نؤدب من الرب لكى لا ندان مع العالم » (١ كو ١١ : ٣٢) وأشهر هذه القوانين هى الصوم الخصوصى علاوة على الاصوام المفروضة على جميع المؤمنين ، وصلوات يقدمها الخاطيء فى مخدعه مع عدد من الركعات ، وتوزيع جزء من ماله صدقة على الفقراء ، وتأخير التناول من الاسرار المقدسة وقتا مناسبا لثقل خطيته .

وهـذه القوانين ما هى الابمثابة عقاقير روحية تعالج بها أمراض النفس للتهذيب والتقويم ، وذلك طبقـا لما فعله الرسول بولس مع المختلط بالدم فى كورنثوس فانه حكم عليه أولا بالفرز من الكنيسة ، فلما أنتجت هذه التأديبات الغرض المقصود منها أرجعه بقوله « مثل هذا يكفيه هذا القصاص الذى من الأكثرين . حتى تكونوا بالعكس تسامحونه بالحرى وتعزونه لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط . لذلك أطلب أن تمكنوا له المحبة » . (٢ كو ٢ : ٦ ــ ٨)

وقد ورد ذكر هذه القوانين فى الاوامر الرسولية وأقوال المجامع وشهد عنها الآباء بالأخص القديس ايريناوس والقديس كبريانوس والعلامة ترتوليانوس . وهذا ظاهر أيضا من الترتيب الذى كانت الكنيسة القديمة جارية عليه من حيث تقسيم التائبين الى :

١ ــ رتبة الباكين الذين لم يكن لهم حق فى حضور الخدم الشريفة بل كانوا يقفون خارج الكنيسة و يتضرعون بدموع الى الداخلين فى الهيكل ليصلوا من أجلهم .

٢ ــ رتبة السامعين الذين كان مسموحا لهم أن يدخلوا الكنيسة و يقفوا فى موضع خاص بهم و يسمعوا التعليم كلام الله والصلوات .

٣ ــ رتبة الراكعين الذين كانوا يقفون مدة أكثر من الاولين ركوعا أمام باب الهيكل .

٤ ــ رتبة المشتركين الذين كانوا مع المؤمنين فى الصلاة دون أن يتناولوا من الاسرار المقدسة .

فهذه التأديبات كانت الغرض منها اصلاح حال الخاطىء ليس الا . ولكن كنيسة رومية خالفت هذه الحقيقة اذ تعتبر هذه التأديبات قصاصات حقيقية ، الغاية منها وفاء العدل الالهى الذى اهانه الخاطىء بخطاياه . واليك البراهين التى تثبت تعاليم الكنيسة الارثوذكسية و بطلان تعليم كنيسة رومية :

أولا : ان بولس الرسول لما وضع التأديب على المختلط بالدم فى كورنثوس قال « يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى تخلص الروح » لكن لما رجع وتاب ارجعه الى الكنيسة ، وظاهر من ذلك أن الغاية من القصاص كنت تأديبه واصلاح نفسه . لا وفاء عدل الله .

ثانيا : يظهر من جميع أقوال الآباء أن الغرض من هذا التأديب هو الاصلاح ولذلك سموه علاجا وقصاصا للتقويم وشفاء للخطاة وحفظهم من خطايا جديدة .

ثالثا : لو كانت الغاية من هذه القوانين وفاء العدل الالهى لكان من الواجب على التائب اتمام قانونه كله بلا نقص . ولكن الآباء لم يكونوا ينتظرون الخاطىء حتى يتمم كل ما فرض عليه من القانون ، بل كثيرا ما كانوا يختصرون وقت التوبة و يعفونه من القانون متى رأوا أن التأديب أنتج نتيجته المطلوبة .

رابعا : لو كان الغرض من القانون وفاء العدل الالهى لوجب أن تفرض هذه القوانين على جميع الخطايا بلا استثناء بحسب جرم الخطية ، اذ كل خطية هى مخالفة ومضادة لعدل الله ، والحال أن هذه القوانين لم تفرض الا على الخطايا الثقيلة وهذا مما يدل على أن الآباء لم يقصدوا بها الا تهذيب واصلاح نفس الخاطىء وكسر عجرفته لخلاص نفسه . (راجع قانون ١٢ من المجمع المسكونى الاول وقانون ٥ من مجمع أنقره . وقانون ٢٢ من مجمع قرطاجنة) ومؤداها « ان الذى يتعاطى الطب الروحى عليه ملاحظة أخلاق الخاطىء وتصرفه وسلوكه ومدة معالجته حتى اذا كان لا يقاوم الطبيب ولا يزيد قروح النفس بالعقاقير التى تعطى له يعامله بالرحمة التى يستحقها » . « وان تمام الكلام عند الله وعند من أؤتمن على الرئاسة الرعوية هو أن يرد الخروف الضال و يشفيه من الجرح الذى جرحه اياه الثعبان ولا يدفعه فى مهواة اليأس لئلا يهلك ولا يرخى له العنان لئلا يزدرى وتسترخى عيشته . وعلى كل حال يجب على الراعى أن يحارب المرضى كيفما كان ، أما بالادوية الحارة والقابضة وأما باللينة واللطيفة ، وأن يجاهد فى ختم الفرح باختباره أثمار التوبة ومداراته بحكمة ذلك الانسان المدعو الى الاستنارة العلوية » وقد قال القديس غريغوريوس النيسى « كما أن غاية صناعة الطب فى معالجة الجسد واحدة وهى صحة المريض وأوجه المعالجة كثيرة ومتنوعة . هكذا بما أن الآلام فى المرض النفسانى متنوعة فمن الضرورى أن تتنوع أوجه المعالجة الطبية أيضا فى أشكالها ، فتأتى بالشفاء متى جرت على

مقتضى الالم ... ولذا يجب على المزمع أن يعطى العلاج المناسب لقسم النفس السقيم أن يفحص قبل كل شىء أين الالم ثم يقدم للضعيف علاجا ملائما ، حتى لا يكون الطبيب بجهله ، سببا لأن يصل العلاج الى قسم آخر غير القسم الذى فيه المرض » (قانون ١) .

و يظهر مما تقدم أن هذه التأديبات نافعة ومفيدة :

١ ـ انها تلين قساوة قلب الخاطىء وتحركه الى الشعور بذنبه والاعتراف به وتولد فيه البغض للخطية والشوق لاصلاح النفس .

٢ ـ انها رياضات روحية وفروض تقوية ضد أهواء وأميال النفس فانها تفرض مثلا على الانسان الشره الصوم ، وعلى محب المال والسارق فعل الرحمة والصدقة ، وعلى البعيد عن محبة الكنيسة المواظبة على الحضور فيها وقراءة الكتب المقدسة ، وقس على ذلك .

٣ ـ ان هذه القوانين مفيدة لحفظ الآخرين من السقوط ومساعدة فى تهذيب اعضاء الكنيسة .

أما بطلان تعليم كنيسة رومية فى هذه التأديبات فيظهر مما يأتى :

أولا : ان هذا المبدأ يخالف تعاليم الكتاب فى الكفارة التى قدمها الفادى ربنا يسوع المسيح عنا حيث سفك دمه كفارة عن خطايانا ووفى العدل الالهى حقه وصالحنا مع الله أبيه . ويجعل تلك الذبيحة التى قدمها مخلصنا على الصليب لا قوة لها . والكتاب يعلمنا أن مخلصنا قدم نفسه ذبيحة عن خطايانا ، وأن هذه الذبيحة كفارة عن خطايا العالم كله ، وأننا بغير هذه الكفارة لا يمكننا أن نتقدم الى الله . وهذا جوهر الديانة المسيحية وأساس الخلاص . قال أشعياء النبى « لكن أحزاننا حملها واوجاعنا تحملها ، ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا . كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد الى طريقه والرب وضع عليه اثم جميعنا الخ » (اش ٥٣ : ٤ ـ ١٠) وقال بولس الرسول الذى « قدمه الله كفارة بالايمان بدمه لاظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بامهال الله » (رو ٣ : ٢٥) « فمن ثم يقدر أن يخلص أيضا الى التمام الذين يتقدمون به الى الله اذ هو حى فى كل حين ليشفع فيهم » (عب ٧ : ٢٥) « ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية » (١ يو ١ : ٧) « وان أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا . ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا » . (١ يو ٢ : ١ و٢) .

و يعلمنا الكتاب ان الانسان الخاطىء لا يتبرر و ينال الخلاص بالمسيح يسوع الا بشرطين أحدهما التوبة والايمان والثانى الاعمال الصالحة . فعن الاول قال « توبوا وآمنوا بالانجيل » (مر ١ : ١٥) وعن الثانى فلأن الاعمال الصالحة هى ثمرة التوبة والايمان . قال يعقوب « ترون اذا أنه بالاعمال يتبرر الانسان لا بالايمان وحده . (يع ٢ : ٢٤) فعندما يتمم

الخاطىء هذين الشرطين أى الايمان والاعمال الصالحة ينال استحقاق الخلاص بالمسيح ، لا لأن الايمان والتوبة والاعمال الصالحة لها فى حد ذاتها قوة ذبيحة وتكفير عن الخطية وتفى عدل الله وتبرر الخاطىء . بل لأن الخاطىء ينال بها استحقاق الفادى الذى وفى بذاته العدل الالهى وفاء كاملا ، وقدم نفسه كفارة خلاصية أبدية ، فالعدل الالهى قد وفى ولم يبق على الانسان الا أن يناله بالتوبة والايمان . أما قول كنيسة رومية بأن الخطاة فضلا عن الايمان والتوبة يجب أن يتكبدوا قصاصات يوفون بها عدل الله عن خطاياهم . فهذا تعليم غريب ولا ينتج الا احدى نتيجتين . الاولى أن دم المسيح لا يخلص الخطاة ، والفداء الذى قدمه للآب ليس كاملا ، فيجب أن يتمم بالقصاصات التى تفرض على الخاطىء والثانية أن التوبة والايمان والاعمال الصالحة ليست كافية لأن ينال الانسان بها استحقاقات المخلص . وليس من يقول بهذا التعليم لأنه يهدم اساس الدين والايمان المسيحى .

ثانيا : ان هذا التعليم يضاد عدل الله فالباباو يون يسلمون معنا بأن الرب يسوع قدم لله ضحية كاملة ووفاء تاما عن خطايا العالم ليشترى من لعنة الناموس والخطية جميع الخطاة ، فمن يقول ان الله لا يرتضى من الخطاة بالايمان بالمخلص الذى به تمحى خطايانا (رو ٣ : ٢٥ و٢٦) وبالا ثمار اللائقة بالتوبة والايمان بل يطلب منهم احتمال قصاصات أخرى وفاء لعدل الله ، يضطر أن يقول بأن الله تعالى يطلب منهم وفاء ، عدله مرتين ، الوفاء الذى قدمه المسيح ، ووفاء آخر يقدمه الانسان ، وهذا باطل وتجديف .

ثالثا : من المعلوم ان الله تعالى غير محدود فى صفاته وكل خطية تفعل ضد الله غير المحدود تستحق عقابا غير محدود ، فمن ذا الذى يقدر أن يخلصنا و يفى العدل الالهى . هل دم يسوع المسيح الذى صار كفارة لخطايا العالم و يطهر من كل خطية ؟ أم تلك القصاصات ؟ لا لعمرى فانه لو سفك جميع العالم دماءهم لما أمكنهم وفاء جزء من عدل الله ، والا كانت الكفارة التى قدمها المسيح عنا باطلة ، لأن كل انسان يمكنه أن يقوم بتلك القصاصات و يفى بها عن خطاياه وحينئذ لا تبقى حاجة الى موت المسيح عنا ، و بذلك يكون استحقاق الانسان مساو يا لاستحقاق الله ، وهذا كفر محض .

رابعا : ان هذا التعليم يصغر جسامة الخطية ويجعلها كل شىء ما دام الانسان قادرا على وفاء الحقوق التى يستلزمها عدل الله ، ويهون على مرتكبها فعلها فيتمادى فى فعلها نظير بعض قصاصات تفرض عليه فيصبح مبررا باتمامها ، وهذا مخالف لروح الكتاب القائل « من خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة . فكم عقابا أشر تظنون أنه يحسب مستحقا من داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قدس به دنسا وازدرى بروح النعمة » (عب ١٠ : ٢٨ و٢٩) .

و باطلا يستشهد البابا و يون بقول يوحنا : اصنعوا أثمارا تليق بالتوبة (مت ٣ : ٨) فلا يقصد بأثمار التوبة قصاصات تفرض على التائب لوفاء عدل الله ، بل يقصد بها الاعمال الصالحة التي هي علامة قوية وشاهد على رجوع الخاطيء الى الله ، رجوعا حقيقيا ، وهذا ظاهر من قول يوحنا نفسه فانه لم يكن يفرض على الخطاة الذين أقبلوا اليه الا الاعتراف بخطاياهم وتوبتهم وعمل أثمار للتوبة ، وهي الاعمال الصالحة الدالة على حياة جديدة لله . كذلك باطلا يستشهدون بما ورد في الكتاب عن أهل نينوى بأنهم نالوا المسامحة بصومهم وصدق توبتهم (يون ٣ : ١٠) ولا يقصد من التوبة والدموع والبكاء والصوم والرحمة وكل أفعال التوبة ، أنها أوجه مختلفة تفي عدل الله ، بل انها علامات و براهين دالة على انسحاق الخاطيء أمام الله ورجوعه عن خطاياه ، وما هي الا نتائج الايمان بالله لأنها دلائل الندامة ، وهذا ظاهر من قول الله « ولكن الآن يقول الرب ارجعوا الى بكل قلوبكم بالصوم والبكاء والنوح ، ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وأرجعوا الى الرب الهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة و يندم على الشر» (يوئيل ٢ : ١٢ و١٣) فالتوبة والندامة والصوم وأعمال الرحمة ليست لوفاء عدل الله غير المحدود ، ولا هي ثمن صفحه وغفرانه ، بل هي دلائل توبتنا التي تجعله أن يصفح عنا . ولا يمكن أن ننال الغفران بثمن زهيد كهذا . قال القديس يوحنا ذهبي الفم « ما الذى نفع أولئك القوم (أى أهل نينوى) فانهم ضمدوا جراحهم بالصوم ، وكان ذلك الصوم شديدا . وضمدوها بالجلوس على الارض ولبس المسوح والرماد والانتحاب ، ضمدوها أيضا بتغيير سيرتهم الرديئة . فلننظر الآن أى علاج من هذه العلاجات جعلهم أصحاء . فقد قال الكتاب أن الله رأى أن كل واحد منهم رجع عن طريقه الشريرة وندم على الشر الذى نوى أن يصنعه بهم . فلم يقل اذن أنه رأى الصوم والمسح والرماد . وأنا لا أعني أنه يقصد بذلك أن يلغي الصوم . حاشا . بل يحث أن نجعل صومنا أفضل بالابتعاد عن الشر» (مقالة ٤ : ٥ و٦ على ٢ كو) .

الفصل السابع

الخطايا التي يشملها سر التوبة وماهية الخطية التي لا تغفر

نتعلم من الكتاب المقدس أنه لا توجد خطية مهما كانت ثقيلة الا وهي قابلة للغفران والمسامحة، متى تقدمتها توبة صحيحة واعتراف بندامة وايمان تام بالمسيح ورجاء باستحقاقه. وقد صرح سيدنا له المجد قائلا « لأني لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة الى التوبة » (مت ٩ : ١٣) « لأن ابن الانسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك » (١٨ : ١١) « هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار» (مت ١٨ : ١٤) وقد غفر له المجد لبطرس الذى أنكره وقبل الزانية والعشار واللص. قال بطرس الرسول « وهو لا يشاء أن يهلك اناس بل أن يقبل الجميع الى التوبة » (٢ بط ٣ : ٩) وقال يوحنا الرسول « أن خطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا » (١ يو ٢ : ١ و٢) وقال أيضا « ودم يسوع ابنه يطهرنا من كل خطية. ان قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا. ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا و يطهرنا من كل اثم » (١ يو ١ : ٧ — ٩) و بطرس الرسول دعا اليهود الذين صلبوا المسيح قائلا « توبوا كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا » (أع ٢ : ٣٨) ودعا سيمون الساحر المضل الى التوبة قائلا « تب من شرك هذا واطلب الى الله عسى أن يغفر لك فكر قلبك » (أع ٨ : ٢٢) و بولس الرسول صفح للمختلط بالدم في كورنثوس بعد ما وضع عليه القصاص الخ (٢ كو ٢ : ٦ — ٨).

أما قول السيد « كل خطية وتجديف يغفر للناس. وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس. ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له. وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي » (مت ١٢ : ٣١ و٣٢) وقول يوحنا الرسول « ان رأى أحد أخاه يخطىء خطية ليست للموت يطلب فيعطيه حياة للذين يخطئون ليس للموت. توجد خطية للموت. ليس لأجل هذه أقول أن يطلب. كل أثم هو خطية وتوجد خطية ليست للموت » (١ يو ٥ : ١٦ و١٧) فالمراد بالتجديف على الروح القدس المقاومة لحقيقة الله الظاهرة والسقوط في الكفر التام، ونسبة معجزات المسيح الى الشيطان. والخطية التي للموت التي أشار اليها يوحنا الرسول هي رفض الحياة الأبدية التي أتى بها المسيح وعناد القلب القاسي الذى لم يبق قادرا على

قبول الحق وهى مثل خطية التجديف على الروح القدس ، لأن الذى يرتكبها يكون قد رفض الروح القدس الذى به وحده يمكن الخاطىء أن يرجع الى الله لينال المغفرة منه ، وتشبه خطية المرتدين التى أشار اليها بولس الرسول في (عب ٦ : ٤ ــ ٦) لأنهم رفضوا كفارة المسيح وعلى ذلك يكون فى كلتا الحالتين عدم امكان ترك الخطايا أدبيا ليس من قبل الله ونعمته ، بل من قبل الخاطىء غير التائب . أما الله تعالى فهو مستعد لأن يغفر كل خطية عندما يرجع الخاطىء عن خطيته و يتوب . وقد قال القديس يوحنا ذهبى الفم فى هذا الصدد « ما معنى هذا القول ؟ معناه أن هذه الخطية خصت بعدم المغفرة خلافا لسائر الخطايا . ولماذا ذلك ؟ لأنهم كانوا يجهلون المسيح من هو. ولكن الروح القدس كانوا يعرفونه معرفة كافية . لأن الأنبياء انما به نطقوا ما نطقوا . وكل أصحاب العهد القديم كانوا يعرفونه معرفة عظيمة جدا . فما يقوله هذا معناه : أنم تقاوموننى وتشكون فى نظرا للجسد الذى أنا لابسه . ولكن لعلكم تقدرون أن تقولوا فى الروح أنكم تجهلونه ولهذا فتجديفكم غير مغفور وسوف تقاصون عنه هنا وهناك ... ومثال لخطية التجديف على الروح القدس هو يهوذا الاسخر يوطى الذى انقطع منه كل رجاء توبة ، وما كانت ندامته سوى ز يادة خطية على خطية فانه ذهب وشنق نفسه وارتكب اثما فوق اثمه . فعلى ذلك طالما يرجى من الخاطىء ندامة فلا تكون خطيته تجديفا على الروح القدس ، ولكن متى صمت صوت ضميره وتأصل فى قلبه بغض شيطانى ضد نعمة الله التى كان ذاقها ، وصارت حالته شبيهة بحالة الشيطان وبحالة يهوذا الاسخر يوطى ولم يبق له رجاء توبة . حينئذ تكون خطيته تجديفا على الروح القدس ، ولا يمكن أن يحصل على غفران نظرا للحالة الشنيعة التى وصل اليها .

وقانا الله من مثل هذا التخلى الفظيع » (تفسير متى مقالة ٤١ : ٣) .

الفصل الثامن

فساد تعليم كنيسة رومية فى أوراق الغفرانات

أثبتنا فى الفصل السادس صفحة ١١٧ أن القصد من التأديبات الكنسية هو تهذيب الخاطىء واصلاح حاله وتقويم سيرته . وأوضحنا بطلان تعليم كنيسة رومية التى تزعم أن الغرض من هذه التأديبات وفاء العدل الالهى . ونذكر بالأسف أن كنيسة رومية بناء على ذلك التعليم الباطل اخترعت تعليما آخر منافيا للمبادىء المسيحية . وهو الغفرانات . وأساسه عندهم أن تلك القصاصات التى تفرض على التائب القصد منها كما قلنا وفاء عدل الله الذى أهانه الخاطىء بخطاياه ، وحيث أن الانسان لا تساعده قواه على القيام بالاعمال التى يوفى بها عدل الله ، وكثيرا ما يهمل تلك القصاصات فينبغى أن يعوض عن العدل الالهى من كنز الكنيسة المؤلف من استحقاق ربنا يسوع المسيح ، ومن فضائل القديسين . و بناء على هذه النظرية الفاسدة يصدرون أوراق غفرانات يوزعها البابا وتباع وتشترى كالسلع متضمنة الصفح والغفران ليس عن الخطايا الماضية فقط بل والمستقبلة أيضا . وترى فى تلك الاوراق أن من تلا صلاة صغيرة لمار يوسف يصير له غفران ٣٠٠ يوم !! ، وغفران ١٠٠ سنة سلفا لمن تلا الوردية البابا وية !! وقس على ذلك .

و يظهر فساد و بطلان هذا التعليم من الأدلة الآتية :

أولا : ان هذا التعليم لا أساس له مطلقا فى الكتاب المقدس الذى يعلمنا أن الغفران هو لله وحده . وهو استحقاق آلام ربنا يسوع المسيح الذى ليس بأحد غيره الخلاص . ولا يوجد فى الكتاب ما يشير الى استحقاقات للقديسين والملائكة ، يمكن توز يعها على البشر ، كما أن لا أساس له فى التقليد الكنسى ، ولا فى تعاليم آباء الكنيسة . وكل تعليم لا أساس له فى الكتب المقدسة والتقليد الرسولى هو باطل واختراع ترفضه الكنيسة .

ثانيا : فساد المبدأ الذى بنى عليه هذا التعليم فقد علمنا مما سبق فساد رأيهم بشأن التأديبات الكنسية ، وانه مضاد كل المضادة للمبدأ المسيحى .

ثالثا : ان استحقاقات ربنا يسوع المسيح حقا هى كنز غير محدود لا يفرغ لنعمة التبر ير. ولكن هذه الاستحقاقات لم توهب للبابا ليوزع منها كيف يشاء بغير حساب ، وانما ينالها الناس وتمنح لهم بشروط أخصها الايمان والتوبة والعزم الثابت على اصلاح السيرة وأثمار التوبة التى

هى الاعمال الصالحة . وأما منح الخطاة استحقاقات يسوع المسيح قبل أن يتمموا شروط التوبة . وعتقهم من القصاصات التى تستلزمها خطاياهم للعدل الالهى ومنحهم أوراق غفرانات فهو تعد ظالم خارج عن حدود كلمة الله .

رابعا : ان فضائل القديسين مهما كانت عظيمة لا يمكن أن تكون زائدة عما يجب و يفضل عنها حتى يوزع منها على الغير . فان هذا التعليم غريب عن تعاليم المسيح .

١ ـــ لأن اعمال القديسين مهما كانت فاضلة فانها لا تصير كاملة ومقبولة بذاتها بل بقوة النعمة الالهية ، ولها مكافأتها أمام الله بناء على استحقاق مخلصنا يسوع .

٢ ـــ ان الشريعة الانجيلية التى نسلك بموجبها طريق الحياة الابدية ليست محدودة كما قال المرنم « لكل كمال رأيت حدا . أما وصيتك فواسعة جدا » (مز ١١٩ : ٩٦) فمهما عمل الانسان من الفضائل لا يمكنه أن يصل الى المطلوب بالوصية القائلة « فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (مت ٥ : ٤٨) وهذا الكمال هو المطلوب من القديسين ، ومهما تقدم المؤمنون فى هكذا الكمال فانهم لا يصلون الى نهايته حتى قال بولس الرسول « ليس أنى قد نلت، أو صرت كاملا ولكنى أسعى لعلى أدرك الذى لأجله أدركنى أيضا المسيح يسوع . أيها الاخوة أنا لست أحسب أنى قد أدركت . ولكنى أفعل شيئا واحدا اذا أنا أنسى ما هو وراء وامتد الى ما هو قدام . أسعى نحو الغرض لاجل جعالة دعوة الله العليا فى المسيح يسوع . فليفتكر هذا جميع الكاملين منا وان افتكرتم ثم شيئا بخلافه فالله سيعلن لكم هذا أيضا . وأما ما قد أدركناه فلنسلك بحسب ذلك القانون عينه ونفتكر ذلك عينه » (فى ٣ : ١٢ ـــ ١٦) وكفى قول الرب يسوع الذى قال « من منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له اذا دخل من الحقل تقدم سريعا واتكىء . بل الا يقول له أعدد ما أتعشى به وتمنطق وأخدمنى حتى آكل واشرب و بعد ذلك تأكل وتشرب أنت . فهل لذلك العبد فضل لانه فعل ما أمر به . لا أظن . كذلك أنتم أيضا متى فعلتم كل ما أمرتم به فقولوا اننا عبيد بطالون . لأننا انما عملنا ما كان يجب علينا » (لو ١٧ : ٧ ـــ ٩) .

٣ ـــ يتضح من قول الرب يسوع « فى بيت أبى منازل كثيرة » (يو ١٤ : ٢) أن لكل قديس منزلة خاصة من الغبطة وجائزة خاصة . ومهما كانت أعمال الانسان فانه ينال عنها الجائزة المناسبة لها . ولا يمكن أن تزيد أعماله عما هو واجب عليه ومطلوب منه أو تفضل عنه لينتفع بها غيره كأنها غير نافعة لصانعها . فأين اذن تلك الفضائل الزائدة التى يمكن التوزيع منها على الخطاة ؟

خامسا : ان هذا التعليم مضر بالناس لأنه يحرم الخطاة من الوسائط الضرورية لعلاج

أمراضهم الروحية . و يغش الشعب و يضله ضلالا فظيعا اذا يصور لهم سهولة المصالحة مع الله ومع الكنيسة .. و يفتح بابا للأغنياء للتمادى فى الخطايا ما داموا يستطيعون أن يشتروا أوراق غفرانات تصفح عن خطاياهم وتبررهم أمام الله ، وتبيح لهم الخطايا المستأنفة . كما أنه يملأ الفقراء يأسا اذ لا قدرة لهم على شراء تلك الاوراق . والخلاصة أن هذا التعليم سبب فسادا عظيما فى الآداب العمومية كما يشهد بذلك التار يخ .

سادسا : هذا التعليم ينكره كثيرون من آباء وعلماء الكنيسة الرومانية أنفسهم . و يعترفون بأنه تعليم حديث . قال القديس أنطونين رئيس الاساقفة فى فيرنزا « بخصوص الغفرانات ليس لها قول مخصوص فى الكنيسة المقدسة . ولا يوجد ذكر للغفرانات أصلا فى كتب المعلمين القدماء » (فصل ١ قضية ١ و٣ عن الغفرانات) وقال الكاردينال كايتانوس « أنه لو كان لنا خبر محقق عن كيف دخلت عادة الغفرانات فى الكنيسة لكان ذلك يعيننا فى الفحص عن المطهر ولكن لا يوجد ذكر هذه الاشياء أصلا فى الكتب المقدسة ولا فى كتب المعلمين أن كانوا رومانيين او لا تينين » (عن الغفرانات رأس ٢)وقال الكاردينال نيش « أنه ما دام الناس لم يكن لهم فكر عن المطهر لم يفتشوا عن الغفرانات لأن كل اعتبار الغفرانات هو المطهر . وحيث أن المطهر لم يكن معروفا عند الكنيسة الجامعة الا فى أجيالنا الاخيرة فليس بعجب اذا كان فى أول الكنيسة لم تكن الغفرانات موجودة فالمطهر ربما لم يوجد ذكره قط فى كتب الآباء الاقدمين ، والروم حتى يومنا هذا لا يؤمنون به ، واللا تينيون قبلوه ليس فى وقت واحد بل رو يدا رو يدا » (نقض لوثيروس قضية ١٨) والعالم وأسالوس التساوى الذى يسمى نور العالم لسمو علمه ، وكان صديقا حميا للبابا سكستوس الرابع ، قال فى احدى رسائله « ان البابا ليس له سلطان أن يعطى غفرانا ولا ساعة واحدة وانه أمر مزح وهزوء انه بعض الاقاوت يعطى غفرانا على سبع سنين لأجل خطية . و بعض أوقات على سبعمائة سنة أو الى الابد بالغفران الكامل ، وقال أيضا « أنه لا يوجد أصلا ذلك التميز بين غفران الخطية وقصاصها المبنى عليه تعليم الغفرانات وان هذا التعليم هو من قبيل الطمع بالمال . وان كان الله ذاته لا يعطى غفرانا كاملا للقلب المنسحق التائب فكم يكون البابا أقل منه . وأما اذا كان الله يغفر فكيف للبابا سلطان أن ير بط !! وان كان لا يوجد للخاطيء قصاص بعد ما يغفر الله له فالبابا ماذا يحله !! » . وقال فى جوابه لخصمه انكولار يس « ان الغفرانات قبل زمان البرتوس وتوماس اكو يناس كانت محسو بة كأنها كذبة تقو ية وانه الى يومنا هذا يبقى كثير من المعلمين مضادين عادة دولة رومية فى هذا الشأن . وقال المؤرخ ثوانوس أحد كبار العلماء الشرفاء بين الرومانيين . ان فى سنة ١٥١٥ كان البابا لاون العاشر رجلامسلّماً ذاته لكل نوع من العيشة المتراخية النجسة ، لكى يجمع مالا من كل جانب لأجل مصار يفه الجز يلة ، وكان يرسل أوراق الغفرانات التى فيها الوعد بمحو كل خطية ويهديه الحياة الابدية فى جميع ممالك المسيحيين وكان معينا فيها الثمن الذى يجب على كل واحد أن يعطيه بمقدار خطيته .

واختـار البابا له جباة وخزنة يحفظون الاموال فى جميع الاماكن ومبشرين يطوفون حيثما يكون لهم منـفـعـة كـثيرة من هذه الغفرانات . وهؤلاء المبشرين قد عظموها جدا وعظموا قوتها فى خلاص الأنفس الشقية المطهر » (تاريخ كتاب ١ وجه ٣) وقالت القديسة بريجيتا التى كانت فى الجيل الرابع عشر « ان البابا قد جمع الوصايا العشر كلها فى واحدة وهى « قدم لى مالا » .

والخلاصة ان هـذا التـعليم لـيس غريبا فقط عن المبادىء المسيحية ولكنه يجلب على المسيحية عارا كبيرا !!

٥ ـــ سر مسحة المرضى

الفصل الأول

تعريف السر وتأسيسه

سر مسحة المرضى هو سر مقدس به ينال المريض المؤمن شفاء أمراضه الروحية والجسدية اذ يمسحه الكاهن بزيت مقدس و يستمد له النعمة الالهية ، و يسمى سر الزيت المقدس .

والفرق بين هذا السر وسر التوبة هو أن سر التوبة منح من الله ليكون واسطة لشفائنا من الامراض الروحية فقط وهو سر عام للجميع أما سر الزيت فقد منح ليكون علاجا خاصا للمرضى لشفاء أمراضهم الجسدية والروحية .

وهذا السر مؤسس من السيد المسيح له المجد ، فان يعقوب الرسول يشير الى ذلك صريحا بقوله « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه و يدهنوه بزيت باسم الرب . وصلاة الايمان تشفي المريض والرب يقيمه . وان كان قد فعل خطية تغفر له » (يع ٥ : ١٤ و١٥) فمن هذا القول يتضح أن هذا السر مؤسس من الله وأن فعله سري . فان يعقوب الرسول يكتب الى مؤمني عصره مشيرا الى شيء معروف وواسطة شفائية معلومة لديهم ، ويحثهم على استعمالها عند المرض . ومن المعلوم أن الرسل الاطهار لم يعلموا شيئا من تلقاء أنفسهم ، بل كل ما علموه ونادوا به انما تعلموه من السيد المسيح واستلموه منه ونادوا به ملهمين من الروح القدس ، لأنهم وكلاء أسرار الله لا مؤسسيها .

وقد مارس الرسل هذا السر عندما أرسلهم المسيح للكرازة كما قال مرقس الانجيلي « ودهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم » (مر ٦ : ١٣) وان كنا لا نعلم الوقت الذي فيه أسس الرب يسوع هذا السر وأمر به ، فلا عجب في ذلك لأن اشياء أخر كثيرة صنعها يسوع لم تكتب واحدة واحدة (يو ٢١ : ٢٥) لاسيا وأننا نعلم أنه كان يظهر لهم بعد قيامته مدة أربعين يوما و يتكلم عن الامور المختصة بملكوت الله (أع ١ : ٣) .

الفصل الثانى

تفنيد الآراء الفاسدة عن هذا السر

ارتأى البعض ممن ينكرون الاسرار المقدسة أن يعقوب الرسول يذكر مسحة الزيت كواسطة بسيطة وعادية لشفاء الامراض . كما ارتأى آخرون أنها موهبة شفائية أعطيت للرسل ليشفوا بها المرضى كما فعلوا العجائب .

ونفند الرأى الاول بما يأتى :

أولا : ان يعقوب الرسول لم يتكلم عن هذا السر كعادة كانت مستعملة بل كسر حائز لكل الشروط اللازمة لاتمام السر وهى :

١ ــ الشخص القابل السر وهو المريض بقوله « أمريض أحد بينكم » .
٢ ــ خادم السر بقوله « فليدع قسوس الكنيسة » .
٣ ــ صورة السر وهى « الصلاة » بقوله « فيصلوا عليه » .
٤ ــ مادة السر بقوله « و يدهنوه بزيت »
٥ ــ مفعول السر وهو الشفاء بقوله « صلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له » .

ثانيا : ان قوة الزيت مهما كانت لا يمكن أن تكون دواء عموميا لكل مرض . ونحن نرى يعقوب الرسول يتكلم هنا كلاما عموميا يعم كل مرض بقوله « أمريض أحد بينكم » .

ثالثا : لو كان الزيت دواء عادياً لأمكن الأصدقاء أو أقارب المريض أو أحد الاطباء أن يتمموه و يستعملوا له هذه الواسطة لشفائه . غير أننا نرى الرسول يحصر ذلك فى قسوس الكنيسة بقوله « فليدع قسوس الكنيسة » والرسول لا ينسب قوة الشفاء الى الزيت وحده بل الى صلاة الكهنة بقوله « فيصلوا عليه و يدهنوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه » و يضيف الى شفاء المريض غفران الخطايا بقوله « وان كان قد فعل خطية تغفر له » وهذا الغفران لا يمكن بوجه من الوجوه أن ينجم عن الشفاء الجسدى الذى يمكن نيله بالادوية والاطباء .

ونفند الرأى الثانى القائل بأن فعل مسحة الزيت الذى ذكره يعقوب الرسول هو احدى المعجزات بما يأتى :

أولا : ان مواهب الشفاء بالمعجزات لم ترتبط مطلقا بعلامة معينة كما هو واضح من تاريخ المخلص والرسل . على أن يعقوب الرسول يذكر هنا مادة معينة لعمل المسحة وهى الزيت .

ثانيا : ان الذين وهبت لهم مواهب الشفاء وفعل الآيات أعطيت لهم قوة على شفاء الامراض فقط ، ولم تعط لهم مقدرة على غفران الخطايا لأن هذه القوة قد منحها الرب يسوع لرسله ولخلفائهم من بعدهم دون غيرهم ، و يعقوب الرسول يشير بأن من مفاعيل سر المسحة علاوة على شفاء المرض غفران الخطية أيضا .

ثالثا : ان موهبة العجائب وموهبة شفاء الامراض كانت فى أزمنة الرسل عمومية لكل المؤمنين من كل صنف ورتبة (راجع ١ كو ١٢ : ٧ ــ ١٢) فلو كان كلام يعقوب الرسول يشير الى موهبة شفاء الامراض بالمعجزات لكان الواجب عند الحاجة الى الشفاء ، الالتجاء الى من وهب هذه الموهبة بصرف النظر عن مركزه ورتبته . ولكن الرسول يأمر صريحا بأن ندعو قسوس الكنيسة لتتميم سر الزيت المقدس ، أى أنه خصصه بأشخاص معلومين .

فما تقدم يتضح أن الرسول لم يقصد شفاء الامراض بواسطة معجزية ، بل يتكلم عن طقس كنسى معروف ، وسر معين يتممه الكهنة دون غيرهم .

الفصل الثالث

أقوال الآباء عن هذا السر

ان هذا السر المقدس كان مستعملا منذ الأزمنة الرسولية لأن الكنيسة لم تترك استعمال شيء مما تسلمته ، ولم تخالف مطلقا وصية صريحة يوصى بها يعقوب الرسول ، و يؤ يد هذه الحقيقة أقوال آباء الكنيسة الاقدمين . فنهم من اكتفى باسناد سر المسحة الى كلام يعقوب الرسول . ومنهم من سماه عملا سر يا . ومنهم من سماه سرا . فالعلامة أوريجانوس عند تعداده الوسائط للحصول على غفران الخطايا ، كالمعمودية والاستشهاد قال « توجد واسطة سابعة أيضا لغفران الخطايا لكنها قاسية وصعبة وهى الغفران بالتوبة حين يبل الخاطىء فراشه بدموعه وتصير له الدموع خبزا نهارا وليلا . وحين يعترف بخطيته أمام كاهن الله يطلب الغفران قائلا مثل داود « اعترف لك بخطيتى ولا أكتم اثمى . قلت أعترف للرب بذنبى وأنت رفعت آثام خطيتى » (مز ٣٢ : ٥) ثم يقول هذا العلامة « وهنا يتم ما قيل من يعقوب الرسول : أمر يض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيضعوا عليه الايدى ويمسحوه بز يت باسم الرب وصلاة الايمان تخلص المر يض وان كان مرتكبا خطايا تغفر له » .

ولنلاحظ هنا فى قول أوريجانوس أنه أبدل عبارة الرسول « يصلوا عليه » بقوله « يضعوا عليه الايدى » و بذلك يشير الى العادة الجار ية منذ الازمنة الاولى حتى الآن فى تتميم سر الزيت ، وهى وضع الكاهن يده على رأس المر يض حين يصلى عليه . ومن كلام أوريجانوس نستنتج أيضا أنه لا يضع فاصلا بين سرى التوبة والمسحة بالز يت لأنه يتكلم عن الواحد بعد الآخر، وهذا يدل على أن سر المسحة كان يتمم قديما بعد سر التوبة .

والقديس يوحنا ذهبى الفم يقول عند مقابلته بين الكهنة والآباء الجسديين « أما أولئك (أى الوالدين) فيلدوننا لهذه الحياة وأما هؤلاء فلتلك . أولئك لا يستطيعون أن ينقذوننا من الموت الجسدى ولا أن يز يلوا مرضا يتسلط علينا . وأما هؤلاء فكثيرا ما خلصوا نفسا مر يضة وقر يبة من الهلاك ، وجعلوا عذاب البعض خفيفا جدا ، ولم يدعوا كثير ين أن يسقطوا فى عذاب أو أن يدنوا منه ، ليس بالتعليم والارشاد فقط بل بمساعدتهم بالصلوات أيضا . لأن سلطانهم فى غفران الخطايا لا ينحصر فى البرهة التى يلدوننا فيها بالمعمودية بل يمتد الى ما بعدها أيضا . لأنه يقول « أمر يض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه و يدهنوه بز يت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المر يض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له » ثم ان الوالدين الطبيعيين لا يستطيعان أن

ينفعا أولادهما بشيء اذا سقطوا تحت غضب أحد من ذوى التقدم والاقتدار ([1]) فى هذه الدار ، لكن الكهنة يسترضون لهم لا رئيسا ولا ملكا أرضيا ، بل الله ذاته الذى يغضبونه مرارا كثيرة » (خطاب ٣ : ٦ فى الكهنوت) .

والقديس كيرلس الاورشليمى يقول وهو يحارب السحر « أما أنت فاذا كنت موجعا فى اجزاء جسدك وآمنت بالحقيقة أن دعاءك باسم رب الصباؤوت وسائر أنواع الدعاء التى ينسبها الكتاب الالهى لله بحسب طبيعته تحل مصيبتك ، فصل هذه الكلمات وادع بها عن نفسك لأنك تعمل عملا أفضل من أولئك المؤمنين بالسحر ، اذا كنت تقدم المجد لله لا للارواح النجسة . واننى لمتذكر الكتاب الالهى حيث يقول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه و يدهنوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له » (فى العبادة بالروح والحق كتاب ٤) .

و يبين القديس غريغوريوس فى كتابه فى الاسرار كيفية تتميم سر الزيت مع صلواته ، وفيه يذكر أن الكاهن يمسح المريض بزيت على اسم الآب والابن والروح القدس و يقول له : « لا يبق فيك الروح النحس مختفيا بل فلتسكن فيك قوة المسيح الاله والروح القدس لكى تشفى بتتميم هذا السر وبمسحة الزيت المقدس ، و بصلواتنا بقوة الثالوث القدوس وتعود الى الصحة التامة » (جزء ٣ : ٢٣٥) .

---

(١) أى أصحاب المراكز العالية والسلطة .

الفصل الرابع

اتفاق جميع الكنائس وشهادة التاريخ

وشهادة ناكرى الأسرار

نضيف الى ما تقدم أن جميع الكنائس شرقا وغربا متفقة على حقيقة هذا السر. وهذا الاتفاق العام برهان قاطع على أن مسحة المرضى سر من أسرار الكنيسة، مسلم لها منذ الازمنة الرسولية. فان الكنائس مع اختلافها فى أمور كثيرة لم تختلف فى هذا السر.

وقد شهد موسهيم المؤرخ البروتستانتى لهذا السر بقوله « ان المسيحيين الاولين لما مرضوا مرضا مخطرا كانوا يدعون شيوخ الكنيسة « أى القسوس والاساقفة » و بعد أن يعترف المريض بخطاياه يستودعه الشيوخ لله بالتضرعات الخشوعية و يدهنونه بالزيت » (ف ١ : ف ٢ قسم ٤) والكنيسة الاسقفية تعترف بصحة هذا السر وتمارسه بصلوات مخصوصة وفصول انجيلية كما هو عندنا (راجع كتاب الصلاة العامة صفحة ٢٧٤ ـــ ٢٨٥).

ويحسن بنا أن نلخص هنا ما قاله القس الانجليزى ف . ج . سمث صاحب كتاب (انارة الالباب فى شرح وتعليم عقائد الكتاب) عند كلامه عن الشفاء الالهى « أن الله لم يهمل أمر أجسادنا فى هذه الحياة بل قسم لها نصيبا من عنايته، ويهمه أمر تقدمنا الجسدى بدليل ما جاء فى رسالة يوحنا الثالثة والعدد الثانى « أيها الحبيب فى كل شيء أروم أن تكون ناجحا وصحيحا كما أن نفسك ناجحة » وقل من يهتم بهذا الامر أمر اعتناء الله بالجسد وشفائه. وقل أيضا ايمان الناس به ولكن عدم أمانتهم لا يبطل أمانة الله. وكل ما علينا هو أن نصدق كلمة الله ومواعيده ونسير بموجبها، لا بموجب ما يرتئيه العقل البشرى و يصدقه، ومن ثم يعمل الله فينا طبقا لمواعيده. فان الله كان لا يزال الشافى العظيم والطبيب الاكبر. و بعد أن أورد نصوصا كثيرة من النبوات تنبىء بأن المسيح سيكون شفاء للامم، كما أورد من الانجيل ما يدل على اتمام تلك النبوة فى المسيح له المجد وشفائه للمرضى (راجع اش ٤٢ : ٦ و٧ مع لو ٤ : ١٨ ـــ ٢١ ، اش ٢٥ : ٤ ـــ ٦ مع مت ٨ : ١٦ و١٧ ، ١١ : ٤ و٥ وملا ٤ : ٢ مع مت ٤ : ٢٣ و٢٤ و ٩ : ٢ ـــ ٦ و ٣٥ و٣٦ و ١٤ : ١٤ ، ١٥ : ٣٠ و٣١ مر ١ : ٤٠ ـــ ٤٤) قال وأعطى هذه القوة (اى الشفاء) لتلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها و يشفوا كل مرض وكل ضعف (مت ١٠ : ١) وأرسلهم وأوصاهم قائلا وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين انه قد اقترب ملكوت

السموات . اشفوا مرضى . طهروا برصا . أقيموا موتى . اخرجوا شياطين . مجانا أخذتم مجانا أعطوا (مت ١٠ : ٧ و٨) فخرجوا وصاروا يكرزون أن يتوبوا . وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم (مر ٦ : ١٢ و١٣) وجرت على أيدى الرسل آيات وعجائب كثيرة فى الشعب ... حتى أنهم كانوا يحملون المرضى خارجا فى الشوارع و يضعونهم على فرش وأسرة حتى اذا جاء بطرس يخيم ولو ظله على أحد منهم . واجتمع جمهور المدن المحيطة الى أورشليم حاملين مرضى ومعذبين من أرواح نجسة وكانوا يبرأون جميعهم (أع ٥ : ١٢ — ١٦) « وهذه الآيات تتبع المؤمنين . يخرجون الشياطين باسمى و يتكلمون بألسنة جديدة . يحملون حيات وان شربوا شيئا مميتا لا يضرهم و يضعون أيديهم على المرضى فيبرأون » (مر ١٦ : ١٧ و١٨) راجع أيضا (مر ١٦ : ٢٠ ، أع ٨ : ٥ — ٨ ، ١٤ : ٨ — ١٠ ، ١٩ : ١٠ — ١٢) و بعد أن أثبت أن هذه الموهبة « موهبة الشفاء » تدوم فى الكنيسة (راجع مت ٢٨ : ١٩ و٢٠ ، مر ١٦ : ١٥ — ١٨ ، ١ كو ١٢ : ٢٨ ، أع ١٠ : ٤٦ و١٩ : ٦) قال « وهذا العمل منوط بكل خدمة الله ، وهو قسم من العمل المعطى لهم من الله ، ولهذا يقول يعقوب الرسول : أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة الخ . هذه هى كلمة الله فما المنفعة من نكرانها وحذفها والهزء بها الخ .

الفصل الخامس

حق تتميم السر للكهنة ونتائجه

ان سر المسحة يتم فى الكنيسة منذ العصور الاولى للمرضى بواسطة القسوس حسب قول الرسول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة » وليس الغرض من هذا القول أن لا حق للاساقفة فى اتمامه فان الاساقفة هم خلفاء الرسل ووكلاء سرائر الله (١ كو ٤ : ١) ولا يعقل أن سرا يتممه القسوس ، لا يتممه الاساقفة الذين هم أسمى رتبة منهم ، وانما عين الرسول القسوس هنا لسببين **أولهما** لأنه يمكن لا تمام السر دعوة أكثر من قسيس واحد حيث أنه يمكن وجودهم بكثرة فى مدينة واحدة ، بخلاف الاساقفة الذين لا يوجدون بكثرة ، فضلا عن أن الكتاب يذكر اسم القسوس أحيانا و يريد بهم الاساقفة كما جاء فى (أع ٢٠ : ١٧ و٢٨) **وثانيهما** لأن الاساقفة مشغولون بمهام كثيرة يتعذر معها عيادة المرضى بأنفسهم ، وكانت العادة قديما تتميم هذا السر بواسطة سبعة قسوس ولكن بما أن الرسول لم يحدد عدد الذين يتممونه وبما أن العدد ليس من الامور المحتمة فى الكنيسة ، فيمكن أن يتمم بأى عدد أقل من السبعة الى الثلاثة أو الواحد بحسب الظروف .

أما نتائج سر المسحة فهى : —

أولا — شفاء الامراض الجسدية فانه أعطى لهذه الغاية حسب قول الرسول « أمريض أحد بينكم . . . وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه » وقد يكون هذا السر سبب تعزية وقوة لكثيرين فى احتمال أوجاعهم . وأما الذين لا يحصلون على نفع هذا السر فعدم انتفاعهم ناشىء اما من عدم استحقاقهم ، واما لعدم ايمانهم . فعلينا أن نتممه بكل ايمان واخلاص مسلمين أنفسنا لمشيئة الله الذى وعد بأنه ان طلبنا شيئا حسب مشيئته يسمع لنا (١ يو ٥ : ١٤) .

ثانيا — شفاء الامراض الروحية فان **يعقوب الرسول** يقول « وان كان قد فعل خطية تغفر له » وهذا يدل على أن الرسول يفترض بأن المتقدم الى هذا السر بالايمان التام يلقى اتكاله على الله و يندم على خطاياه و يتقدم الى سر التوبة أولا للانتفاع من هذا السر المقدس .

أما ما تفعله كنيسة رومية فى هذا السر من عدم منحه الا للمشرفين على الموت بزعم أنه مسحة أخيرة للمريض حتى أنهم لا يمسحونه به الا عند اقتراب وفاته فهو تعليم غريب مخالف لقول **يعقوب الرسول** وأقوال الآباء وعادة الكنيسة القديمة ، ولم تبدأ هذه البدعة الا فى القرن الثانى عشر.

٦ ــ سر الزيجة

الفصل الأول

الزيجة من حيث هى ناموس طبيعى ومن حيث هى سر

الزيجة ناموس طبيعى سنه الله تعالى منذ ابتداء الخليقة بدليل قول موسى النبى فى سفر التكوين « فخلق الله الانسان على صورته . على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم . و باركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض » (تك ١ : ٢٧ و٢٨) وقول الرب بعد خلق آدم « ليس جيدا أن يكون آدم وحده . فاصنع له معينا نظيره » (تك ٢ : ١٨) وعند خلق المرأة قال « فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام . فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما . و بنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة لأنها من أمرء أخذت . لذلك يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته و يكونان جسدا واحدا » (تك ٢ : ٢١ ــ ٢٤) .

ولما فسد البشر وهلك العالم بالطوفان لم يبطل الله هذا الناموس ، بل عاد وثبته كما يقول الكتاب « و بارك الله نوحا و بنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض » (تك ٩ : ١) وقد ثبت الرب يسوع رباط الزيجة و باركه بحضور العرس فى قانا الجليل (يو ٢ : ١ ــ ١١) ورفع الزيجة الى درجة السر لما أجاب على سؤال الفريسيين ، عما اذا كان مسموحا للانسان أن يطلق امرأته لكل سبب . فقال له المجد « أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى . وقال : من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته و يكون الاثنان جسدا واحدا . اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد . فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان » (مت ١٩ : ٤ ــ ٦) وقد أكد هذه الحقيقة بولس الرسول بقوله « لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل . ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل . غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل فى الرب . لأنه كما أن المرأة هى من الرجل هكذا الرجل أيضا هو بالمرأة . ولكن جميع الاشياء هى من الله » (١ كو ١١ : ٨ ــ ١٢) وقال « اذا من زوج عذراءه فحسنا يفعل » (١ كو ٧ : ٣٧) كم بالشجب على الذين يحتقرون رباط الزيجة المقدس (١ تى ٤ : ١ و٢) وقد حذا حذو الرسل جميع الآباء القديسين فى اعتبارهم أن الزيجة رباط مقدس مؤسس من الله تعالى .

الفصل الثانى

الغاية من الزيجة وتأسيس هذا السر

للزيجة غايتان الغاية الأولى هى نمو النوع البشرى وحفظه بالتناسل حسب الأمر الالهى « أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض » وترتبط بهذه الغاية غاية أخرى وهى نمو وازدياد أعضاء كنيسة الله .

والغاية الثانية هي التعاون والتعاضد ومساعدة كل من الزوجين للآخر وفقا لقول الرب : « **ليس جيدا أن يكون آدم وحده . فاصنع له معينا نظيره** » ولذا خلق الله المرأة من ضلع آدم ليكون بينهما اتحاد طبيعي و يكون رباطهما قو يا و يعيشا كل حياتهما بدون انفصال . و بعد أن سقط الانسان فى الخطية أضيفت الى الغايتين المذكورتين غاية أخرى هى تحصين الانسان من الخطية وكبح جماح الشهوات بالاقتران الشرعى ، ولذلك قال الرسول « حسن للرجل أن لا يمس أمراة . ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ... ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل . وكذلك الرجل أيضا ليس له تسلط على جسده بل للمرأة . لا يسلب أحدكم الآخر» الى أن قال « ولكن أقول لغير المتزوجين وللارامل أنه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا . ولكن أن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا. لأن التزوج أصلح من التحرق » (١ كو ٧ : ١ — ٩) .

و بناء على ما تقدم نرى أن الزواج ناموس مقدس أسسه الله تعالى منذ البدء وثبته الرب يسوع ورفع شأنه وسر أن يجعله سرا مقدسا فى كنيسته ، وعلى ذلك نعرفه : بأنه سر مقدس به يرتبط و يتحد الرجل والمرأة اتحادا مقدسا بنعمة الروح القدس للحصول على ولادة البنين وتربيتهم التربية المسيحية . وسمى هذا السر أكليلا بسبب الاكاليل التى توضع فوق رؤوس العروسين وقت اتمام هذا السر المقدس وهى رمز الى أكاليل النعمة والمجد والثبات كما هو مذكور فى صلاة الاكليل .

ولم يرد فى انجيل متى كيف أسس الرب يسوع سر الزواج . كما أنه لم يرد ذكر أشياء كثيرة غيرها مما صنعه أمام تلاميذه ، كما روى يوحنا الانجيلى بقوله « وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب فى هذا الكتاب » (يو ٢٠ : ٣٠)

ولقد ارتأى بعض الآباء أن الرب يسوع أسس سر الزيجة لما حضر عرس قانا الجليل

و باركه بحضوره (يو ٢ : ١ ــ ١١) وقال بعضهم أنه أسسه بخطابه للفريسيين فى الزواج الحقيقى بقوله « فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان » (مت ١٩ : ٣ ــ ١٢) ورأى أخرون بأنه له المجد أسسه بعد قيامته من الاموات مدة ظهوره لتلاميذه أربعين يوما وهو يتكلم معهم عن الامور المختصة بملكوت الله « أى الكنيسة » (أع ١ : ٣) وعلى كل حال فانه من الثابت من أقوال الرسل ومؤلفات الآباء والتقليد الشريف أن سر الزيجة قائم فى الكنيسة منذ تأسيسها . وقال معلمنا بولس بصريح العبارة فى (أف ص ٥) هذا السر عظيم .

وقد بين نفس الرسول واجبات كل من الزوجين بقوله للنساء « ايها النساء أخضعن لرجالكن كما للرب . لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضا رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن فى كل شىء » . و بقوله للرجال « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها . لكى يقدسها .. كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم . من يحب امرأته يحب نفسه . فانه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته و يربيه كما الرب أيضا للكنيسة . لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه . من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته و يكون الا ثنان جسدا واحدا . هذا السر عظيم ولكننى أنا أقول نحو المسيح والكنيسة » (أف ٥ : ٢٢ ــ ٣٢) .

فمن قول الرسول هذا يتضح جليا أن رباط الزيجة يصور اتحاد المسيح بالكنيسة . وعلى هذا المعنى يكون الزواج سرا عظيما لأنه مادام رباط الزيجة هو صورة حقيقية فى جوهره يصوره سريا اتحاد المسيح بالكنيسة ، وهذا الاتحاد هو بلا ريب مقدس و برىء من الدنس ، فمن الضرورة أن نسلم بأن الزيجة أيضا قد تقدست فى الشريعة المسيحية وامتلأت نعمة بوجه سرى واستوفت السر ، وأنها سر من الاسرار المقدسة . خصوصا وأن الرسول يقول : تخضع المرأة لرجلها كما تخضع الكنيسة للمسيح ، وأن يحب الرجل امرأته كما أحب المسيح الكنيسة . فهذه المقابلة لا محل لها على الاطلاق لو لم ينل الزوجان نعمة خاصة بسر الزواج .

وقال هذا الرسول فى رسالته الاولى الى أهل كورنثوس « المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا . ولكن أن مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط » (١ كو ٧ : ٢٩) . وهذا يدل على أن الزيجة منذ أزمنة الرسل كانت تعقد باسم الرب . بمعنى أنها كانت عملا مقدسا دينيا بخدمة كنسية منظورة ، مما يدل على أنها كانت معتبرة سرا مقدسا من أسرار الكنيسة .

الفصل الثالث

اقوال آباء الكنيسة عن سر الزيجة

يظهر من أقوال آباء الكنيسة اعتبارهم أن الزيجة سر مقدس . قال **القديس اغناطيوس الشهيد** « يجب على المتزوجين والمتزوجات أن يجروا اتحادهم برأى الاسقف ، لكي يكون الزواج مطابقا لارادة الله لا بحسب الشهوة » (رسالة الى بوليكربوس فصل ٦) .

وقال العلامة **ترتليانوس** « كيف يمكننا أن نعبر عن سعادة الزيجة التى تعقدها الكنيسة و يثبتها القربان وتختمها البركة » (لامرأته ٢ : ٩) وأشار الى أن الزواج سر مثل باقى الاسرار كالمعمودية والميرون والشركة بقوله « ان الشيطان بما أنه يطلب أن يهدم الحقيقة فيقلد الاسرار الالهية نفسها عند الأمم ، فيعمد بعضا من اتباعه و يعدهم أن تغفر خطاياهم بالمعمودية ، ويختم جبهة أضداده ، و يقيم احتفاليا تقديم الخبز... و يدعو الكاهن ليبارك الزيجة » (فى الهرطقات فصل ٤) .

وقال **القديس غريغوريوس الكبير** « الم تقترن بالجسد بعد ؟ لا تخف من تتميم ذلك . فأنت طاهر والمسئولية على لأنى أنا عقدته وأنا أعطيتك العروس » (خطاب فى المعمودية فصل ١٨) .

وقال **القديس امبروسيوس** « اذا كان من الواجب أن يعقد الزواج بحلة كهنوتية و بركة فكيف يمكن أن تكون زيجة حيث الايمان مختلف ؟ » (رسالة الى ويجيليوس فصل ١٩ و٢٣ : ٧) وقال « اننا نعترف بأن الله هو سيد الزواج وحارسه ولا يطيق أن يدنس المضجع . فمن يخطىء خطية كهذه يخطىء ضد الله اذ يخالف شريعته و يسىء استعمال نعمته ، ومتى أخطأ ضد الله لا يقدر أن يشترك فى السر الالهى » (فى ابراهيم ١ : ٧) .

وقال **القديس اغسطينوس** « ان قداسة السر لها فى زيجتنا (المسيحية) قوة أكثر من قوة ثمرة الأولاد فى الأم » (فى الزيجة ١٨ : ٢١ ، ٢٤ : ٣٢) .

وقال **القديس يوحنا ذهبى الفم** عند كلامه ضد الاغانى والاحتفالات غير اللائقة فى الاعراس « قل لى لماذا تسمح من بادىء الامر بأن تمتلىء آذان ابنتك من الشوائب بالاناشيد

القبيحة و بذاك الاحتفال الذى لا محل له ؟ ألست تعلم أن الصبوة ([1]) سهلة الزلق ؟ لماذا تهتك أسرار الزيجة الموقرة ؟ فانه ينبغى أن ترفض كل هذه وتعلم ابنتك الحياة ([2]) منذ البدء ، وتدعو الكهنة وتعقد اتحاد الازواج بالصلوات والبركات لكى ينمو شوق العريس وتزداد عفه العروس ، يدخل عمل الفضيلة فى بيتهما بكل وجه » (على التكوين مقالة ٤٨ : ٦) .

---

(١) الصبوة أى الشهوة .

(٢) الحيآء والحياء بمعنى واحد .

الفصل الرابع

العمل المنظور فى اتمام السر وفعله غير المنظور

ان العمل المنظور فى اتمام سر الزيجة يقوم بأمرين جوهريين : أولهما اقرار كلا العروسين علنا قدام الكنيسة بأنهما قابلان الزواج بحريتهما التامة ورضاهما المتبادل ، وتعاهدهما بحفظ الامانة الزوجية الى آخر نسمة من حياتهما . وثانيهما البركة التى تتم فى العقد (١) وصلاة الاكليل اللذين يتممهما الكاهن .

أما فعل النعمة غير المنظور فيقوم بأن النعمة الالهية حسب تعليم الرسول تحول الزيجة الطبيعية الى سر مقدس عظيم يصور اتحاد المسيح بالكنيسة اتحادا سريا . كما قال « هذا السر عظيم ولكنني أنا اقول من نحو المسيح والكنيسة » (اف ٥ : ٣٢) .

ولزيادة الايضاح نذكر : ـــ

(١) ان النعمة الالهية تقدس رباط الزيجة وتجعله رباطا روحيا لأن اتحاد المسيح بالكنيسة هو اتحاد روحى مقدس ولذلك يقول الرسول ليكن الزواج مكرما عند كل واحد والمضجع غير نجس ... (عب ١٣ : ٤) « لأن هذه هى ارادة الله قداستكم . أن تمتنعوا عن الزنا . أن يعرف كل واحد منكم أن يقتنى اناءه بقداسة وكرامة . لا فى هوى شهوة كالامم الذين لا يعرفون الله ، (١ تس ٤ : ٣ ـــ ٥) وقال **يوحنا ذهبى الفم** فى مثل هذا المعنى « لأن كل واحد أخذ ما له . فهذا الزواج اذن هو زواج بحسب المسيح . هو زواج روحى وولادة روحية . لا من دم ولا من المخاض كما أن ولادة اسحق هكذا كانت . واسمع ماذا يقول الكتاب المقدس : وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء . فلم يكن الزواج عن هوى ولا كان زواجا جسديا بل كان كله روحيا . زواج نفس اتحدت بالله اتحادا يفوق الوصف كما يعلم هو وحده . ولهذا يقول أن من يلتصق بالرب يكون روحا واحدا . وانظر كيف يجتهد فى أن يقرن الجسد بالجسد ويجمع بين الروح والروح » (على أفسس مقالة ٢٠ : ٥) .

(٢) ان النعمة الالهية تساعد على أن يدوم رباط الزيجة غير منفصل كما أن اتحاد المسيح

---

(١) بركة العقد المشهور بالعقد والاملاك .

بـالـكنيسة هو اتحاد أبدى كما قال الرب نفسه « فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان » فقد جمع الله بين الزوجين أولا بناموس الزيجة طبيعيا ثم بنعمته التى منحها للمتحدين بالشركة الزوجية .

(٣) ان الـنـعـمة الالهية تساعد الزوجين مدة حياتهما على اتمام الواجبات المفروضة على كـل منهما نحـو الاخر حسب النموذج السامى فى اتحاد المسيح بالكنيسة حسب وصية الرسول القائل « ايهـا الـنساء اخضعن لرجالكن .. كما تخضع الكنيسة للمسيح » .... وقوله « أيها الرجال أحبوا نـساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لاجلها » (اف ٥ : ٢٢ ــ ٢٥) فلو لم تكن فـى هذا السر نعمة لكان اقتداء الزوجين بهذا النموذج يفوق حدودهما . فبقوة النعمة اذن وبمعاضدتها يـؤدى كـل مـن الـزوجين واجباته نحو الاخر و يتممان كلاهما مقاصد اتحادهما بالزواج أى الولادة ببركة الله لنمو أعضاء الكنيسة ، و يعين بعضهما بعضا ، ويحفظان نفسهما من كل دنس .

الفصل الخامس

الشروط المطلوبة لعقد رباط الزيجة

ان الذين يتقدمون للاقتران بعقد الزواج ينبغى حسب القوانين الكنسية الأرثوذكسية : ـــ

أولا ـــ أن يكون العروسان مسيحيين لأنه بدون الايمان بالمسيح لا يمكن نيل النعمة الالهية المعطاة بهذا السر أو بغيره . وعلى ذلك تكون الزيجة مع غير المؤمنين ممنوعة بالكلية حسب قول الرسول « لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين . لأنه أية خلطة للبر والاثم . وأية شركة للنور مع الظلمة . وأى اتفاق للمسيح مع بليعال . وأى نصيب للمؤمن مع غير المؤمن . وأية موافقة لهيكل الله مع الاوثان » (٢ كو ٦ : ١٤ ـــ ١٦) .

ثانيا ـــ أن يكونا أرثوذكسين لأنه لا وجه لنوال غير الأرثوذكسيين اكليلا أرثوذكسيا من يد كاهن أرثوذكسى قبل أن يعترف بالايمان الارثوذكسى . ومتى كان أحد العروسين غير ارثوذكسى فانه يشترط أن ينضم الى الكنيسة الارثوذكسية **أولا** .

ثالثا ـــ أن يكونا بعيدين عن القرابة الجسدية والروحية المعينة درجاتها من قوانين الكنيسة الأرثوذكسية .

رابعا ـــ أن يكونا راضيين وقابلين الزواج بتمام الحرية والارادة المطلقة . لأن طبيعة رباط الزواج حسب قول الرب هى أن يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته و يكون الا ثنان جسدا واحدا ، فاتحاد كهذا بين شخصين لا يمكن اتمامه من دون الارادة الحرة والمحبة المتبادلة .

الفصل السادس

أوصاف الزيجة المسيحية

للزيجة المسيحية صفتان :

الأولى ـــ وحدة الزيجة وهى أن يكون للرجل امرأة واحدة ، وللمرأة رجل واحد ، أى منع تعدد الأزواج أو الزوجات . بمعنى أنه لا يجوز زواج رجل مرتبط بامرأة ولا زواج امرأة مرتبطة برجل .

والثانية ـــ عدم انفكاك هذه الزيجة .

أما الصفة الأولى وهى وحدة الزيجة فتقوم بأن يقترن الرجل الواحد بامرأة واحدة لا أكثر . وهذه الوحدة تنافى (**أولا**) تعدد الازواج (**ثانيا**) تعدد الزوجات فالأول وهو اقتران المرأة الواحدة برجال كثيرين فى وقت واحد (كما كان عند بعض الامم) ينافى الشريعة الطبيعية لما فى هذا التعدد من المخالفة للغاية المقصودة من الزواج وهى ولادة الأولاد وتربيتهم التربية الصحيحة ، حيث أن قوة النسل تضعف اذ يقل خصب المرأة كثيرا عند اقترانها برجال عديدين ، هذا فضلا عن أن الأولاد فى هذه الحالة يبقون مجهولين ، وعليه يضحى الالتزام باتقان التربية غير محقق .

أما الثانى وهو تعدد الزوجات أى اقتران الرجل الواحد بنساء عديدات فيدل على عدم جوازه ما يأتى : ـــ

(١) ان الله تعالى لما خلق آدم لم يخلق له سوى امرأة واحدة وقل « لذلك يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته و يكونان جسدا واحدا » (تك ٢ : ٢٤) فلو أراد الله أن يكون للانسان أكثر من امرأة لخلق له نساء عديدات ، خصوصا وأن الحالة وقتئذ كانت داعية لزيادة النوع البشرى . وقصد الله ظاهر فى خلق امرأة واحدة لرجل واحد ، وهذا دليل على أنه سن أن لا يكون للرجل أكثر من زوجة واحدة .

(٢) ان المخلص له المجد فى جوابه على الفريسيين اعلن وحدة الزيجة ومنع تعدد الزوجات ، اذ أوضح أن الناموس الذى وضعه الله تعالى عند البدء هو أن تكون امرأة واحدة

لرجل واحد اذ قال انه خلقهما ذكرا وأنثى وأنهما ليسا بعد اثنين بل جسد واحد وأن موسى اذن لهم بالطلاق لقساوة قلوبهم ولكن منذ البدء لم يكن هكذا (مت ١٩ : ٤ ــ ٨) .

(٣) ان الرسول بولس صرح بذلك بقوله « ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ... ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل . وكذلك الرجل أيضا ليس له تسلط على جسده بل للمرأة ... لا تفارق المرأة رجلها ... ولا يترك الرجل امرأته .. والمرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا » (١ كو ٧ : ٢ ــ ٥ و١٠ و١١ و٣٩) .

(٤) ان الله تعالى أعلن فى العهد القديم كراهته للطلاق وتعدد الزوجات ، بقول ملاخى النبى (٢ : ١٤ ــ ١٦) « ان الرب هو الشاهد بينك و بين امرأة شبابك التى أنت غدرت بها وهى قرينتك وامرأة عهدك . فاحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بامرأة شبابه لأنه يكره الطلاق قال الرب اله اسرائيل » .

(٥) ان تعدد الزوجات مجلبة لاضرار كثيرة عائلية واجتماعية ، ومدعاة للشقاق والانقسام . اذ يضر بغاية الزواج وهى السلام والاتفاق والمحبة فى العائلة لأن الرجل الواحد لا يستطيع أن يرضى كلا من نساءه وأن يتمم رغبة كل منهن . وكل امرأة منهن تجتهد أن تميله الى غرضها ومحبتها أكثر من سواها ، واذا لم يحب نساءه كلهن محبة متساوية تتولد الخصومات والمشاجرات و ينتفى السلام والوفاق من العائلة . واذا أحب الرجل أحدى نسائه أكثر من غيرها فانه يميل بالطبع الى أولادها ميلا خاصا . مفضلا اياهم ، مهملا تربية غيرهم من أولاده ، ولا يخفى ما فى ذلك من الاضرار على الهيئة الاجتماعية . أضف الى ذلك أن الرجل الواحد لا يقدر على تأدية الواجب الزوجى الى كل من نسائه فتصبح تلك النساء معرضات لخطر فقدان العفة . فاذن تعدد الزوجات مخالف لسنن الزواج ومضر بالعائلة و بالهيئة الاجتماعية .

والكنيسة مع تحريمها تعدد الزوجات لا تمنع اعادة الزيجة عن الذين يريدون أن يتحدوا بزيجة ثانية رجالا كانوا أو نساء بعد وفاة أحد الزوجين . لأن الموت يحل الرباط بين الزوجين ولا يوجد اذن مانع لعمل رباط جديد بين متعاقدين ، على أن بولس الرسول يفضل عدم زيجة الارامل لمن استطاع حيث يقول « ولكن أقول لغير المتزوجين وللارامل أنه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا . لأن التزوج أصلح من التحرق . وقوله « المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا ولكن ان مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط . ولكنها أكثر غبطة ان لبثت هكذا » (١ كو ٧ : ٨ و٩ و٣٩ و٤٠) .

قال القديس اغسطينوس مفسرا آية الرسول فى وصيته للأرامل « من عادة الناس أن

يتباحثوا في مسألة الزواج الثالث أو الرابع وهلم جرا . وعليه فأجيب باختصار ، لا اتجاسر أن أشجب شيئا في مثل هذا الزواج ولا أقدر أن أحدد ما لم يحدده الرسول نفسه ، فانه يقول ان المرأة مقيدة بالناموس ما دام زوجها حيا ، ولم يقل الزوج الاول أو الثاني أو الثالث أو الرابع بل قال ان المرأة مقيدة ما دام رجلها حيا فاذا مات زوجها تعتق فلتتزوج بمن تشاء ، لكن في الرب فقط ، غير أنه أفضل لها ان استمرت على ما هي عليه . فهل يمكن أن يزاد شيء على هذا الحكم أو يستثنى منه شيء مما يتعلق بهذا الأمر؟ لا أعلم » .

الفصل السابع

عدم انفكاك الزيجة

اما الصفة الثانية للزيجة المسيحية وهي عدم انفكاكها فهي نتيجة طبيعية للناموس الالهى الموضوع منذ البدء الذى شرحه الرب يسوع فى تعليمه فقد قال فى خطبته على الجبل « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته الا لعلة الزنى يجعلها تزنى ومن يتزوج مطلقة فانه يزنى » (مت ٥ : ٣١ و٣٢) . ونأتى هنا بأقوال الانجيليين فى هذا الموضوع :

قال **القديس متي** « وجاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب . فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى . وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وامه و يلتصق بامرأته و يكون الاثنان جسدا واحدا . اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد . فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان . قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق . قال لهم أن موسى من أجل قساوة قلوبكم اذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هذا . وأقول لكم أن من طلق امرأته الا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى . والذى يتزوج بمطلقة يزنى . قال له تلاميذه ان كان هذا امر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج . فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين اعطى لهم » (مت ١٩ : ٣ — ١١) .

وقال **القديس مرقس** « فتقدم الفريسيون وسألوه . هل يحل للرجل أن يطلق امرأته ليجربوه . فأجاب وقال لهم بماذا أوصاكم موسى . فقال موسى اذن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق . فأجاب يسوع وقال لهم من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية ولكن من بدء الخليقة ذكرا وأنثى خلقهما الله من أجل هذا يترك الرجل أباه وامه و يلتصق بامرأته و يكون الاثنان جسدا واحدا . اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد . فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان . ثم فى البيت سأله تلاميذه أيضا عن ذلك فقال لهم من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها وان طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى » (مر ١٠ : ٢ — ١٢) .

وقال **القديس لوقا** « كل من يطلق امرأته و يتزوج بأخرى يزنى وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزنى » (لو ١٦ : ١٨) .

وقال بولس الرسول « ام تجهلون ايها الاخوة . لأني اكلم العارفين بالناموس أن الناموس يسود على الانسان ما دام حيا . فان المرأة التي تحت رجل هي مرتبطة بالناموس بالرجل الحي . ولكن ان مات الرجل فقد تحررت من ناموس الرجل . فاذا ما دام الرجل حيا تدعى زانية ان صارت لرجل آخر ولكن ان مات الرجل فهي حرة من الناموس حتى انها ليست زانية أن صارت لرجل آخر » (رو ٧ : ١ – ٣) .

وقال جوابا عن أسئلة وجهت اليه من أهل كورنثوس « وأما المتزوجون فأوصيهم ، لا أنا بل الرب ، ان لا تفارق المرأة رجلها . وأن فارقته فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها . ولا يترك الرجل امرأته » (١ كو ٧ : ١٠ ، ١١) .

فمن هذه النصوص المقدسة يتضح أن الزيجة سر مقدس لا ينفك عقد رباطها الا لسببين : أولها الموت الذى يجعل الزوج الحى حرا من رباط الزواج ، وثانيها الزنا الذى ينجس رباط الزيجة . كما يتضح من أن الله تعالى منذ البدء قضى بأن يكون هذا الرباط مقدسا « لأن الذى جمعه الله لا يفرقه انسان » وعليه فلا يجوز للانسان أن ينقض ما وضعه الله . ولما اعترض الفريسيون على الرب يسوع بكتاب الطلاق الذى أوصى به موسى قال لهم « ان موسى من أجل قساوة قلوبكم اذن لكم أن تطلقوا نساءكم . ولكن من البدء لم يكن هكذا » وكفى ما قاله آدم معلنا قوة هذه الزيجة « هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى » .

وقد سمح بالطلاق فى العهد القديم بشروط ، فقد جاء فى سفر التثنية « اذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فان لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته . ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر . فان أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته أو اذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست . لأن ذلك رجس لدى الرب فلا تجلب خطية على الارض التى يعطيك الرب الهك نصيبا » (تث ٢٤ : ١ – ٤) ويحذر سفر اللاويين على الكاهن أن يتزوج من امرأة مطلقة من زوجها لأنه مقدس لالهه . أما الاقتران بامرأة مطلقة فكان مباحا لغير الكاهن .

وكان الطلاق مكروها من الله كما يستدل من قول الرب على لسان ملاخى النبى « ان الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التى أنت غدرت بها وهى قرينتك وامرأة عهدك فاحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بامرأة شبابه لأنه يكره الطلاق قال الرب اله اسرائيل » ملا ٢ : ١٤ و١٥ .

و يظهر مما تقدم : ـــ

(١) أن الطلاق كان مباحا للرجل دون المرأة .

(٢) انـه لم يـكـن جائزا للرجل أن يطلق امرأته اذا كان قد دخل بها قبل أن تزوجها ، أو اذا كان قد أشاع عنها سمعة قبيحة ولم تكن الاشاعة صحيحة (راجع تث ٢٢ : ١٩ ـــ ٢٩) .

(٣) أنـه لم يـكـن جـائـزا للـرجل أن يطلق امرأته من أجل كل علة ، بل من أجل عيب انـكـره عليهـا . و يـلـزم أن يـكـون هذا العيب من نوع الدنس والقباحة كما يستدل على ذلك من الـقـرائـن . وعلى الرجل قبل أن يطلقها أن يكتب لها كتاب طلاق و يدفعه الى يدها ، دليلا على أنهـا أصبـحـت حـرة يمـكنهـا أن تعقد زواجا جديدا مع آخر . واذا أبغضها الزوج الآخر وكتب لها كتاب طلاق أو مات ، فليس لزوجها الاول الذى طلقها أن يعود فيأخذها لتكون زوجة له بعد أن تدنست . قال أحد اللاهوتيين « ان موسى سمح لهم بالطلاق منعا لشر اعظم وهو قتل الامرأة لأن اليهود كانوا ميالين لارتكاب مثل هذه الجريمة » .

أما فى العهد الجديد فقد اعاد الرب يسوع الزواج الى وضعه الاصلى الذى وضعه الله منذ البـدء . ولـذلـك لم يـبـح زواج المرأة المطلقة بسبب الزنا . وقد سارت الكنيسة المسيحية على هذا الـسنن مـنـذ نـشـأتهـا حـتـى أصبح معروفا لدى الجميع أن الزواج المسيحى لا يقبل الانفكاك الا بالموت ، أو بتلك العلة التى تدنس رباط الزيجة .

قـال الـقـديـس **أكليمنضس الاسكندرى** « ان الكتب المقدسة بنصائحها عن الزواج وبمـنـعـهـا المفارقة منعا قطعيا قررت هذه الشريعة أن لا تهجر امرأتك الا لعلة الزنا . وتعتبره زواجا زنـائـيـا كل زواج يعقده أحد المفترقين ما دام الآخر على قيد الحياة .. لأنه كتب من تزوج مطلقة فقد زنى » (الكتاب المسمى استروماتا ك ٢ ف ٢٣) .

وقال العلامة **أوريجانوس** « ان سماح بعض رؤساء الكنائس بأن المرأة تتزوج برجل آخر فـى حياة زوجها مضاد لشريعة الكتاب المقدس . لأنهم خالفوا ما كتب . ان المرأة مرتبطة ما دام رجـلـهـا حـيـا . فـن ثم مـا دام رجـلـها حيا ان صارت لرجل اخر فانها تدعى زانية . ولكن لا يخلو عـمـلهم هذا من عذر لأنهم ربما تساهلوا بمخالفة الشريعة المسطرة والمقررة من البدء منقادين لارادة الغير تلافيا لشرور أعظم » (فى شرحه انجيل متى كتاب ١٤) .

وقـال **القديس أمبروسيوس** « لا يجوز لك وزوجتك حية أن تقترن بغيرها . لأن اقترانك بزوجة ثانية وأنت مقيد بزوجة هو زنا حقيقى » (ك ١ على ابراهيم فصل ٧) .

وقال **القديس أغسطينوس** « أنها لشريعة تعلمها الكنيسة أنه لا يجوز أن يترك الرجل امرأته العاقر ليأخذ امرأة أخرى كثيرة النسل فمن يفعل ذلك يجرم بالزنا فى حق الشريعة الانجيلية » (مقالة فى الزواج ك ١ فصل ١٠ عدد ١١) .

وقال **القديس غريغوريوس الثاولوغوس** « ان شريعتنا تحرم الطلاق وان كانت الشرائع المدنية تحكم بخلاف ذلك » (فى رسالته الى أولمبيوس) .

سئل **القديس تيموثاوس** البطريرك الثانى والعشرون من بطاركة الاسكندرية ان كانت امرأة مبتلية بروح شرير بهذا المقدار حتى أنها تربط بسلاسل وأغلال و يقول زوجها اننى ما أقدر أن أضبط ذاتى و يريد أن يتزوج غيرها . هل يجوز له أن يأخذ غيرها أم لا ؟ فأجاب : أن هذا الامر قد يتداخله فسق كما يبين لى فما عندى ولا أجد ما أجاوب به عن ذلك » .

ومن الرواية الآتية يتبين شدة تمسك المسيحيين بعقد الزواج وتحريمهم الطلاق .فقد ذكر جمال الدين القفطى فى تاريخ الحكماء (صحيفة ١٥٩ وابن أبى أصيبعة فى طبقات الاطباء (جزء أول صحيفة ١٢٤ ، ١٢٥) وابن العبرى فى تاريخه مختصر الدول (صحيفة ٢١٤) أن أباجعفر المنصور قال لجورجيس ابن بختيشوع الطبيب الشهير (سنة ٧٧٠) من يخدمك ههنا قال تلامذتى . فقال المنصور سمعت أنه ليس لك امرأة . فقال : لى زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها . ثم انصرف من الحضرة ومضى الى البيعة . فأمر المنصور خادمه سالما أن يختار من الجوارى الروميات الحسان ثلاثا ويحملهن الى جورجيس مع ثلثة آلاف دينار . ففعل ذلك . فلما انصرف جورجيس الى منزله عرفه عيسى بن تهلاقا تلميذه بما جرى واراه الجوارى . فأنكر أمرهن وقال لعيسى . ياتلميذ الشيطان لم أدخلت هؤلاء الى منزلى ؟ أردت أن تنجسنى . امض وردهن الى اصحابهن ، ثم ركب جورجيس ومعه عيسى مع الجوارى ومضى الى دار الخليفة وردهن على الخادم . فلما اتصل الخبر بالمنصور أحضره وقال لم رددت الجوارى ؟ قال لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء فى منزلى لأننا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة . وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها . فحسن موقع هذا مع المنصور. وأمر فى الوقت أن يعالج جورجيس حظاياه وحرمه وزاد موضعه عنده . وهذا ثمرة العفة » .

وللطلاق مضار كثيرة نذكر منها : —

أولا — انه يضاد الناموس الزوجى و ينافى الغاية التى من أجلها انعقد فيصبح أحد الزوجين به أسوأ حالا من الآخر. فالرجل لا يفقد من شرفه الا قليلا . أما المرأة فتفقد شرفها وتضحى محتقرة و بالكاد تستطيع أن تعقد زواجا آخر جديدا .

ثانيا ــ انه يضر بسعادة الزوجين لأنه يزيل المحبة المتبادلة بينهما ويهدم ما كان قد بناه الزوجان من الاخلاص مدة سنين طويلة ، وسعادة المحبة وأساسها الدوام والثبات . والحب الذى بين الرجل وامرأته عظيم جدا حتى شبه باتحاد المسيح بالكنيسة . اذ يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته . فالطلاق ينزع هذا الرباط ، و يلاشى هذا الاساس المتين ، و ينمى الخلاف ، و يكثر الشقاق ، و يفتح ابواب الشر بين العائلات .

ثالثا ــ انه يضر بتربية النسل التربية الصحيحة ، فان الاولاد فى حاجة الى مساعدة كل من الوالدين ، ليس فى زمن الطفولة فقط بل مدة الحياة كلها . فان الاولاد بعد أن يتغذوا و يقتاتوا من ألبان أمهاتهم يحتاجون الى عناية الآباء . وهم دائما فى شديد الحاجة الى محبة الأم وعطفها الحلو، وعنايتها الساهرة ، والى سلطة الأب وحكمته السامية . وهذا يقتضى اتحاد الزوجين . أما الطلاق فيفصل هذا الاتحاد و يضر ضررا بليغا بمصلحة الأولاد . فالى أية جهة يتجه الاولاد ؟ ان لحقوا الأب خسروا محبة أمهم ، واذا تبعوا الام خسروا سلطان الاب وعنايته ، وفى كلتا الحالتين خسارة الأخلاق وفقد الصيت الحسن .

رابعا ــ انه يضر بخير الجماعة لأنه ينزع السلام من العائلات و يلقى الشقاق بين أفراد الهيئة الاجتماعية . فكما ان بالزواج تتحد العائلات ، وتنضم بعضها الى بعض ، وتشتد روابط الحب ووثائق الالفة . فهكذا بعكس ذلك الطلاق فانه ينشىء الانشقاقات و به ينتشر البغض وتشتد العداوات . وهذا كله مما ينزع السلام من المجتمع و يعم الخراب . أضف الى ذلك أنه يفسد الآداب السليمة اذ فيه نكث العهود وعدم الوفاء وتصبح غاية الانسان اتباع شهواته الجسدية .

أما اعتراضات الذين يصورون تعاسة الزوجين من خصام وشقاق . و يقولون ان الافضل لمثل هذين الزوجين الانفصال بعضهما عن بعض . وان يعقد كل منهما عقدا جديدا ، أفضل من تلك الحياة المملوءة شقاء وتعاسة . فيرد عليهم بأن العقل يقضى بتفضيل خير الجماعة على خير الافراد ، وخير الجماعة البشرية يقتضى أن لا يفتح السبيل الى مثل تلك النتائج السيئة التى تنجم عن الطلاق . فاذا لحق ضرر ببعض الافراد من جراء صرامة ناموس الزواج ، فليس ذلك مسوغا لفسخ شريعة من شأنها ايجاد السلام وخير الجماعة وسعادة المتزوجين . أضف الى ذلك ان الناموس وضع للجماعات وليس للافراد ، وان هذا الناموس ليس ناموسا بشريا يمكن تغييره وانما هو ناموس الهى ينبغى الخضوع له . هذه شريعة قد وضعها الله نفسه و يسوع المسيح شرحها فمن أحق بأن يصدق و يتبع . المسيح أم هوى القلب البشرى ؟

ففى شريعة الكمال هذه وفى هذه القداسة يجب أن يصان سر الزواج حفظا للآداب وضمانا لسعادة الاسرة وتأييدا للعمران .

الفصل الثامن

حالة البتولية أشرف من حالة الزواج

ان بولس الرسول الذى شرح سر الزيجة شرحا وافيا وقال عنه « هذا سر عظيم » وقال « ليكن الزواج مكرما عند كل واحد والمضجع غير نجس ، (عب ١٣ : ٤) قد فضل حالة البتولية على حالة الزواج حيث قال «لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا . لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله الواحد هكذا والآخر هكذا . ولكن أقول لغير المتزوجين وللارامل انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا . لأن التزوج أصلح من التحرق وأما العذارى فليس عندى أمر من الرب فيهن ولكنى اعطى رأيا كمن رحمه الرب أن يكون أمينا . فأظن أن هذا حسن لسبب الضيق الحاضر ، أنه حسن للانسان أن يكون هكذا . أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال . أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة . لكنك وان تزوجت لم تخطىء . وأن تزوجت العذراء لم تخطىء . ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق فى الجسد . وأما أنا فانى أشفق عليكم . فأقول هذا أيها الاخوة الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . والذين يبكون كأنهم لا يبكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون . والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه . لأن هيئة هذا العالم تزول . فأريد أن تكونوا بلا هم . غير المتزوج يهتم فى ما للرب كيف يرضى الرب . وأما المتزوج فيهتم فى ما للعالم كيف يرضى امرأته . ان بين الزوجة والعذراء فرقا . غير المتزوجة تهتم فى ما للرب لتكون مقدسة جسدا وروحا . وأما المتزوجة فتهتم فى ما للعالم كيف ترضى رجلها ... اذا من زوج فحسنا يفعل ومن لا يزوج يفعل أحسن . المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا . ولكن أن مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط . ولكنها أكثر غبطة ان لبثت هكذا بحسب رايى » (١ كو ٧ : ٧ — ٤٠) .

فمن أقوال بولس الرسول هذه يتضح أن حالة العزوبة أشرف من حالة الزواج . وهذه المقابلة ليست مطلقة بل بالنسبة الى الحالة فى ذاتها لا الى الأشخاص . فقد يوجد اشخاص متزوجون أفضل من كثيرين ممن يعيشون في حالة العزوبة . ولا نقصد المقابلة بين حالة العزوبة والزواج من حيث هو سر . بل نقصد المقابلة بين حالة البتولية وحالة الزواج باعتبار كونها حالة لا باعتبار كونها سرا . وليس المراد بحالة العزوبة الخلو من رباط الزواج ، فقد يتفق أن تكون تلك الحالة مقرونة بسيرة رديئة ، بل المقصود هنا بحالة البتولية ، تلك الحالة التى يقضى فيها المرء حياة

نقية طاهرة منزهة عن شهوات الجسد ، وعلى ذلك نقول أن هذه الحالة أفضل وأشرف من حالة الزواج بالأدلة الآتية :

أولا — من تعليم الكتاب فقد قال الله تعالى « ولا يقل الخصى ها انا شجرة يابسة . لأنه هكذا قال الرب للخصيان الذين يحفظون سبوتى ويختارون ما يسرنى و يتمسكون بعهدى . أنى أعطيهم فى بيتى وفى أسوارى نصبا واسما أفضل من البنين والبنات . أعطيهم اسما أبديا لا ينقطع » (أش ٥٦ : ٣ — ٥) وقال الرب يسوع لتلاميذه عندما قالوا ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج « ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم . و يوجد خصيان خصاهم الناس . و يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل فليقبل » (مت ١٩ : ١٠ — ١٢) ولما قال له بطرس « ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك . فأجاب يسوع وقال الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتا أو اخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا لأجلى ولأجل الانجيل . الا و يأخذ مئة ضعف الآن فى هذا الزمان بيوتا واخوة واخوات وأمهات وأولادا وحقولا مع اضطهادات وفى الدهر الآتى الحيوة الأبدية » (مر ١٠ : ٢٨ — ٣٠) فمن أقوال مخلصنا له المجد يتضح أن الذين يكرسون ذواتهم بالبتولية و يعيشون بطهارة وقداسة لأجل اسمه ولأجل الانجيل ، لهم مرتبة رفيعة ، وحالتهم أفضل من حالة الذين يرتبكون بأمور العالم ، خصوصا وانه له المجد يبين حالة النفوس فى السماء لأنهم « لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء » (مت ٢٢ : ٣٠) .

قال **القديس ايرونيموس** « هكذا ينبغى أن نفهم كلام المسيح ... يسرنى أولئك الذين صاروا خصيانا بارادتهم غير مجبرين . انى بملء الرضى أقبل فى أحضانى أولئك الذين قد امتنعوا عن الزواج لأجل ملكوت الله . أولئك الذين لم يريدوا أن يكونوا كما ولدوا (١) مخصصين ذواتهم لعبادة الله ، ايمانهم عظيم وفضيلتهم سامية لأنهم صاروا هيكل الله النقى ، لأنهم قدموا ذواتهم بكليتها ضحية للرب لأنهم حسب قول الرسول تقدسوا بالجسد والروح » (ضد يوفينيانوس ك ١ ف ٧) .

ثانيا — ان الحالة التى فيها يفضل الخير الروحى على الزمنى ، وخير النفس على خير الجسد ، هى أشرف وأسمى حالة ، وغاية البتولية هى الخير الروحى لأنها ترذل شهوات الجسد حتى المسموح بها ، وذلك لأجل محبة الله ، وغايتها أيضا خير النفس لأنها تعدها للحياة الروحية

---

(١) يعنى أن الذين خصوا أنفسهم لأجل خدمة ملكوت الله لشدة حبهم الالهى لم يريدوا أن يبقوا جسديين كما ولدوا ، بل عاملين ببذل وتضحية .

والتأمل والصلاة وخدمة الله . أما غاية الزواج فهى خير الجسد وتكثير النسل البشرى . فحالة البتولية اذا افضل من حالة الزواج .

وليست البتولية حالة مستحيلة كما يظن البعض ، فقد استطاعها كثيرون عاشوا فى غاية الطهارة ، وتسلحوا بالفضيلة ، وسلكوا كأنوار فى العالم . نعم انها حالة صعبة ومستحيلة على الذين ليست لهم دعوة البتولية والذين لا يستعملون الوسائط اللازمة لحفظها، ولكنها سهلة على الذين يهربون من أسباب الخطية و يسلكون بحسب النعمة و يقمعون شهوات الجسد و يصلبون أهواءهم بالامانة والتعب والصلاة والصوم والاشغال . ثم يواظبون على العبادة وتلاوة الكتب المقدسة .

ثالثا ـــ لا صحة لما يزعمه البعض من أن البتولية لا تساعد على الخير العام كالزواج ، لأن البتولية تساعد كثيرا على عمل الخير والمثل الصالح وقهر الشهوات وممارسة أفعال الرحمة والعناية بالفقراء والايتام والمرضى وكثيرا ما جلبت خيرا على الجنس البشرى بأعمال التضحية ، ومن نظر الى أعمال الرهبنات وتاريخها المجيد وما قامت به قديما وحديثا من انشاء المدارس والملاجىء وأعمال الخير لا ينكر فضلها . فلو كان هؤلاء مقيدين بقيود الزواج وأثقاله وهموم العائلة والاولاد لكانت هذه المشاغل عائقا كبيرا لهم عن أداء تلك لاعمال .

أضف الى ذلك أن النفس التى تكون فى حالة البتولية مجردة من كل شهوة جسدية تتصرف بملء التصرف فى قواها وتسيرها كيف شاءت ، وكذلك الجسد وهو فى حالة البتولية يكون غير خاضع للتحول السريع ويخدم النفس الى أمد بعيد وديعا هادئا مطيعا .

رابعا ـــ رب معترض يعترض بأن البتولية مخالفة لقول الله تعالى « أكثروا وأثمروا واملأوا الأرض » وقوله « ليس حسنا أن يكون آدم وحده » ـــ فنقول أن هذه الاقوال لا تضاد البتولية ولا تنكرها عندما تكون البتولية غير مضرة بنمو الجنس البشرى فلقد أراد البارى تعالى نمو الجنس البشرى وتكاثره بواسطة الزواج ، لكن هل تدعو الضرورة لبلوغ هذه الغاية الى اشتراك كل فرد من أفراد الجنس البشرى بهذا النمو من غير استثناء ؟ لعمرى أن ذلك بعيد عن الصواب . والواقع خلاف ذلك لأن العالم مكتف من النمو وقد كثر عدد العاجزين عن الزواج طبعا . وعندما قال الله هذه الاقوال وجهها الى الانسانين الأولين آدم وحواء ، اذ لم يكن فى العالم سواهما . وعليها يتوقف نمو الجنس البشرى ، فتكاثرهما ونموهما كان واجبا ، واليهما اتجه أمر الله هذا لا الى عامة الجنس البشرى من غير استثناء . بل بالعكس يستفاد من ذات الآية أنها وصية آمرة ، ومجرد كونها آمرة ينفى عنها الشمول العام الذى هو شأن الوصايا الناهية ، و بالتالى فليست ملزمة فى كل الاحوال ولكل فرد من الآنام .

خامسا ــ وأخيرا نرد على الذين يقولون ان القدماء أنكروا العزوبة وقاوموها ، بأن لا صحة لهذا الكلام فقد كان كهنة ازيس عند المصريين ملزمين بحفظ العفة ، والعذارى اللواتى كن مخصصات لخدمة الشمس عند الفرس كن بتوليات ، وكهنة أثينا وتلامذه ديوجين وأكثر أتباع فيثاغورس وكل الذين كانوا مكرسين لخدمة آلهه كانوا غير مرتبطين بزواج . وقد كان فى تراكيا (من أقاليم مملكة اليونان) شركة اسمها شركة العزاب . نعم أن ليكورغوس اليونانى سنة ٨٨٤ ق . م . طعن فى العزوبة ، وشرائع يوليانوس حتمت بوضع حد للعزاب والسبب فى ذلك أن أولئك الذين كانوا يعيشون فى حالة العزوبة ما كانوا يقصدون منها حفظ نفوسهم بالطهارة والفضيلة ، وانما قصدوا ارخاء العنان لشهواتهم هاربين من روابط الزواج لئلا تلجم شهواتهم ، فتلك العزوبة لا تدل الا على فساد الاخلاق ، وشتان بينها وبين البتولية الطاهرة المقدسة التى نتكلم عنها .

٧ ــ سر الكهنوت

الفصل الأول

ارتباط هذا السر بباقى الأسرار وتعريفه

قد بينا فيما سبق أن الاسرار تنشىء النعمة فى النفوس ، وتفيض بركات المسيح على المؤمنين . ولما كان المسيح مخلصنا هو الذى باستحقاقه وموته عنا نلنا جميع النعم ، لزم أن الاسرار تستمد قوتها من استحقاقه هذا ، لأنه هو الذى كفر عن خطايانا (١ يو ٢ : ٢) وهو الذى استحققنا به النعم اللازمة للتبرير والخلاص « لأنه ان كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالاولى كثيرا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون فى الحياة بالواحد يسوع المسيح . فاذا كما بخطية واحدة صار الحكم على جميع الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة الى جميع الناس لتبرير الحياة » (رو ٥ : ١٧ و١٨) والمسيح له المجد لم يكن سفيرا ووكيلا كما كان موسى فى العهد القديم ، بل كان باستحقاقاته غير المتناهية منشئا للعهد الجديد وضامنا له ، كما يقول بولس الرسول « لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع . حال كونه أمينا للذى أقامه كما كان موسى أيضا فى كل بيته . فان هذا قد حسب أهلا لمجد أكثر من موسى بمقدار ما لبانى البيت من كرامة أكثر من البيت لأن كل بيت يبنيه انسان ما ولكن بانى الكل هو الله . وموسى كان أمينا فى كل بيته كخادم شهادة للعتيد أن يتكلم به . وأما المسيح فكابن على بيته . و بيته نحن » (عب ٣ : ١ ــ ٦) وفى هذا العهد أقيم المسيح كاهنا الى الابد على رتبة ملكى صادق (راجع عب ص ٧ و٨) وهو رأس الكنيسة (أف ٤ : ١٥ وكو ١ : ١٨) فلا نعمة ولا موهبة روحية تستمد الا من استحقاقاته ولا تفاض علينا بركة الا به . وان كل سلطة روحية وكل وسيلة من وسائل النعمة ووسائط الخلاص المودعة فى كنيسته لا تقتبس ولا تصدر الا عن جوده وكرمه . وهذه النعم والبركات التى أودعها مخلصنا فى كنيسته قد أمر خدامه بمباشرتها وأعطاهم سلطانا على توزيعها على المؤمنين . فقد قال له المجد « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الارض . فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به . وها أنا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر» (مت ٢٨ : ١٨ ــ ٢٠) وقال لهم أيضا « كما أرسلنى الآب ارسلكم أنا . ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢١ ــ ٢٣) .

ينتج من ذلك أن الرب يسوع أنشأ الاسرار ومنحها ، وشاءت ارادته أن يوزعها في كنيسته بواسطة خدام أقامهم ووعدهم بأن يكون معهم كل الايام . وقد قال بولس الرسول « وهو اعطى البعض أن يكونوا رسلا . والبعض أنبياء . والبعض مبشرين . والبعض رعاة ومعلمين . لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح » (اف ٤ : ١١ و١٢) .

وهؤلاء الذين يقامون لخدمة الكنيسة وتوزيع نعم الله و بركاته واسراره التي أنشأها يمتازون عن باقي الشعب بهذه الرتبة بمقتضى الترتيب الالهي و ينالون هذه الموهبة بواسطة طقس احتفالي بوضع اليد عليهم ، وهذا ما يسمى بسر الكهنوت أو سر الدرجة .

و يراد بهذا السر رتبة الاكليريكيين المكرسين للوظائف المعينة بالكنيسة ، ومنزلة هذه الدرجة تسمو فوق كل سمو لأن ما يتولاه الكاهن من السلطان على غفران الخطايا وعلى تقديم سر جسد المسيح ودمه مما يفوق ادارك العقل البشري .

وقد عرف بعضهم هذا السر بأنه سر يقلد ولاية روحية ، ويخول نعمة مباشرة الخدم الكنسية كما ينبغي ، وعرفه آخرون بأنه عمل مقدس ، به يضع الاسقف يده على رأس الشخص المنتخب و يطلب من أجله فتنسكب عليه النعمة الالهية التي ترفعه الى احدى درجات الكهنوت ، وتساعده على اتمام واجباته الكهنوتية . وعلى ذلك فان هذا السر لا يخول فقط النعمة بل يخول أيضا السلطان لمباشرة الخدم الروحية الكنسية من اسرار وغيرها ، و يدعى هذا السر شرطونية (أي وضع اليد) .

الفصل الثانى

الكهنوت من حيث هو رتبة مختصة بأفراد

معينين فى الكنيسة

ان الذين انشقوا عن الكنائس الرسولية لا يعترفون بأن المسيح أقام فى كنيسته وظيفة خاصة أعنى وظيفة الكهنوت و يزعمون أن جميع المؤمنين هم كهنة الله العلى . وهذا مخالف لتعليم الكتاب . وسنبرهن فيا يأتى على أن المخلص له المجد أقام هو بنفسه فى كنيسته صفا خصوصيا لهذه الرتبة ، وخول الذين انتخبهم القوة ومنحهم السلطان ليكونوا معلمين وخداما ، وسلم لهم ما سلم من الخدم التى يجب أن يتمموها . ولم يسمح بهذه الوظائف لأحد غيرهم من عامة المؤمنين :ـــ

أولا ـــ ان الرب يسوع اختار بنفسه من بين تلاميذه اثنى عشر تلميذا معروفين بأسمائهم وسماهم رسلا . وقال **لوقا الانجيلى** « وفى تلك الايام خرج الى الجبل ليصلى . وقضى الليل كله فى الصلاة لله . ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثنى عشر الذين سماهم أيضا رسلا الخ » (لو ٦ : ١٢ و١٣) وقال **متى الانجيلى** « هؤلاء الا ثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا : الى طريق أمم لا تمضوا والى مدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة ... أكرزوا قائلين انه قد اقترب ملكوت السموات ... ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم ... من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى » (مت ١٠) وفى انجيل يوحنا قال لتلاميذه « ليس أنتم اخترتمونى بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر و يدوم ثمركم » (يو ١٥ : ١٦) .

ثم انه له المجد عين سبعين آخرين أيضا وأرسلهم اثنين اثنين امام وجهه الى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزمعا أن يأتى وقال لهم أنا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب ... الخ (لو ١٠ : ١ ـــ ٤) .

ثانيا ـــ انه له المجد أعطى هؤلاء الرسل السلطان والحقوق فى تعليم الامم واتمام الاسرار. فقد قال لهم وحدهم « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الارض . فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم ان يحفظوا جميع ما أوصيتكم به . وها أنا

معكم كل الايام الى انقضاء الدهر» (مت ٢٨ : ١٨ ـــ ٢٠) ولهم وحدهم قال عن سر جسده ودمه الاقدسين « اصنعوا هذا لذكرى » (لو ٢٢ : ١٩) وأيضا « كما ارسلنى الآب أرسلكم أنا . ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢١ و٢٢) .

ثالثا ـــ لما أرسل تلاميذه الاثنى عشر والسبعين وأمرهم بالكرازة بالانجيل للخليقة كلها (مر ١٦ : ١٥) قال لهم « وها أنا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر» (مت ٢٨ : ٢٠) .

فمن قوله لتلاميذه ها أنا معكم الى انقضاء الدهر، يستدل على حضور المسيح الدائم فى كنيسته ومساعدته لخلفائهم الذين يقومون من بعدهم فى وظيفتهم . أضف الى ذلك أنه امر بطاعتهم واكرامهم وعدم مخالفتهم . فقد قال « وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم وأقول لكم انه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة . الذى يسمع منكم يسمع منى والذى يرذلكم يرذلنى . والذى يرذلنى يرذل الذى ارسلنى » (لو ١٠ : ١٠ ـــ ١٦) .

رابعا ـــ بعد صعود المخلص الى السماء اجتمع الرسل « وأقاموا اثنين يوسف الذى يدعى بارسابا الملقب يوستس ومتياس . وصلوا قائلين : أيها الرب العارف قلوب الجميع عين أنت من هذين الاثنين أيا اخترته . ليأخذ قرعة هذه الخدمة والرسالة التى تعداها يهوذا ليذهب الى مكانه . ثم القوا قرعتهم فوقعت القرعة على متياس فحسب مع الاحد عشر رسولا » (أع ١ : ٢٣ ـــ ٢٦) وذكر فى سفر الاعمال عن الرسل « و بينما هم يخدمون الرب و يصومون قال الروح القدس افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه . فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الايادى ثم اطلقوهما » (أع ١٣ : ٢ و٣) .

خامسا ـــ ان الرسل القديسين أقاموا فى الكنائس التى أسسوها أساقفة وشمامسة ، ومنحوهم موهبة الخدمة بوضع أيديهم عليهم . كما أمروهم أن ينوبوا عنهم فى سياسة الكنيسة ، وخولوا لهم سلطان اقامة الاساقفة والقسوس فى كل مدينة لرعاية شعب الله واتمام الخدمة الالهية .

ففى سفر اعمال الرسل كرسوا شمامسة ووضعوا عليهم الايادى (أع ٦ : ٤ ـــ ٦) وانتخب بولس و برنابا قسوسا فى كل كنيسة ثم صليا بأصوام واستودعاهم للرب الذى كانوا قد آمنوا به (أع ١٤ : ٢٣) وقال بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس « وما سمعته منى بشهود كثيرين أودعه أناسا أمناء يكونون اكفاء أن يعلموا آخرين ايضا » (٢ تى ٢ : ٢) « لا تهمل الموهبة التى فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدى المشيخة » (١ تى ٤ : ١٤) وقال لتيطس « من أجل هذا

تركتك فى كريت لكى تكمل الامور الناقصة وتقيم فى كل مدينة قسوسا كما أوصيتك » (تى ١ : ٥) و بين لهم المؤهلات الخاصة التى بموجبها ينتخبون الاساقفة والقسوس والشمامسة والاوصاف الخاصة التى تميز المدعو ين الى هذه الرتب والقوانين لمكافأة الذين يحسنون الخدمة (راجع ٢ تى ٢ : ٢ ، تى ١ : ٥ ــ ٩ ، ١ تى ٣ : ١ ــ ١٠ ، ٥ : ٩ و١٧ و٢٢ ، تى ١ : ٥ ــ ١٦) وقال « ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضا » (عب ٥ : ٤) « وكيف يسمعون بلا كارز. وكيف يكرزون ان لم يرسلوا » (رو ١٠ : ١٤ و١٥) « فوضع الله اناسا فى الكنيسة أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ثم قوات و بعد ذلك مواهب شفاء أعوانا تدابير وأنواع ألسنة. العل الجميع رسل العل الجميع أنبياء. العل الجميع معلمون. العل الجميع أصحاب قوات الخ » (١ كو ١٢ : ٢٨ و٣٠) وأمر الشعب قائلا « أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله. انظروا الى نهاية سيرتهم فتمثلوا بايمانهم ... اطيعوا مرشديكم واخضعوا لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا لكى يفعلوا ذلك بفرح لا انين لأن هذا غير نافع لكم » (عب ١٣ : ٧ و١٧) « ثم نسألكم أيها الاخوة ان تعرفوا الذين يتعبون بينكم و يدبرونكم فى الرب و ينذرونكم. وأن تعتبروهم كثيرا جدا فى المحبة من أجل عملهم » (١ تس ٥ : ١٢ و١٣).

سادسا ــ أن أقوال آباء الكنيسة تدل على هذه الحقيقة ، وتشهد بأن العصور التى تلت عصر الرسل كانت ، فى كل زمان ومكان ، فيها هذه الرتبة الرعوية من أساقفة وقسوس وشمامسة.

قال **القديس اكليمنضس الروماني** تلميذ بطرس الرسول « اذ قد اخذ الرسل معرفة كاملة بما سيكون بعدهم أقاموا الذين سبق ذكرهم (أى الاساقفة والشمامسة) و بالوقت نفسه حددوا أمر الخلافة حتى كلما رقد واحد منهم يخلفه فى الخدمة رجال آخرون مختبرون » (رسالة ١ : ٤٤) وقال **القديس أغناطيوس** تلميذ يوحنا الرسول « ان الاساقفة قد أقيموا فى جميع أماكن الارض بحسب مشيئة يسوع المسيح » (رسالته الى أفسس) وقال **القديس ايريناوس** « أنه يمكنا أن نذكر الذين أقامهم الرسل أساقفة فى الكنائس وخلفاءهم أيضا بأسمائهم ، الى أيامنا الذين لم يعلموا شيئا البتة ولم يروا شيئا مما يتصوره الهراطقة ، لأنه اذ عرف الرسل الاسرار المكتومة كانوا يظهرونها للكاملين وحدهم دون جميع الآخرين ، فبحق أقوى اذن قد باحوا بها وسلموها للرجال الذين ائتمنوهم على الكنائس نفسها. اذ كانوا يرغبون أن يكون خلفاؤهم المقامون فى رتبهم الخاصة كاملين فى التعليم و بلا لوم من كل الاوجه » (ضد الهراطقة ٣ : ٣) وقال « يجب الخضوع للكهنة الذين أقيموا فى الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرسل ، وأخذوا المواهب الحقيقية بمسرة الآب مع الخلافة الاسقفية. وأما الباقون الذين لم ينالوا الكهنوت بخلافة رسولية وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيث اتفق ، فيجب أن نحسبهم أناسا مشبوهين وهراطقة وأردياء

وعصاة ومتعجرفين ومتكبرين ومرائين ، وانهم لا يتعاطون ذلك الا محبة فى الربح والمجد الفارغ » (ضد الهراطقة ٤ : ٢٦) وقال **القديس كبريانوس** « نحن خلفاء الرسل ومدبرو كنيسة الله عينها » وقال أيضا « ان سلطان حل الخطاة أعطى للرسل وللكنائس التى هم أسسوها اذ أرسلوا من الله وللاساقفة الذين خلفوهم بحسب ترتيب النيابة » (رسالة ٢٥) وقال أيضا « ان الشعب المتحد مع الكاهن والقطيع الخاضع لراعيه يشخص (١) الكنيسة ولهذا يجب أن تعلموا أن الاسقف بالكنيسة والكنيسة بالإسقف ، ومن لم يكن مشتركا مع الاسقف فليس فى الكنيسة البتة » (رسالة ٦٩ : ٨) .

وقال **القديس غريغوريوس الثاولوغوس** « ان فى الجسد قسمين قسم يسوس و يرأس ، وقسم يساس و ينقاد . وهكذا فى الكنائس أيضا . فان الله قد رتب أن يكون هؤلاء المحتاجون الى أولئك ملازمين واجباتهم التى عرفوها بالقول والمثال و يلبثوا رعية مرؤوسة ، وأما الاخرون فلانهم أعلى رتبة بفضائلهم ، ومقربون من الله أكثر منهم فقد رتب أن يكونوا رعاة ومعلمين لكمال الكنيسة . وان يحفظوا نحو أولئك التناسب الذى بين النفس والجسد ، و بين العقل والروح ، حتى يكون كلا الامرين أعنى نقص الرعية وفضل الرعاة شبيهين بالاعضاء فى الجسد ومتحدين كواحد ومنضمين ومرتبطين برباط الروح ، فيؤلفان جسما واحدا فقط كاملا ولائقا حق اللياقة بالمسيح رئيسنا » (خطاب ٣) .

وقد كتب **القديس أوسيوس** أسقف قرطبة الى الملك قسطنت ما نصه : « لا تتداخل فى الامور الكنسية ولا تأمرنا بها ، بل أحرى بك أن تتعلمها منا ، لأن الله سلمك الملك ، وأما الكنيسة فقد استودعت لنا نحن . وكما أن من يختلس الملك منك يقاوم الله الذى رتب ذلك ، هكذا خف من أن تجرم جرما كبيرا بأن تختلس لنفسك ما يخص الكنيسة ، فانه مكتوب : اعطو ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (ذكره **القديس أثناسيوس** فى تاريخ الاريوسيين عدد ٤٤)

وقال **القديس اغسطينوس** عند كلامه عن الملاك الذى ظهر لكرنيليوس قائد المئة « كل هذه الاشياء (أى التعليم والتعميد) كان ممكنا أن تتم بواسطة الملاك . ولكن لو كان الله لا يريد أن يعلن كلمته للبشر بواسطة البشر أنفسهم لاضحى الطبع البشرى زريا وساقطا ، هذا فضلا عن أن المحبة تربط البشر بعضهم ببعض وتوجب عليهم أن يتعلموا بعضهم عن بعض » (فى مقدمة التعليم المسيحى عدد ٦) .

سابعا ــ شهادة التاريخ . فقد شهد المؤرخ **موسهيم البروتستانتى** قائلا « لا ريب بأنه

---

(١) يشخص الكنيسة أى يمثلها و يكونها .

كان للكنيسة خدام عامة وشمامسة منذ أول تأسيسها لانه لا يمكن ان يقوم اجتماع بدون خدامه ولا سيما كتلك الاجتماعات التي كانت في الكنائس المسيحية الاولى ... واقتدى بمثال كنيسة أورشليم كل الكنائس اطاعة لاوامر الرسل . ومن المعلوم انهم عينوا كذلك شمامسة (١ تى ٣ : ٨ و٩) وكان أيضا في كنائس كثيرة ولا سيما في كنائس آسيا خادمات عامة وشماسات ... وحينما اتسعت الكنائس وازداد عدد الشيوخ والشمامسة والواجبات المطلوبة اقتضى أن يكون لمجمع الشيوخ رئيس مشهور برزانته وذكائه يوزع على رفقائه أشغالهم المتنوعة ، و يكون كمركز لكل الجماعة ، وهذا كان يسمى أولا ملاكا (رؤ ٢ و٣) ثم سمي بعدئذ أسقفا ، وهي كلمة يونانية تدل على شغله الاصلي ... فمع هذا كله لم تطل المدة الا وازدادت الاسقفية اتساعا وسطوة لان الاساقفة الذين سكنوا المدن أما باتعابهم واما باتعاب قسوسهم استحدثوا كنائس في القرى والمزارع المجاورة . وهذه الكنائس استمرت تحت حماية ومناظرة الاساقفة الذين بخدمتهم او عن يدهم قبلت الديانة المسيحية . ورو يدا رو يدا نشأت ولايات كنائسية سماها اليونانيون بعدئذ أبروشيات ، والذين سلمهم أساقفة المدن سياسة وتعليم كنائس القرى والمزارع دعوا « تس خورى ابسكوبى » أي اساقفة المسارح والحقول ، وكانوا في الرتبة الوسطى بين الاساقفة والقسوس فكانوا دون الاساقفة لانهم يخضعون لهم وفوق القسوس لانهم تصرفوا بحكمتهم ونباهتهم وعملوا كل واجبات الاساقفة » (موسهيم ك ١ قرن ١ قسم ٢ فصل ٢) وقال أيضا « ان نظام سياسة الكنيسة الذى ابتدأ في القرن السابق (الاول) تقرر وتثبت في هذا القرن بأكثر همة ونشاط في كل أجزائه فكان رئيس واحد أو أسقف يتنصب على كل كنيسة من الكنائس ، وتنصيبه عليها باستدعاء عام من كل الشعب ، وكان عليه أن يسهر على مصالح الكنيسة مع الشيوخ الذين لم تتعين كميتهم و يفرض لكل منهم مركزه . وكان تحت رئاسة الاسقف والشيوخ أيضا الشمامسة أو الخدام الذين انقسموا الى رتب اذ لا يمكن أن يقوم شخص واحد بكل مصالح الكنيسة المطلوبة » (ك ١ قرن ٢ قسم ٢ فصل ٢) .

ثامنا ــ شهادة الكنيسة الاسقفية والبروتستانت . فقد جاء في كتاب الصلاة العامة للكنيسة الانكليزية في فصل الكلام على الصورة والطريقة لاقامة ورسامة وتكريس الاساقفة والقسيسين والشمامسة ما يأتي : « جميع الذين يطالعون الكتاب المقدس ومؤلفات الاقدمين باعتناء يتبين لهم أن درجات الخدام هذه كانت في كنيسة المسيح في عهد الرسل وهي الاسقفية والقسوسية والشماسية . وكانت هذه الوظائف تعتبر موقرة دائما . فلم يكن أحد يجترىء على اجراء (١) احداها الا اذا دعي أولا وامتحن وفحص وعلم أنه متصف بالصفات المطلوبة فكانوا يستصوبون (٢) و يقبلون بالصلاة الجمهورية مع وضع الايدى بسلطان شرعي . ولغاية أن تبقى

(١) أى قبول احدى الدرجات الكهنوتية .

(٢) أى يفحصون و يستصوب الناس رسامتهم .

هذه الرتب (1) وتستعمل بالتوقير والاعتبار فى كنيسة انكلترا لا يصح أن يحسب أحد أو يتخذ أسقفا شرعيا أو قسيسا أو شماسا فى كنيسة انكلترا أو يؤذن له فى أن يجرى احدى هذه الوظائف المذكورة الا أن يدعى ويمتحن و يفحص و يقبل على الصورة الا تية ، أو يكون قد كرسه قبلا أو رسمه أسقف ما . فلا يقبل احد شماسا الا اذا بلغ سنة ثلا ثا وعشر ين سنة ، الا ان كان معه اجازة . وكل من يقبل قسيسا لابد أن يكون قد بلغ اربعا وعشر ين سنة كاملة . وكل من يرسم أو يكرس أسقفا لابد أن يكون عمره ثلا ثين سنة تامة » و يلى هذا الكلام صورة الرسامة لكل من الدرجات الثلاث .

وفى سنة ١٨٩١ نشر اساقفة انكلترا باللغة الانكليز ية نبذة عن الخلافة الرسولية ترجمت وطبعت باللغة العربية بانكلترا ووزعت فى مصر ، وفى فاتحتها مقدمة بقلم طيب الذكر المتنيح **الايغومانوس فيلوثاوس** رئيس الكاتدرائية القبطية بمصر جاء فيها (2) « قد تحفظت البيعة المسيحية فى جميع أنحاء العالم على الثلاث وظائف المذكورة مدة الف وخمسماية سنة بعد المسيح ، انما اكراما للرسل الاولين قد استصوبت عدم استعمال كلمة رسول لخلفائهم . وكانت تسمى رؤساء الاكليروس أساقفة ، وهذا الاسم يعطى فى الانجيل لثانى درجة من الاكليروس أعنى بهم القسوس (فى ١ : ١) وكان محصورا فى الاساقفة حق تكريس اخرين لوظيفتهم أو الوظائف أدنى منها . وكما أن الكهنة المتناسلين من الكهنة الحقيقيين فى الشريعة اليهودية تتألف منهم سلالة هرون ، كذلك تتألف الخلافة الرسولية من الاساقفة والقسوس المسيحيين الذين رسموا لوظائفهم من جيل الى جيل » .

وقد ورد فى كتاب مصابيح الدعاة فى واجبات الرعاة تأليف **القس هنرى** جسب الامر يكانى ما يأتى خلاصته .

« الوظيفة الرعو ية من مقتضيات الطبيعة الروحية » .

ولنا على ذلك اربعة ادلة : —

١ — ان كل أمر يفتقر اليه البشر يستلزم خدمة أو وظيفة .
٢ — انه يتعذر انتظام فرقة من الناس دون متوظفين وأعضاء وقوانين .
٣ — أنه لم تخل جماعة على وجه الارض من وظيفة دينيّة ، والشاهد على ذلك تواريخ الكلدانيين

---

(١) أى وما دامت الرتب الكهنوتية بتوقيرها بانجلترا فلا رسامة الا بامتحان .

(٢) راجع هذه النبذة فقد أدرجت بنصها فى مجلة الكرمة فى المجلد الثالث عشر الجزء الرابع .

والمصريين والفرس واليونانيين وما يشاهد في أيامنا من أمر الهنود والصينيين والبرابرة والوثنيين .

٤ — ان لبعض الناس سجايا وخواص ينظر اليه الناس باعتبار واحترام غير اعتياديين تصيرهم رعاة أي رؤساء أو مرشدين للشعب ، وفي ذلك ترتيب الهي لمقاصد خيرية (فصل ١ قسم ١ صحيفة ٣ و٤) .

الفصل الثالث

الكهنوت من حيث هو سر وله طقس خاص

ان المسيح تقدس اسمه أراد أن يقام اكليريكيون ويمتازون عن عامة الشعب بطقس خاص ، يكرسون به لأجل مباشرة الخدم الكنسية و يقلدون به الولاية الروحية على الشعب . وهذا أمر يقتضيه الطبع لأن الاكليريكيين لا يولدون اكليريكيين ، ولا يعينهم الله رأسا ، فمن ثم يقتضى اذن وجود علامة حسية وطقس خاص احتفالى لسيامتهم ، به يعينون على مرأى من الشعب ، و به يستدل على منحهم هذه النعمة وتقليدهم هذه الولاية .

و يتضح تأسيس سر الكهنوت من الله تعالى مما يأتى :

أولا — من الكتاب المقدس الذى يدلنا على أن الرسل الاطهار فى سفر الأعمال وفى رسائلهم كانوا يتممون هذا السر بوضع أيديهم على المنتخبين لترقيتهم الى الدرجة الكهنوتية ، وقد قال بولس لتلميذه تيموثاوس « لا تهمل الموهبة التى فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدى المشيخة » (أى القسوس) ١ تى ٤ : ١٤ وقال له أيضا « اذكرك أن تضرم أيضا موهبة الله التى فيك بوضع يدى » (٢ تى ١ : ٦) .

ومن هذه النصوص يتضح أن فيها كل مقتضيات السر : —

١ — علامة حسية وهى وضع الأيادى كما هو مذكور فيما سبق وفى (١ تى ٥ : ٢٢ ، أع ٦ : ٦ ، ١٣ : ٣) .

٢ — له الوعد بالنعمة أو الموهبة من الله .

٣ — الوضع الالهى حسب قول الرب « أفرزوا لى برنابا وشاول » (أع ١٣ : ٢) ، « احترزوا اذا لانفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة » (أع ٢٠ : ٢٨) و يقرر بولس الرسول فى رسالته الى أهل أفسس أن الله هو الذى أقام هؤلاء الخدام بقوله « وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلا والبعض أنبياء والبعض مبشرين والبعض رعاة ومعلمين الخ » (اف ٤ : ١١) ومما تقدم ترى أن المفرزين لهذه الخدمة يكرسون بعمل خاص و ينالون نعمة وموهبة خاصة من الروح القدس الذى يقيمهم .

وفي كتاب أعمال الرسل نرى أن بولس و برنابا بينما كانا يجولان للكرازة في لسترة وايقونية وانطاكية يشددان التلاميذ « انتخبا لهم قسوسا في كل كنيسة ثم صليا بأصوام واستودعاهم للرب » (أع ١٤ : ٢١ ــ ٢٣) كذلك الشمامسة الذين اختارهم المؤمنون فقد وضع الرسل عليهم الأيادى (أع ٦ : ٦) .

ثانيا ــ أن نظام العناية الالهية يقتضى أن يكون فى الكنيسة قواد ورؤساء يقودون الشعب ، و يسوسونه و يؤدون الخدم اللازمة لهم ، كما يقتضى ذلك نظام كل جماعة بشرية تقلد وظائفها باحتفال خاص وعلامات ظاهرة حسية واذا كانت المعمودية التى هى سر يراد به صيرورة البشر أبناء الله واعضاء فى الكنيسة اقتضى أن تكون سرا حقيقيا بطقس خاص ، فبالأولى كثيرا يليق بهذه الرتبة التى بها يصير بعض المؤمنين قادة لجنود المسيح ومعلمين للايمان وخدمة لباقى الأسرار.

ثالثا ــ من التقليد : فان **القديس أغسطينوس** يقول ردا على تعاليم الدوناتيين « فليفهمنا الدوناتيون لماذا رسم المعمودية لا يمحى ، ورسم الدرجة يمحى حسب اعتقادهم . فان كان كلاهما سرين حقيقيين كما هو مقرر عند الجميع ، فلماذا الواحد يبقى والآخر يمحى ؟ » (رد على رسالة برمينيون) وقال **القديس باسيليوس** « أما الذين خرجوا عن الكنيسة فلن ينالوا بعد ذلك نعمة الروح القدس عليهم ، لأن منح النعمة قد زال لانقطاع الخلافة لأن الذين خرجوا أولا كانوا قد نالوا الشرطونيات (وضع اليد) من الآباء و بوضع أيديهم حصلوا على الموهبة الروحانية » (رسالة قانونية أولى قانون ١) [1] .

وقال **القديس يوحنا ذهبى الفم** « انظر كيف أن المؤلف لا يذكر شيئا عبثا . لأنه لم يقل كيف شرطن بل قال قولا بسيطا انه شرطن بالصلاة وهذه هى الشرطونية كلها ، اذ توضع اليد على رأس الرجل والله يفعل كل شيء ، و يده هى التى تمس رأس المشرطن اذا شرطن كما يجب ، وأنظر كيف كان بين السبعة (الشمامسة) واحد (استفانوس) مميزا ونال الأولية . فان الشرطونية وان كانت عامة ولكن هذا نال نعمة أكثر، وقبل الآن لم يكن يفعل آيات بل بعد أن نودى به ، لكى يتضح أن النعمة وحدها لا تكفى وأن الشرطونية ضرورية معها ، فقد زادت عليهم نعمة الروح القدس وان كانوا قبل الآن مملوئين من الروح غير ان ذلك يشير الى نعمة الحميم فقط » (مقالة ١٤ : ٣ ، ١٥ : ١ على سفر الاعمال) .

---

(١) يقصد أن الذين نالوا الدرجة الكهنوتية من الآباء ثم انشقوا وخرجوا عن الكنيسة قد أبطل عملهم وأوقفوا بنفس سلطان الكنيسة ، ولم يعد لهم حق وضع اليد .

رابعـا : من شهادة البروتستانت . ان البروتستانت المسيحين أقروا بأن الاسرار لا يمكن أن يـتممها الا القسوس الذين لهم وحدهم هذا الحق . فقد جاء فى نظام التعليم فى علم اللاهوت الـقـويم تـألـيـف **الـقـس جـيـمـس انس الامـر** يـكـانى جوابا على سؤال بمن يختص حق ممارسة المعمودية . أى من له حق أن يعمد ؟ جاء فيه أن « حق ممارسة المعمودية يختص بالقسوس المعينين قـانـونـيا لوظيفتهم فى الكنيسة المسيحية » (جزء ٢ صحيفة ٤٢٠) وقال جوابا على سؤال هل فى الـكنيسة وظائف وما هى ؟ « ان فى كنيسة المسيح وظائف معينة من قبل السيد له المجد الذى هو رأس الكنيسة الوحيد ، وتلك الوظائف بعضها وقتى و بعضها دائم . فالوظائف الوقتية هى وظائف الانـبـيـاء والرسل وليس لها وجود فى الكنيسة الآن ، والوظائف الدائمة بموجب النظام النيابى المار ذكره ثلاث ... وقد سمى التوظف فيها بأسماء مختلفة فى العهد الجديد فمنها قسيس وأسقف وشيخ ونـاظر وخادم وراع ووكيل سرائر الله (أع ١٤ : ٢٣ ، ٢٠ : ١٧ و٢٨ ، ١ كو ٤ : ١ ، فى ١ : ١ ، ١ تى ٥ : ١ و١٩ ، تى ١ : ٥ ، يع ٥ : ١٤ ، ١ بط ٥ : ١ ــ ٥) .

وجـاء فـى النبذة المسماة « الخلافة الرسولية » السابق ذكرها التى طبعها ونشرها أساقفة انكلترا ما يأتى : ــ

كـل من يدعى بأن يكون قسيسا وراعيا للشعب المسيحى فلابد أن يبنى ادعاءه على أحد الاربعة الاوجه الاتية : ــ

(أ) أما أن يدعى أن الله نفسه أرسله مباشرة .

(ب) أو أنـه تحـصـل عـلـى مـأمور يته حسب الأصول من قبل الذين أرسلهم الله مباشرة وأعطاهم سلطانا بارسال آخرين كذلك .

(جـ) أو يـدعـى بـكـونـه مختارا ومنتخبا من الجماعة التى يرعاها أو الشركة التى يكون عضوا منها .

(د) أو أنـه يـكـتـفى باعتقاده فى نفسه أنه جدير بأن يكون معلما . ففى الوجهين الأولين فقط يكون مرسلا من الله . و يكون له الحق فى التكلم باسمه ، وفى الوجه الثالث يعتبر مرسلا من الـنـاس ، وفـى الأخير غير مـرسل من أحد بل مرسلا من نفسه ... الى أن قال . والوجه الثانى هو طـر يـقـة الـتـوراة فهو مطابق للشر يعة والانجيل معا . أما مطابقته للانجيل فهى فى كون الله أرسل الـرسـل الحـقـيقيين الشرعيين أولا وفوض لهم تعيين خلفائهم من بعدهم ... وأما مطابقته للشر يعة فـلأن الله جـعـل هـرون رئيس الكهنة و بنيه كهنة من تحته « وقرب اليك هرون أخاك و بنيه معه مـن بين بـنـى اسـرائـيـل لـيكهن لى » (خر ٢٨ : ١) وأمر أن الكهنة ينبغى أن ينتخبوا من عائلة

هرون فقط « وقال الرب لهرون أنت و بنوك و بيت أبيك معك تحملون ذنب المقدس وأنت و بنوك معك تحملون ذنب كهنوتكم . » (عدد ١٨ : ١) وحكم بالموت على من يتجاسر على التقلد بهذه الوظيفة من سواهم « وأما أنت و بنوك معك فتحفظون كهنوتكم مع ما للمذبح وما هو داخل الحجاب وتخدمون خدمة . عطية أعطيت كهنوتكم والاجنبى الذى يقترب يقتل . » (عدد ٨ : ٧) وقد نفذ هذا الحكم فعلا بمعجزة فى قورح وداثان وأبيرام « وفتحت الارض فاها وابتلعتهم و بيوتهم وكل ما كان لقورح مع كل الاموال ... وخرجت نار من عند الرب وأكلت المايتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور» . (عدد ١٦ : ٣١ و٣٥) وهكذا كل رجال عائلة هرون كان ممكنا انتخابهم للكهنوت ولو أنهم بتناسلهم منه كان لهم حق فى الكهنوت غير أنه كان لا يمكنهم التقرب لهذه الوظيفة الا بعد أن يمسحهم الكهنة الذين قبلهم « والثياب المقدسة التى لهرون تكون لبنيه بعده ليمسحوا فيها أيديهم » (خر ٢٩ : ٢٩) و بعد هرون بزمن طو يل ضرب الرب عز يا ملك يهوذا بالبرص لاقدامه على التبخير فى هيكل اورشليم (٢ أى ٢٦ — ٢١) .

و بعد أن أثبت مؤلفو تلك الرسالة الكهنوت من العهد الجديد قالوا « ترى الاكليروس المؤلف من الثلاث الوظائف المذكورة وهى الاسقفية والقسوسية والشماسيه قائما بأداء وظيفته من بعد موت الرسل » . وذكر ذلك مار أكليمنضس رفيق بولس الرسول وصاحبه (فى ٤ : ٣) وأيضا ذكرهم مار أغناطيوس تلميذ ماريوحنا أو صاحبه ومار ايرانيوس تلميذ مار بوليكار أحد تلاميذ مار يوحنا الذى مات شهيدا فى سنة ١٧٨ للمسيح . وأما مار اكليمنضس فيخبرنا جليا أن الرسل لما تراءى لهم أنه ستحصل منازعات من جهة رعاية الكنيسة قد استصوبوا وقرروا انتخاب آخرين لينوبوا عنهم وأوصوهم بتعيين خلفاء لهم بعد وفاتهم حرصا على بقاء الخلافة الرسولية . وقد صار اتباع هذا الامر مدة الف وخمسماية سنة عند جميع المسيحيين ما عدا بعض طوائف قليلة العدد والاهمية يعرفون بالبروتستانت » الى أن قالوا : —

« بعض البروتستانت يتفقون مع الكنيسة الاسقفية على أن راعى كنيسة الله الحقيقى يلزم أن يتعين و يرسل بواسطة وضع الايادى من الذين أرسلوا من خلفاء الرسل أنفسهم و يقولون أن الدرجة الثانية من الاكليروس أعنى القسوس أو المشايخ لهم الحق فى وضع الايدى والتكريس مثل الاساقفة . و يبنون على ذلك وجود الخلافة الرسولية عندهم وذلك لأن بعض القسوس أو الشيوخ هم الذين أسسوا الكنيسة البروتستانتية ، فيوجد ثلاثة أجوبة على هذا الادعاء . أولا انه لم يحصل فى الكنيسة فى مدة الف وخمسماية سنة أن أحد من الاكليروس أقل من درجة الاسقف منح رتبة القسوسية أو الشماسية ، وغاية ما هناك كان القسوس يحضرون فى أثناء التكريس علامة على الرضاء العام . ثانيا ولو أنه من الامكان التوضيح بأن الشيوخ فى الكنيسة القديمة كانوا قادرين على التكريس . ولكن المحقق أنه فى مدة الف وستماية سنة تقريبا قد فقدوا هذه القوة حيث الكنيسة قاطبة الغتها بنوع ما والحالة هذه لا يمكنهم استرجاعها

لأنفسهم الا بسماح الكنيسة المذكورة ثالثا أن أكبر كنيسة بروتستانتيه في اسكوتلاندا وهى تعتبر أصل الكنائس البروتستانتية الانكليزية والايرلندية والامريكانية وتأسست فى سنة ١٥٦٠ مسيحية بطريقة الاستقلال بمعرفة شخص يدعى حنا نوكس كان ذلك بدون تعيين قسوس ولا رعاة بواسطة وضع الايدى ولم يحصل ذلك (١) الا بعد مدة من السنين ولم توضع الايدى على أول من انتخبوا لوظيفة القسوسية الذين كان معظمهم من العلمانيين ، وكان يندر وجود قسوس من الكنيسة القديمة بينهم ، وحتى لما فهموا ضرورة وأهمية التكريس بواسطة وضع الايدى كان أغلب لا بل جميع الذين كانوا قسوسا فى الكنيسة القديمة ماتوا . وهكذا فالمكرسون كانوا ممن لم توضع عليهم الايدى ولم يكرسوا أنفسهم . وبناء على ذلك حتى لو صدقنا على ادعاء البروتستانت أن القسوس لهم حق فى التكريس ، فلا يمكن بواسطة ذلك المدافعة عن قسوسهم لأن الذين كرسوهم كانوا علمانيين وليسوا قسوسا كما سبق القول .

« اما الكنيسة المصرية تحت الخلافة المرقسية الرسولية والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الانكليزية وغيرها من الكنائس الأسقفية فقد حافظت بغاية التيقظ والاعتناء على استمرار الخلافه الرسولية فيها بدون خلل أو عيب ، وفى امكانها أن تثبت أن أساقفتها متسلسلون من وقت المسيح » .

وقد الف القس ناصر عودة التابع للكنيسة الانكليزية موعظة فى الكهنوت المسيحى فى سنة ١٨٨٩ طبعت باللغة العربية وفى مقدمتها حكم المطران الانكليزى ج . ف يوهام بليث مطران الكنيسة الانكليزية فى أورشليم والشرق . قال فى حكمه على تلك الموعظة « ربما لا يوجد عضو فى الكنيسة يرتاب فى حكم مار ايرونيموس المقدم من الاسقف ورتسورث أن الكنيسة التى ليس لها كهنة ليست بكنيسة » .

أما هذه الموعظة (٢) فهى اثبات لوجود كهنوت مسيحى فى العهد الجديد ، نذكر منها هنا بعض فقراتها : ـــ

« أنه مما نلاحظه فى الكتاب نتأكد أنه يوجد بركات مختصة بالخلاص يعطيها الله لنا ، ليس رأسا ، بل بواسطة وسائل النعمة التى قد ثبتها هو ذاته ، والتى قد عين لها البعض من اخواننا بنى البشر خداما ليجروها .

« الجميع يسلم أن فى ارجاع النفس الى الله (مثلا) يستعمل الله غالبا واسطة بشرية .

---

(١) أى وضع اليد .

(٢) أدرجت بنصها فى مجلة الكرمة فى الجزء الخامس من المجد الثالث عشر .

هو لا يكرز بالانجيل كما نطق مرة بالناموس بصوته من السماء ، بل يدعو الخطاة للتوبة بصوت اخوتهم رفقائهم فى الخطية . وكما أنه يستعمل الخدمة البشرية فى توبة وارجاع الخاطىء ، هكذا أيضا يستعمل تلك الخدمة فى أمور اخر لها علاقة كلية بخيرنا الروحى .

« يوجد لنا مثل فى استعمال الله العلامة الخارجية لايصال النعمة الروحية فى اشعياء ص ٦ حيث ظهر الرب ذاته الى النبى بينما كان يستجد فى الهيكل فتحير وارتبك لأنه نظر اعلان مجد الله فقال : « و يل لى انى هلكت لأنى انسان نجس الشفتين لأن عينى قد رأتا الملك رب الجنود » فعند ذلك طار اليه واحد من السيرافيم و بيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فم النبى ونطق له بهذا الحل . « ان هذه قد مست شفتيك فانتزع اثمك وكفر عن خطيتك » .

« ولا ريب ان اشعياء امن بحصوله على الحل من خطاياه لأنه لما سأله الرب « من أرسل » أجابه بكل ثقة « هأنذا أرسلنى » : أننا كنا ننتظر أن الله يصرح بهذا الحل للنبى أشعياء بذات صوته الالهى . أو بالحرى يعطيه التأكيد الداخلى على غفران خطاياه لأنه كان معتادا على الاعلانات الالهية . غير أن الله لم يستعمل احدى هاتين الطريقتين بل بالحرى ارتضى عز وجل أن يصرح بهذا الحل بواسطة ملاك ، وأن يستعمل فعلا خصوصيا أى علامة خارجية لتأكيد النبى ، وأكثر من ذلك أننا نرى ان الملاك قد جعل علاقة كلية بين « انتزاع الاثم » و بين ذبيحة الهيكل الكفارية التى قد عينت لأنه مس شفتى النبى بجمرة قد اخذها من على المذبح الذى كان يوقد عليه تلك الذبيحة .

« انى لا أقدم هذه الرؤيا برهانا على الكهنوت المسيحى فى العهد الجديد بل أقدمها كمثال نستنتج منه أن الله يستخدم فعلة ينوبون عنه وعلامات ظاهرة خارجية ليعطى عبيده بركات كالتطهير والغفران . لأنه ان استخدم هذين الأمرين ليبارك على عبده اشعياء الذى منحه اعلانات عن ذبيحة الكفارة الوحيدة كما فى الأصحاح ٥٣ من نبوته ، فكم بالحرى يستخدم هذين الأمرين الآن لأولاد كنيسته الاعتياديين .

« ولا ثبات وجود كهنوت مسيحى فى العهد الجديد لنتكلم عن وجوده فى النظام البطارقى ، والنظام الموسوى ، والنظام المسيحى .

« أولا : من جهة النظام البطارقى ، فأول ذكر لكاهن نراه فى الآيات الواردة فى (تك ١٤ : ١٨ — ٢٠) « وملكى صادق ملك شاليم اخرج خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلى . و باركه وقال مبارك أبرآم من الله العلى مالك السموات والارض ، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك . فأعطاه عشرا من كل شىء » .

« فان وجد انسان على وجه البسيطة لا يحتاج الى بركة من فم انسان نظيره فذلك الانسان هو ابراهيم الذى كان قد ظهر له الرب قبل هذه الواقعة ثلاث مرات ، وكان قد وعده أن فيه تتبارك جميع قبائل الارض ، فما هى الحاجة لأن يتوسط كاهن بين الله و بين ابراهيم . ومع ذلك كان ابراهيم فى احتياج الى ذلك لأن الله قد عين أن ذلك الكاهن والملك ينبغى أن يبارك من كانت له المواعيد .

« فمن فعل البركة هذا يظهر لى أن الله لم يمنح شرفا وقدرا لرتبة بشر من كهنة او خدام بل بالحرى قد صرح بسلطته المطلقة أى انه يحق له ان يوصل بركاته كيفما اختار .

« ابراهيم كان بنوع خصوصى رمزا الى المسيحى الذى يتبرر بالايمان و يتمسك بالمواعيد . وان كان قد شرفه الله بالتكلم معه مرارا و بتسميته اياه خليله الا أن العناية أرشدت هذا الانسان الى كاهن ليتبارك منه ، ومهما كانت امجاد ذلك الكاهن الرمزية عظيمة الا أنه فى زمان ابراهيم لم يكن معروفا الا ككاهن وملك فى أرض كنعان .

« فمهما تعلمنا من هذا الخبر نتعلم بلا ريب أمرين (١) أنه مهما كان المسيحى متقدما فى الحياة الروحية ومتمسكا بالمسيح لا يجب أن يدعى أنه أتصل الى درجة لا يحتاج فيها الى نوال البركة ممن قد عينهم الله لايصالها (٢) أن مخاطبة الله رأسا للمؤمنين لا تضاد ولا تمنع لزوم مخاطبته لهم بواسطة لايصال بركاته ان كان ذلك بموجب تعيينه الالهى .

« ثانيا . لنأت الآن الى النظام اليهودى . لا احتياج لتكثير البراهين أنه فى هذا النظام كان الكهنة يوصلون بركات الله للشعب الاسرائيلى ، الأمر المسلم به من الجميع .

« الله كان قد رتب ان سبطا بين أسباط اسرائيل الاثنى عشر يجب أن يخدمه فى الهيكل . وأهم واجبات خدمته كان عمل الكفارة . كان الله يستطيع ان يغفر خطايا شعبه بدون واسطة الوسائل الظاهرة ولاسيما لأنه كان مزمعا أن يعد ذبيحة كاملة كافية . غير أنه سر أن يعين أن خطايا شعبه لا تغفر الا بتقديم ذبائح معلومة يقبلها الكهنة من الشعب و يقدمونها للرب ...

« خدم أخرى كانت مختصة بالكاهن : مثل تقديم البخور ، والحكم فى تطهير الابرص ، ووضع خبز التقدمة على المائدة بترتيب ، و بركة الشعب باسم الرب ...

« فمن جهة النظام اليهودى اذن واضح كل الوضوح أن الله عين أن شعبه ينتظرون بركات معلومة عظيمة بواسطة خدمة اخوتهم ...

« أنه يوجد ثلاث قضايا فى هذا الكهنوت الاستعدادى تشير الى خدمة كهنة نظام العهد الجديد : (١) اختيار الله وتقديسه كل الشعب اليهودى ليكون مملكة كهنة لم يمنعه عن افراز سبط لاوى ليكونوا كهنة له بمعنى خصوصى ، وليجروا أمورا بالنيابة عن أخوتهم لم يسمح لهم الله أن يجروها هم أنفسهم ، وليصلوا بركات معلومة لا ينتظر اعتياديا الحصول عليها الا على يدهم .

« ومار بطرس حينما يشير الى كهنوت جميع المسيحيين كأعضاء جسد الكاهن الواحد السرى بقوله « وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى » (١ بطرس ٢ : ٩) أهو لا يعترف بكهنوت المسيحيين العام أكثر مما اعترف بكهنوت الاسرائيليين العام فى النظام اليهودى الذى يشير اليه الله ذاته بواسطة موسى قائلا « وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » (خر ١٩ : ٦) لا بل نقول ان كلام ماربطرس عن المسيحيين ليس الا اقتباسا أو تخصيصا لكلام الله عن اليهود .

« اذن كون جميع اعضاء كنيسة المسيح كهنة لله لا يناقض مطلقا اختيار الله رتبة معلومة من البشر من وسط كنيسته وجعله اياهم كهنة بمعنى خصوصى ليجروا خدمة لاخوتهم .

« (٢) القضية الثانية التى تستحق الذكر هنا هى : أنه منذ سقوط آدم لم يوجد ولن يوجد الا كاهن واحد حقيقى وهو الرب يسوع ، وكفارة واحدة أى جسده الذى بذل ، ودمه الذى سفك لمغفرة الخطايا .

« والرسول ماربولس يصرح أن دم الثيران والماعز لا يرفع الخطية ومع ذلك فما نقرأه فى سفر اللاويين يتضح جليا أن ارادة الله كانت أن شعبه يعتبر تلك الذبائح والمحرقات انها تكفر كفارة حقيقية .

« وهكذا قال عن المحرقه (لا ١ : ٤) « فيرضى عليه للتكفير عنه » وعن ذبيحة الاثم يقال (لا ٥ : ١٠) « فيكفر عنه الكاهن من خطيته التى أخطأ فيصفح عنه » ولا سيا يقال عن ذبيحة الكفارة السنوية (لا ١٦ : ٣٠) « لأنه فى هذا اليوم يكفر (الكاهن) عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم أمام الرب تطهرون » .

« لا يمكننا أن نتصور كلمات تصف كفارة حقيقية ذات فاعلية أوضح من هذه الكلمات التى اشرت اليها لأنها تشير الى تطهير لكى يتطهر الساجدون « أمام الرب » .

« والتفسير الوحيد الذى يوفق بين هذه العبارات و بين قول ماربولس عن دم الثيران والماعز انه لا يستطيع ان يرفع الخطية هو أن تلك الذبائح طهرت ليس بقوة فيها هى ذاتها بل لأنها

كانت وسيلة معينة لجعل البشر يشتركون على طريقة ما في الذبيحة الواحدة الكافية للجميع . فتلك الذبائح كانت فعالة للتكفير وطهرت من الخطية (أمام الرب) ليس لان الله رأى فيها هي ذاتها أدنى قوة ، بل لأن قوة الذبيحة الوحيدة كانت منعكسة اليها الى درجة ما .

« وهكذا الامر في الكهنة بالمقابلة مع الكاهن الوحيد الذي كان مزمعا ان يبذل ذاته ، فهم بالمقابلة معه ليسوا بكهنة لانه لم يوجد ولن يوجد الا الكاهن الوحيد الحقيقي . ولكن بالمقابلة مع اخواتهم الاسرائيليين هم كهنة لانهم بتعيين الله اجروا بخدمتهم الكفارة وطهروا ايضا (امام الرب) ...

(٣) القضية الثالثة في كهنوت العهد القديم التي لها علاقة بالكهنوت المسيحي في العهد الجديد هي أنه يوجد جملة نبوات في العهد القديم تشير الى ملكوت المسيح ، وفي هذه النبوات سبق الروح فصرح جليا أن (كهنة) و (لاويين) سيجرون واجبات وظائفهم المتنوعة تحت حكم داود الروحي العظيم .

(أ) ارميا (٣٣ : ١٥ — ٢٢) خصوصا (الاعداد ١٧ و١٨ و٢١) فبلا شك ان هذه النبوة تشير الى المسيح والى خدمة كنيسته والذبائح الروحية التي يقدمها الخدمة لاسيا تلك الذبيحة غير الدموية التذكارية أي سر الافخارستيا . وهنا خدمة الانجيل يسمون بذات الاسم الذي تسمى به خدمة العهد القديم .

(ب) ملاخي (٣ : ٣) الروح سبق فقال عن المسيح ملاك العهد « فيجلس ممحصا ومنقيا للفضة فينقي بني لاوي و يصفيهم كالذهب والفضة ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر» ولا نستطيع أن نفسر هذه النبوة الا عن تنقيه المسيح خدمة دين لنفسه من وسط شعبه المسيحي . لاننا ان فسرناها عن كهنوت المسيحيين العام نغلط لان المراد هو تنقية ليس كل الشعب بل سبط من وسط الشعب وذلك السبط هو السبط المعين لخدمة المقدس . وأما بقية الشعب بجملته فيدعى في النبوة (يهوذا وأورشليم) (عد ٤) حتى المفسر الشهير (سكوت) يسلم أن هذه النبوة والنبوة المذكورة في ارميا التي مر ذكرها تشيران الى خدمة الدين المسيحي بالامتياز عن كهنوت المسيحيين العام .

ان كان الله لم يقصد في العهد الجديد ان خدمة الدين يكونون كهنة خاضعين للكاهن الحقيقي الوحيد ، وان كان الاعتقاد بذلك تجديفا كما يزعم البعض مغائرا لكهنوت المسيح الحقيقي الوحيد ، فلماذا ألهم الله أرميا أن يتنبأ عن خدمة (كهنة) تحت حكم ابنه في العهد الجديد ؟

ان كان الله لم يقصد في العهد الجديد ان خدمة الدين يكونون كهنة خاضعين لكهنوت ابنه وكهنوت المسيحيين العام فلماذا جعل ملاخي يتنبأ عن ابنه أنه عند مجيئه الى العالم سينقى ليس كل، اسرائيل فقط بل بنوع خصوصي (بنى لاوى) — أى سبطا واحدا من وسط الشعب المقدس، مفرزا الى خدمة المذبح ، ممتازاً عن اخوته .

ثالثا — لنأت الآن الى نظام الكاهن الحقيقى الوحيد والذبيحة الحقيقية الوحيدة . هل عين رئيس كهنتنا العظيم خدمة دين . فان كان قد عينهم فما هو المركز وما هى الخدمة التى عينها لهم فى نظامه هذا ؟

فان اتضح من الانجيل ان المسيح رتب أن خدامه يجب أن يوزعوا فوائد كفارته لاخوتهم أما بواسطة الكرازة او بواسطة أفعال ذات معنى كالأسرار، فحينئذ يكون هؤلاء الخدام كهنة حقيقيين كما كان كهنة النظامين اليهودى والبطارقى . لأن الأمر المهم فى هذه المسألة هو ليس الاسم الذى سمى به خدام الانجيل بل الواجبات التى تعينت لهم ..

وهنا افاض المؤلف فى ذكر الآيات الكتابية الدالة على وظيفة الرسل وخلفائهم من بعدهم ، وسلطانهم الكهنوتى الذى منح لهم ومركزهم وخدمتهم التى خصصوا لها كالكرازة والمعمودية واجراء سر الأفخارستيا وتفويضهم حل الخطايا ، وختم كلامه بما يأتى : —

« علينا أخيرا أن نرى هل كان للرسل سلطان أن يسلموا اجراء هذه الخدمة لغيرهم فان لم يكن لهم سلطان على ذلك فحينئذ يكون أولئك المسيحيون فقط الذين عاصروهم وعاشروهم قد تعمدوا وتناولوا العشاء الربانى وحصلوا على الحل . لأنه لا يجب أن ننسى أن التفويض الأصلى بالكرازة والمعمودية واجراء خدمة العشاء الربانى وسلطان الربط والحل لم يعط الا للرسل وحدهم . لأنهم هم وحدهم كانوا حاضرين كما يذكر الانجيل حين اعطاء ذلك التفويض وفضلا عن هذا توجد كلمات معلومة فى سفر الاعمال يستنتج منها أن التفويض كان محصورا فى الرسل فقط (أع ١ : ٢) بالمقابلة مع (مت ٢٨ : ١٦ و١٨ و١٩ ، مر ١٦ : ١٤ و١٥ ، يو ٢٠ : ١٩ — ٢٧ ، أع ١٠ : ٤٠ — ٤٢) فلو أراد الرب يسوع المسيح أن يفوض كافة المسيحيين اجراء هذه الخدمة لكان على الأقل جمع كل التلاميذ عند اعطائه التفويض أو اعطاه فى وقت اجتماع المائة والعشرين والخمسمائة . ولكنه لم يشأ ذلك بل اراد أن يكون كهنوت مسيحى خصوصى فى كنيسة العهد الجديد كما كان فى كنيسة العهد القديم كهنوت خصوصى بالامتياز عن كهنوت المسيحيين العام . ولذلك الى وقت صعود المسيح كان الرسل وحدهم خدمة الدين الذين فوضوا ليخدموا فى كنيسته .

ولأجل دوام هذه الخدمة أعطى المسيح أو الروح القدس الرسل سلطانا ليسلموا اجراء هذه الخدمة بواسطة وضع اليد أى الرسامة .

ووضع اليد هذا كان من أركان النظام المسيحى حتى ذكر مع المبادىء الاولية للتعليم المسيحى أى أساسات الديانة المسيحية (عب ٦ : ١ — ٤) .

فكل متوظف فى الكنيسة من الرسل (أع ١٣ : ٢) الى الشماس (أع ٦ : ٦) افرز الى خدمة وظيفته بوضع الايدى هذا . لأنه ان كان الرسل فعلوا ذلك فى أمر الشمامسة الذين فوضوا لهم واجبات خدمة موائد ، فكم بالحرى يكون قد فعلوا ذلك فى أمر من فوضوا لهم خدمة روحية .

فى الرسائل الرعوية نجد أن وضع اليد لنقل هذا السلطان هو الواسطة المعتبرة لابقاء خدمة خدام الدين فى الكنيسة . فاربولس يأمر تيموثاوس قائلا « اذكرك أن تضرم أيضا موهبة الله التى فيك بوضع يدى » (٢ تيمو ١ : ٦) وأيضا « لا تضع يدا على أحد بالعجلة » (١ تيمو ٥ : ٢٢) .

اذا الأمر واضح أن المسيح لم يوكل فقط خداما لاجراء أسمى الخدمات الكهنوتية بل قد عين طريقة أيضا لدوام اجراء تلك الخدمات .

فعليكم اذن أيها الاخوة أن تعتبروا خدمة ووكلاء أسرار الله لا كأنهم يكرزون أو يعمدون أو يجرون سر الشركة المقدسة أو يعملون بسلطانهم ، بل بسلطان المسيح الذى فوض لهم تلك الخدمة ، فآمنوا أنهم يخدمونكم بالنيابة عن المسيح واسمه وبحسب ايمانكم يكون لكم .

الفصل الرابع

رد اعتراضات البليموثيين والاصلاحيين

يزعم البليموثيون والاصلاحيون ، وهم مذاهب حديثة نشأت من البروتستانت . بأن خدم الكنيسة وأسرارها يتممها كل واحد من المؤمنين و ينكرون السلطان المعطى لأناس مخصوصين في الكنيسة . وقد ثبت مما أوردناه في الفصول السابقة بأن الله تعالى كما قال الرسول « وضع في الكنيسة أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ثم قوات ... ألعل الجميع رسل . ألعل الجميع أنبياء . ألعل الجميع معلمون . ألعل الجميع أصحاب قوات » (١ كو١٢ : ٢٨ و٢٩) وقوله « وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلا والبعض أنبياء والبعض مبشرين والبعض رعاة ومعلمين . لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح » (اف ٤ : ١١ و١٢) « ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضا » (عب ٥ : ٤) فاذا كان الكل رعاة فأين تكون الرعية . وهل يمكن وجود رعاة حيث لا خراف ولا قطيع غنم . وكل هيئة اجتماعية لا ينتظم حالها الا بموجب قانون يديرها . و يلزمها تخصيص البعض القيام بوظائف الخدم اللازمة لتلك الجماعة بناء على الاوامر العالية الصادرة من تلك السلطة الشرعية والا فماذا تكون تلك الهيئة التي يجوز فيها لاي كان من افرادها أن يجلس على منصة القضاء و يصدر الاحكام و يسن الشرائع و يشكل المجالس كما يشاء ؟ ألا تكون الهيئة فوضى عاقبتها الخراب . ألم يعين الله للشعب الاسرائيلي كهنة لتدبير أموره وأفرز لهم سبطا خاصا للكهنوت وخصص في كتابه سفرا خاصا بهم . فهل يصح أن يترك المسيح كنيسته بدون تدبير كهذا . هل يعقل أنه يجعلها فوضى يجوز للكل أن يباشروا ما فيها من الخدم الدينية والاسرار الالهية . هذا أمر لا يقبله العقل فكم بالحرى لا تأتيه الحكمة العلوية التي تضع كل شيء بنظام عجيب . فالبليموثيون الذين ينكرون كل سلطة في الكنيسة ، و يقولون بالمساواة المطلقة ، و يسمون أنفسهم اخوة ولا يسلمون بوجود قسوس ولا وضع يد ، و ينادون بأن للجميع الحق في مباشرة الخدم الدينية على السواء ، يخالفون بتعليمهم هذا العقل والكتاب .

ونأتي هنا بالاعتراضات التي يتذرعون بها في تعليمهم مفندين اياها : — الاعتراض الأول — يقولون أن الكتاب يدعو كل المؤمنين كهنة بقوله « كونوا أنتم مبنيين كحجارة حية بيتا روحيا كهنوتا مقدسا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح ... وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة » (١ بط ٢ : ٥ و٩) وقوله « الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا

بـدمـه وجعلنا ملوكا وكهنة لله أبيه » (رؤ ١ : ٥ و٦) وأيضا قوله « وجعلتنا لالهنا ملوكا وكهنة » (رؤ٥ : ١٠) .

ونـدفع هذا الاعتراض بأن الكتاب ذكر مرارا بأن المؤمنين هم كهنة ، وهذه الكلمة تأتى فى الـكـتـاب بمـعـنـى حقـيـقى عن الكهنة خدام الله المكرسين للخدمة ، وبمعنى مجازى عن جميع المؤمـنين لأنهـم يـقـدمون لله ذبائح روحية هى صلواتهم وعبادتهم له تعالى . والدليل على ذلك أن بطـرس الرسول بعدما دعا المؤمنين « بيتا روحيا » وأضاف حالا بأن الله جعلهم « كهنوتا مقدسا لتـقـديم ذبـائـح روحـيـة مقبولة عند الله » تمييزا لها عن الذبائح الحقيقية التى لا يجوز لغير الكهنة تـقـديمها . خصوصا وأن بطرس الرسول يقتبس هذه الآية من سفر الخروج (١٩ : ٦) حيث قيلت أولا عن الشعب الاسرائيلى . ومن المعلوم أن هذا الشعب الذى اعلنه الله بأن يكون له مملكة كهنة وأمة مقدسة لم يحصل بأجمعه على الكهنوت الحقيقى الذى أختص به سبط لاوى دون سواه . حتى ان قورح وداثان وأبـيـرام الغرباء عن الكهنوت عندما تعدوا على الكهنوت فتحت الارض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء الى الهاوية (راجع عدد ١٦ : ١ ــ ٤٠) .

قـال **القـديـس امـبـروسـيـوس** « ان كل مؤمن يمسح كاهنا وملكا غير أنه لا يصير ملكا حـقـيـقـيـا ، ولا كاهنا حقيقيا ، بل ملكا روحيا وكاهنا روحيا يقرب لله ذبائح روحية وتقدمات الـشكر والتسبيح » (ك ٤ فى الكهنوت) . وقال **القديس أغسطينوس** « أن الكهنوت الملكى لا يـقـال عـن الاساقفة والقسوس فقط الذين هم فى الواقع وحقيقة الامر كهنة فى بيعة الله ، ولكن الجـمـيع يدعون مسيحيين بسبب المسحة السرية ، كذلك الجميع يدعون كهنة لأنهم أعضاء كاهن واحـد وهـو المـسـيح ، وعنهم قال الرسول أنهم « أمة مقدسة وكهنوت ملوكى » (مدينة الله ك ٢٠ فصل ١٠) .

والـبـلـيـموثيون أنفسهم يفسرون هذا التفسير ، فقد جاء فى تفسيرهم لسفر الرؤيا المطبوع بالاسكندرية سـنـة ١٩١٠ عند تفسير قوله « وجعلنا ملوكا وكهنة لله » رؤ ١ : ٦ ما نصه « هذه الـتـسـبـحـة تـقدم من المؤمنين عندما يسمعون الكلام عن عمل المسيح لاجلهم ، وهذا يصدق على حـالتهـم الحـاضرة لكونهم كهنة لله وقريبين منه بدم المسيح لتقديم السجود والتسبيح للذى دعاهم مـن الـظـلـمـة الـى نوره العجيب (١ بط ٢ : ٩) وهم ملوك أيضا بالقوة لا بالفعل لأنهم طول مدة غياب المسيح فى السماء مضطهدون ومدوسون من العالم . ولكن متى جاء ربهم يصيرون ملوكا معه بالفعل .

الاعـتـراض الـثـانـى ــ يقولون ان جميع المؤمنين متساوون فى الحقوق وعليه يجوز لهم اداء الخدم المقدسة ومباشرة الاسرار مستندين على قول الرسول « لأنكم جميعا أبناء الله بالايمان بالمسيح

يسوع . لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح ليس يهودى ولا يونانى . ليس عبد ولا حر . ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع » (غل ٣ : ٢٦ ــ ٢٨) .

وندفع هذا الاعتراض بأن الرسول هنا لا يتكلم عن سلطة الخدام ولا مباشرة الاسرار المقدسة . وذلك ظاهر من سوابق الكلام ولواحقه . بل فرض الرسول بيان الحقوق التى للمؤمنين فى الميراث السماوى مهما كانت جنسيتهم ، أن كانوا يهودا أو يونانيين ، ومهما كانت منزلتهم عبيدا أو احرارا . لأن الجميع صاروا أبناء الله بالايمان بالمسيح والمعمودية المقدسة ولا فضل لأحد على آخر بل جميعهم اخوة فى المسيح وأعضاء فى جسده ، وهو الرأس . وانهم تساووا من هذه الحيثية فلم يعد لليهودى أن يفتخر على الأممى ، بأنه من ذرية ابراهيم الذى كان له الموعد ، بل الجميع صاروا أولاد ابراهيم بالايمان وورثة البركة التى وعد الله بأن تكون لهم بالمسيح . أما عن خدم الكنيسة فقد شرح الرسول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس المواهب التى وزعها الروح القدس على المؤمنين وختمها بقوله « وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفرادا . فوضع الله أناسا فى الكنيسة أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ثم قوات . وبعد ذلك مواهب شفاء أعوانا تدابير وأنواع ألسنة . ألعل الجميع رسل . ألعل الجميع أنبياء . ألعل الجميع معلمون . ألعل الجميع أصحاب قوات . ألعل للجميع مواهب شفاء الخ » (١ كو ١٢) .

الاعتراض الثالث ــ يزعمون أن المخلص لم يجعل سلطة فى كنيسته بل جعل الكل اخوة ، وسندهم فى ذلك قوله له المجد « أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم . فلا يكون هكذا فيكم بل من أراد أن يكون عظيما فليكن لكم خادما ومن أراد أن يكون فيكم أولا فليكن لكم عبدا . كما أن ابن الانسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مت ٢٠ : ٢٥ ــ ٢٨) .

وندفع هذا الزعم بأن المسيح له المجد أقام فى كنيسته رعاة ومعلمين وآباء وقضاة روحيين . ولابد للرعاة من رعية تسمع لهم ، وللمعلمين من تلاميذ يتعلمون منهم ، وللآباء من بنين مطيعين ، وللقضاة من مرؤوسين ينفذون أحكامهم ولاثبات ذلك نورد ما جاء فى الانجيل ورسائل الرسل فى هذا المعنى . قال الرب يسوع لتلاميذه « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به » (مت ٢٨ : ١٩ و٢٠) وقال لهم أيضا « الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء (مت ١٨ : ١٨) « اقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢٢ و٢٣) وقال بطرس الرسول « اطلب الى الشيوخ الذين بينكم انا الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يعلن . ارعوا رعية الله التى بينكم نظارا . لا عن اضطرار بل بالاختيار . ولا لربح قبيح بل

بنشاط . ولا كمن يسود على الانصبة بل صائرين أمثلة للرعية . ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون اكليل المجد الذى لا يبلى » (١ بط ٥ : ١ ــ ٤) وقال بولس الرسول لقسوس أفسس « احترزوا اذا لأنفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه » (أع ٢٠ : ٢٨) وقال لاهل كورنثوس « لأنه وان كان لكم ربوات من المرشدين فى المسيح لكن ليس آباء كثيرون . لأنى أنا ولدتكم فى المسيح يسوع بالانجيل » (١ كو ٤ : ١٥) وقال لأهل غلاطية « يا أولادى الذين أتمخض بكم أيضا الى أن يتصور المسيح » (غل ٤ : ١٩) (راجع ايضا عب ١٣ : ١٧) ألا ينتج من هذه النصوص المقدسة وجود آباء وقضاة ومعلمين فى الكنيسة أقامهم المسيح لرعايتها وخيرها ؟ أما ما يتذرع به الاخوة البليموثيون من قول السيد لتلاميذه « من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن لكم خادما » فهذا ما يفترض وجود أكبر وأصغر فى الكنيسة ومع ذلك يعلمهم المسيح أن لا يكونوا كالامم فى طلب الرئاسة والعظمة الدنيوية والأبهة العالمية ، وانما يعلمهم أن يكونوا خداما متواضعين مع الرعية . ولا يستعملون سلطانهم لفائدة أنفسهم بل لخير الرعية ، وليعلم الجميع ان العظمة الحقيقية هى فى التواضع والخدمة والتضحية .

الاعتراض الرابع ــ يزعم الاصلاحيون الذين يجيزون تأدية النساء للخدم الدينيه أن الكتاب يساعدهم على زعمهم هذا اذ يستندون على قول يوئيل النبى « انى أسكب روحى على كل بشر فيتنبأ بنوكم و بناتكم ويحلم شيوخكم أحلاما و يرى شبابكم رؤى » (يؤ ٢ : ٢٨) وما جاء فى سفر الاعمال من أنه كان لفيلبس المبشر أربع بنات عذارى يتنبأن (أع ٢١ : ٩) وما قاله بولس الرسول « أما كل امرأة تصلى أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها » (١ كو ١١ : ٥) مستنتجين من ذلك أنه يجوز للنساء الوعظ والتعليم وتأدية الخدم الدينية فى الكنيسة .

ونرد عليهم بأن ظهور النساء فى وسط الرجال لتعليمهم ينافى الحشمة والآداب المسيحية . أما ما يرددونه من الآيات فلا يفيدهم شيئا لاثبات مدعاهم لأن كلمة تنبأ تدل فى الكتاب على معنيين أحدهما الاخبار بالمستقبل بوحى الروح القدس ، ثانيهما تفسير الاسرار وتأويل كلام الله . فالامر الاول ليس خاصا بالكهنة ، وانما هو هبة تعطى من الله لكثير من خدام الدين . للرجال وللنساء . فداود وايليا وأشعياء وكثيرون غيرهم لم يكونوا كهنة ومع ذلك كانوا يتنبأون ، أى يخبرون عن الأمور المستقبلة بوحى الروح القدس . وهذا ما يشير اليه يوئيل النبى ، وأما النبوة بمعنى تفسير كلام الله والوعظ فى الكنيسة بصورة رسمية لاجل تعليم الشعب ، فهذا مقرر على خدام الدين دون غيرهم . وقد زجر بولس الرسول النساء بأن يصمتن فى الكنيسة ولا ترفع امرأة صوتها فيها بقوله « لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا ولكن ان كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة » (١ كو ١٤ : ٣٤ و٣٥) وقوله « لتتعلم المرأة فى سكوت فى كل

خضوع . ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون فى سكوت . لأن آدم جبل أولا ثم حواء آدم لم يغو لكن المرأة اغويت فحصلت فى التعدى » (١ تى ٢ : ١١ ـــ ١٤) .

ونختم هذا الفصل بايراد ما جاء فى آخر النبذة التى أشرنا اليها سابقا التى **وضعها أساقفة** الكنيسة الانكليزية لرد الاعتراضات على الخلافة الرسولية وهى كما يأتى : ـــ

« كثيرون يعارضون فى تعاليم الخلافة الرسولية رغما عما ذكرناه من أقوال الكتاب المقدس فيقولون :

أولا ـــ ان كل المسيحيين هم كهنوت مقدس وجنس مختار (١ بط ٢ : ٥ و٩) (كونوا أنتم أيضا مبنيين كحجارة حية بيتا روحيا كهنوتا مقدسا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح . وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى أمة مقدسة شعب اقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة الى نوره العجيب) و يبنون على ذلك عدم وجود تمييز بين الشعب المسيحى وأنه لا يوجد اكليروس مخصوص . فالجواب على ذلك أنه هو عين ما قاله قورح لموسى وهارون كل الجماعة مقدسة (فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما . ان كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب) (عدد ١٦ : ٣) وأن الله قال أنتم لى كهنوت ملوكى (خر ١٩ : ٦) « وأنتم تكونون لى مملكة وكهنة وأمة مقدسة » . و بنى قورح على ذلك أن له حق فى الكهنوت مثل هارون فعاقبه الله بالموت . و يعلمنا يهوذا الرسول أن كثيرين يرتكبون خطية قورح (يهو ١ : ١١) « و يل لهم لأنهم سلكوا طريق قايين وانصبوا الى ضلالة بلعام وهلكوا فى مشاجرة قورح » فبناء على هذا لا يمكن أى طائفة من البروتستانت لها رعاة (و يندر من ليس لهم رعاة) أن تدافع عن نفسها بهذا الاحتجاج الباطل . وحتى لو فرضنا ان احتجاجهم صحيح فانهم انفسهم يميزون ما بين الرعاة والشعب وما رأيهم فى قول الانجيل ان المسيحيين يدعون ملوكا وكهنة (رؤ ١ : ٦) « وجعلنا ملوكا وكهنة لله أبيه له المجد والسلطان » (رؤ ٥ : ١٠) « وجعلتنا لالهنا ملوكا وكهنة فسنملك على الأرض » فهل هذا يعنى أن كل انسان يعتبر فى منزلة الملك ؟

ثانيا ـــ يقولون أن السيد المسيح حين رأى تلاميذه يمنعون رجلا غريبا من اخراج الشيطان قال لهم لا تمنعوه « لأن من ليس علينا فهو معنا » (لو ٩ : ٥٠) وعليه فلا وجود للوظيفة الدينية والخدمة حق لكل الناس .

ونجيب : ـــ

١ ـــ ان اخراج الشياطين ليس موقوفا على رجال الدين كعمل الرعاية وممارسة الخدمات

الكنسية والاسرار، ولكنه هبة من الله للمؤمنين الذين يمارسونها بانكار الذات والعطف على المعذبين . وفي قول السيد لتلاميذه عن الرجل « لا تمنعوه لأن الذى ليس علينا هو معنا » . (لو ٩ : ٥٠) شهادة عن ايمان هذا الرجل واخلاصه . ولو كان محتالا من الطوافين المعزمين لما حياه السيد ولوثب عليه المريض الساكن به الروح الشرير، كما وثب على أولاد سكاوا الدجالين الذين غلبهم وهربوا امامه عراة مجرحين . (أع ١٩ : ١٣ — ١٦) .

٢ — حين أمر السيد تلاميذه ان لا يمنعوا هذا الرجل لم يكن السيد قد رتب الكنيسة التى تم نظامها بعد حلول الروح القدس فى يوم البنديقسطى . هذا بالاضافة الى ما قلناه سابقا .

٣ — ليست الوظائف الدينية سلعا يمكن شراؤها أو اغتصابها لكنها دعوة من الله « لا يأخذ أحد هذه الوظيفة لنفسه بل المدعو من الله كما هارون أيضا » . (عب ٥ : ٤) . أما ظهور واحد كأبلوس على مسرح التعليم والوعظ فلا ينفى موضوع الدعوة للخدمة وقد دعا السيد تلاميذه واختارهم للرسالة وهكذا اعطت الكنيسة السلطان لتقديم خدامها . ولا ننسى أن التلاميذ لما سمعوا بغيرة ابلوس هذا ومحبته قرروا دعوته رسميا . أنظر (أع ١٨ : ٢٤ — ٢٨ ، ١ كو٣ : ٦ ، ١ كو١٦ : ١٢) . ومما يذكر أن ابلوس كان يمارس شرح تعليم الرسل كمفسر وهذا واضح من قول بولس الرسول « أنا غرست وابلوس سقى لكن الله كان ينمى » (١ كو٣ : ٦) .

ثالثا — يقولون ولو فرضنا ان الخلافة الرسولية كانت موجودة الا أنها قد انحلت وتلاشت من زمان طويل وذلك على تمادى الزمن لأنه واضح أنه لو انكسرت حلقة واحدة من السلسلة فتتلف جميعها . ولابد قد انكسر أكثر من حلقة لسبب أو آخر .

فالجواب « ان من يتعقل هذه المسألة بتدقيق فلا يقبل دعوى واهية كهذه لأنه قد أخذت كل الاحتياطات اللازمة منذ الابتداء لمنع حصول ذلك . وقد جعلت قاعدة عمومية أنه يلزم وجود ثلاثة أساقفة لقسمة كل أسقف جديد ومع أنه كان واحد يكفى الا أن العادة قد جرت بذلك لكى اذا اجتمع ثلاثة أساقفة لقسمة أسقف جديد وكان اثنان منهم ليسا حقيقيين وكان الثالث حقيقيا فتصبح القسمة صحيحة . أما موت القسوس الذين يكونون قد كرسهم الاساقفة غير الحقيقيين فلا ضرر من ذلك وهكذا استمرت الخلافة الرسولية تتقوى باضافة كل أسقف جديد اليها حتى أنه يتعسر جدا انقراضها . فهى لا تشبه سلسلة مركبة من حلقات منفردة اذا انكسرت حلقة منها تنقطع وتتلف بل هى كجديلة مركبة من آلاف الحلقات المجدولة بعضها ببعض . أو التى كل حلقة منها ترتبط بثلاث حلقات أخرى أو أكثر بحيث يمكن أن تنكسر جملة حلقات بدون أن تتلف الجديلة .

رابعا — يقولون انه ليس من الرحمة أن نجحد الطقوس والخدمة من رجال صالحين أتقياء بين قسوس البروتستانت .

فالجواب على ذلك أن هذا هو عين ما يقوله الوثنيون عندما يقال لهم اذا لم تؤمنوا بالمسيح فلا تخلصوا فانهم يجاوبون قائلين ان رحمة الله واسعة ولا تنحصر فى شىء واحد . ولكن المحبة والرحمة الحقيقية هى قول الحق ، واذا كان أناس عندهم نية صالحة ولكنهم يغشون أنفسهم والآخرين بكونهم يتقلدون وظائف لا تخصهم فأعظم شفقة عليهم هى تحذيرهم من ضلالهم . وفى الواقع أن الكنيسة تعتبر رعاة البروتستانت بنفس اعتبارهم لأنفسهم فانهم أولا لا يدعون أنهم مرسلون من الله وثانيا لا يتجاسرون على تقديم ذبيحة جسد المسيح ودمه ، ولا على حل وربط الخطايا . وبما أن هذا هو اعترافهم وعدم ايمانهم بالأسرار وسلطان الكنيسة التى هى من أخص مزايا رتبة القسوسية فقد حكموا بأنه لا حق لهم فى هذه الرتبة الدينية . وهذا لا يمنع أن يأتوا أعمالا خيرية أو يقوموا بتعليم أو بوعظ بطرقهم غير النظامية .

خامسا — يقولون حتى ولو سلمنا بأن الخلافة الرسولية هى حقيقية وواضحة فلا يهم وجودها بين الجماعة ما دامت الكرازة بالانجيل جارية بمعرفة رجال أتقياء ، فالتقوى هى الخلافة الرسولية الحقيقية ولا لزوم لشىء خلافها .

فالجواب على ذلك نقول « ان الانجيل يقضى علينا باطاعة المسيح وخدامه عوضا أن نصنع مثل الذين يجمعون لأنفسهم معلمين مستحكة آذانهم (٢ تيموثاوس ٤ : ٣) « لأنه سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح بل حسب شهواتهم يجمعون لأنفسهم معلمين مستحكة مسامعهم » وهكذا الناس الذين ينتخبون رعاتهم يفضلون أنفسهم على بيعة الله . وأما من جهة التقوى فلا دخل لها فى مادة الأحقية ، فان أولاد عالى رئيس الكهنة كانوا رجالا أشرارا ومع ذلك كانوا كهنةحقيقيين (١ صموئيل ٢ : ١٢) « وكان بنو عالى بنى بليعال لم يعرفوا الرب » وكذلك يهوذا الاسخريوطى كان شريرا ومع ذلك كان رسولا حقيقيا (يوحنا ٦ : ٧٠) و« أجابهم يسوع أليس أنا اخترتكم اثنى عشر وواحد منكم شيطان » فهل كان يمكن لأحد أن يقيم نفسه كاهنا أو رسولا بدعوى أنه أحسن من حفنى أو فنحاس أو يهوذا الاسخريوطى كلا فانه لا ينتج عن التعدى عمل صالح . نعم قد يكون من بين الخدام أشرار ولكن لا تقدر التقوى وحدها أن تصير صاحبها راعيا شرعيا وتفرضه على الكنيسة ، كما أن حسن التبصر ومعرفة الشرائع لا تكفيان لجعل رجل قاضيا للمدينة بدون أمر من السلطان . وبناء على ما ذكر لا تقدر التقوى على اغتصاب الوظائف التى لم تمنح حسب الاصول و بالاجمال :—

اولا — الخلافة الرسولية هى حسب تعاليم الكتاب المقدس .

ثانيا ـــ الخلافة الرسولية هى عادة اتبعتها الكنيسة بأسرها .

ثالثا ـــ الخلافة الرسولية ليست ضد الرحمة والمحبة .

رابعا ـــ الخلافة الرسولية تعتبر ضرورية عند كل الذين لا يريدون نسخ الشرائع ولا مقاومة رؤساء كنيسة المسيح .

الفصل الخامس

درجات الكهنوت الثلاث وترتيبها من الله

يتضح لنا من الانجيل أن درجات الكهنوت ثلاث : الاولى درجة الأسقف وهى العليا والثانية درجة القس وتخضع للاولى ، والثالثة درجة الشماس وهى الاخيرة .

واليك الأدلة على ذلك :ــ

أولا ــ من الكتاب المقدس ــ حيث نجد الامتياز الواضح لرتبة الأسقف عن رتبة القس ، فان الرسل الأطهار أعطوا الاساقفة سلطاناً وامتيازا خاصا عن القسوس ، لأنهم منحوهم حق اقامة القسوس ووضع اليد عليهم ، كما قال بولس الرسول لتلميذه تيطس « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم فى كل مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتكم » (تى ١ : ٥) وأمروهم بعدم الاسراع فى وضع اليد « لا تضع يدا على أحد بالعجلة ولا تشترك فى خطايا الآخرين » (١ تى ٥ : ٢٢) كما أعطوهم حق محاكمتهم حسب قول الرسول لتلميذه تيموثاوس « لا تقبل شكاية على شيخ (قس) الا على شاهدين أو ثلاثة شهود . الذين يخطئون و بخهم أمام الجميع لكى يكون عند الباقين خوف » (١ تى ٥ : ١٩ و٢٠) وأعلنوا حق مكافأتهم « أما الشيوخ (القسوس) المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة ولاسيما الذين يتعبون فى الكلمة والتعليم » (١ تى ٥ : ١٧) .

أما تسمية القسوس أحيانا بالأساقفة ، أى رقباء ونظار ومحافظون على الشعب (لأن كلمة أسقف فى اليونانية « أبيسكوبوس » معناها ناظر أو رقيب أو محافظ . وكلمة قس باليونانية « بريسفيتيروس » ومعناها شيخ) فذلك لا يلغى الامتياز الجوهرى بين الرتبتين ، لأن الرسل سموا أنفسهم بتلك الأسماء فقد قال بطرس الرسول « أطلب الى الشيوخ (القسوس) الذين بينكم أنا الشيخ (القس) رفيقهم » (١ بط ٥ : ١) وقال يوحنا الرسول « الشيخ (١) الى كيرية المختارة » (٢ يو ١ : ١ ، ٣ يو ١ : ١) .

قال **القديس ابيفانيوس أسقف قبرص** « أنه لا يمكن أن يكون القس والاسقف

---

(١) يعنى من الشيخ .

متساويين . وقد علم الكتاب الالهي ما هو الاسقف وما هو القس بقوله لتيموثاوس « لا تزجر شيخا » وفي محل آخر « لا تقبل شكوى على قس الا بشهادة اثنين أو ثلاثة » (ضد الهراطقة ك ٣ هرطقة ٧٥ : ٥) والبرهان على ان الرسل القديسين علموا أن درجة الأسقف غير درجة القس هو أن تلاميذ الرسل جميعهم فهموا ذلك وعلموه في أقوالهم كما يأتي :

ثانيا ــ ان خلفاء الرسل الذين تسلموا التعاليم من الرسل انفسهم ، وقبلوا الكهنوت من أيديهم علموا هذا التعليم : قال القديس اكليمنضس أسقف رومية تلميذ بطرس الرسول « انه يجب علينا أن نعمل كل ما أمرنا به سيدنا في أوقاته المعينة بالترتيب ، وأن نتمم القرابين والخدم التي أمر أن تصير لا كيفما اتفق وبلا ترتيب ، بل في أوقات وساعات معينة وقد حدد أيضا بمشيئته السامية أين وممن يريد أن تتمم ، لكي يكون كل ما يصير بر مقبولا لدى مشيئته حاصلا على تعطفه . فالذين يقدمون قرابينهم في أوقاتها المعينة هم مقبولون عنده ومغبوطون . فانهم اذ تبعوا شرائع الرب لا يخطأون لان « رئيس الكهنة » أعطيت له خدم خصوصية و « للكهنة » تعين مكان خصوصي و « اللاويون » (أي الشمامسة) لهم خدم خصوصية ، وأما العامي فانما هو مرتبط بالاوامر المتعلقة بالعوام » (رسالة الى أهل كورنثوس فصل ٤٠) وقد أوضح **القديس اغناطيوس** تلميذ يوحنا الرسول هذه المسالة بأكثر ايضاح حيث قال في رسالته الى أهل أفسس « أن الأساقفة قد تعينوا الى أقاصي الارض بحسب مشيئة يسوع المسيح » (فصل ٣) وقال في رسالته الى أهل أزمير « اتبعوا الاسقف كلكم كما يتبع يسوع المسيح أباه ، واتبعوا الكهنة كالرسل ، وأكرموا الشمامسة حسب وصية الله » (فصل ٨) وقال في رسالته الى أهل مغنيسيا « أتوسل اليكم أن تعملوا كل شيء بسلام الله وتحت رياسة الاسقف حيث مكان الله ذاته ، والكهنة حيث مصاف الرسل ، والشمامسة المحبوبين مني جدا الذين أؤتمنوا على خدمة يسوع المسيح » (فصل ٦) .

ثالثا ــ أن رؤساء الكنائس وعلماءها في القرون الاولى يذكرون هذا الترتيب في درجات الكهنوت . قال **القديس ايريناوس** « جميع المخالفين لتعليم الكنيسة قد ظهروا متأخرين كثيرا عن هؤلاء الاساقفة الذين أؤتمنوا من الرسل على الكنائس » (ضد الهراطقة ٥ : ٢٠) وقال العلامة ترتوليانوس « قد تخصص حق التعميد بالكهنة الاعظمين (الاساقفة) ثم أعطى للكهنة والشمامسة فقط ولكن ليس من دون الاسقف » (في المعمودية فصل ١٧) وقال العلامة أوريجانوس « يطلب مني أنا القس أكثر مما يطلب من الشماس ومن الشماس أكثر من العامي ، ولكن الذي يضبط بيده السلطة الكنسية يطلب منه أكثر منا كلنا » (مقالة ١١ على ارميا فصل ٣) .

رابعا ــ القوانين الرسولية وقوانين المجامع المسكونية والمكانية تبين هذه الحقيقة ، اذ تذكر

الواجبات التى على كل من أصحاب هذه الدرجات ، الاساقفة والقسوس والشمامسة . فقد جاء فى قانون ١٥ من قوانين الرسل « كل قس أو شماس أو أحد المعدودين من الاكليروسيين عموما يترك محل سكناه و ينتقل الى ابروشية اخرى بقصد السكنى الدائمة بدون رأى اسقفه نأمر بأن يقطع ، خصوصا اذا استدعاه اسقفه ولم يطع » وجاء في قانون ٣١ « كل قس احتقر اسقفه وأقام الصلاة منفصلا عنه و بنى مذبحا آخر من دون أن يثبت على الاسقف شيئا لا يوافق الايمان والبر فليقطع اذ هو محب الرياسة » وجاء فى قانون ٢٩ « لا يجوز للقسوس والشمامسة أن يفعلوا شيئا البتة من غير رأى اسقفهم ، لأنه هو المؤتمن على شعب الرب وهو العتيد أن يحاسب عن أنفسهم » وجاء فى قانون ١٨ من قوانين المجمع المسكونى الاول « ليلبث الشمامسة ضمن حدودهم عالمين انهم خدام للاسقف وأقل من القسوس » وقانون ٥٦ و٥٧ من قوانين مجمع اللاذقية يأمر القسوس بعدم تقدمهم على اسقفهم ووجوب انقيادهم له ، وغير ذلك من القوانين .

خامسا — ومما يثبت سمو درجة الاسقفية وامتيازها عن درجة القس ، وانها مقامة من الله تعالى ولها سلطان ورياسة فى الكنيسة ، الجداول القديمة لاسماء الاساقفة الاولين فى كنائس رسولية عديدة . وقد كانت هذه الجداول قديما سلاحا فى وجه الهراطقة ، فقد قال **القديس ايريناوس** « يمكننا ان نعد الاساقفة الذين حكموا فى الكنائس من عصر الرسل وأن نحصى خلفاءهم ايضا حتى ايامنا هذه » وأوسابيوس المؤرخ الكنسى الشهير حفظ جداول قديمة عن سلسلة الخلافة لأساقفة كنيسة كورنثوس ورومية وأورشليم و يبين فهرس أساقفة الكنائس القديمة (كتاب ٤ فصل ٥ و٢٢) .

سادسا — ما ذكرناه فى الفصول السابقة من شهادة موسهيم المؤرخ البروتستانتى وما هو واضح فى تاريخ الكنيسة منذ العصور الاولى يثبت ان الدرجات الكهنوتية كانت ولا تزال ثلاث ، وهى اسقف وقس وشماس وأنها رتبت فى الكنيسة بسلطان الهى وأن هذه الرتب أشبه شىء برتب الملائكة كما قال **القديس اكليمنضس الاسكندرى** « ان درجات الاسقف والكهنة والشمامسة تشبه بحسب رأيى المجد الملائكى » (فى البديعيات ٦ : ١٣) لأن رتب الملائكة ثلاث وكل رتبة منها ثلاثة أصناف .. فالرتبة الاولى تشمل الكروبيم (خر ١٠ : ١٨) والسرافيم (أش ٦ : ٢) والعروش (كو ١ : ١٦) والرتبة الثانية تشمل الرياسة والسادات والسلاطين (كو ١ : ١٦) والرتبة الثالثة تشمل القوات (١ بط ٣ : ٢٢) والملائكة ورؤساء الملائكة (رو ٨ : ٣٨ ، ١ تس ٤ : ١٦) وعلى هذا المثال رتبت الدرجات الكهنوتية الثلاث . فالاولى وهى الاسقفية تشمل وظائف البطريرك والمطران والاسقف : والثانية وهى القسيسية تشمل وظائف الخوريبيسكوبوس والايغومانوس والقس والثالثة وظيفة الشماسية تشمل الابودياكون (أى معين الشماس) والاغنسطس (القارىء) والابصلتس (المرتل) .

الفصل السادس

درجات الشماسية والقسيسية والاسقفية

ان الشماسية هى درجة من درجات الكهنوت ، بها يتولى صاحبها ولاية خاصة لمساعدة القسيس عند تلاوة القداس واتمام الخدم المنوط بها ، وهى درجة مستوفاة جميع مقتضيات السر ، اذ فيها مادة السر وصورته وخادمه فادة السر وضع اليد وصورته الصلاة كما يظهر مما فعله الرسل اذ « أقاموهم (أى الشمامسة) امام الرسل فصلوا ووضعوا عليهم الايادى » (أع ٦ : ٦) واليهم اشار الرسول بولس فى (١ تى ٣ : ٢ و ٨ ، فى ١ : ١ و٢) أما خادم السر فهو الاسقف .

والشماس لفظة سريانية وفى العبرية شماس ومعناها خادم وباليونانية « دياكون » وللشمامسة واجبات منها ان يوزعوا الصدقات على الفقراء (أع ٦ : ١ — ٤) ولهم أن يكرزوا بالانجيل ولكن باذن الاسقف (راجع أع ٦ : ٥ ، ٨ : ٤ ، ٢١ : ٨) وكان لهم أن يحملوا الكأس ويقربوا الشعب ، ليس لانهم كهنة ، بل لانهم خدام الكهنة (راجع ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات فى الباب السابع من كتاب المجموع الصفوى للشيخ الصفى ابن العسال) .

وواضح فى الكتاب ان درجة القسيسية تختلف عن درجة الشماسية حيث يختلف الشمامسة والكهنة بالاسم والوظيفة . فالكهنة موكول اليهم مباشرة وتوزيع سر المسحة كما جاء فى (يع ٥ : ١٤) وتدبير الكنائس كما ورد فى (أع ١٤ : ٢٣ ، ١ تى ٥ : ١٧ ، تى ١ : ٥) وقسيس لفظة سريانية ، وباليونانية ابريسفيتيروس ، وبالقبطية (ⲡⲓϩⲉⲗⲗⲟ) وترجمتها بالعربية الشيخ ، ووظيفته تقديس القرابين وعماد المعتمدين وتزويج المتزوجين وتأدية خدمة الاسرار وتوزيعها على الشعب وتعليمهم ووعظهم وباقى الخدمات الدينية وحقوق القسوس وواجباتهم واضحة فى كتب القوانين — راجع الباب السادس من كتاب المجموع الصفوى للشيخ الصفى ابن العسال .

أما الاسقفية فهى الدرجة العليا فى الكهنوت ، والاسقف كاهن ذو درجة ورتبة أولى ، موكول اليه كما للكاهن ، أن يقدم القرابين ويعمل ما يعمله الكاهن ، وهو فى كنيسته ورعيته نائب المسيح . ومن ثم له حق الرياسة على الكهنة الذين تحت ادارته وعلى رعيته . وله السلطان أن يقيم الكهنة لشعبه ويمنحهم الحقوق والسلطة الروحية . فهو الذى يعلم الشعب ويدبره ويقيم لهم الرعاة المدبرين والمعلمين أما حقوقه وواجباته فمذكورة فى الباب الخامس من كتاب المجموع الصفوى للشيخ الصفى ابن العسال .

الفصل السابع

القسم المنظور من سر الكهنوت وفعله غير المنظور

وعدم اعادته

ان القسم المنظور من سر الكهنوت يتألف من أمرين :

١ ــ وضع اليد ٢ ــ الصلاة

ونرى هذين الأمرين واضحين فى الكتاب فى سيامة الأساقفة والقسوس والشمامسة (راجع ١ تى ٤ : ١٤ ، ٥ : ٢٢ ، ٢ تى ١ : ٦ ، أع ٦ : ٦) كذلك جميع القوانين الرسولية فانها تقرر وضع اليد ، فقد جاء فى هذه القوانين « أيها الاسقف عندما تشرطن قسا ضع يدك على رأسه » (كتاب ٨ : ١٦ و١٧) وكذلك المجامع المسكونية والمكانية فانها تعلم هذا التعليم ، وجميع آباء الكنيسة ومعلموها يصرحون ان سيامة الاسقف أو القس أو الشماس لا تتم الا بوضع اليد . ووضع اليد كان مصحوبا بالصلاة دائما كما جاء فى سفر الاعمال عن الذين اختاروهم « الذين أقاموهم امام الرسل فصلوا ووضعوا عليهم الايادى » (أع ٦ : ٦) و بولس و برنابا عندما كانا يثبتان و يشددان التلاميذ « انتخبا لهم قسوسا فى كل كنيسة ثم صليا بأصوام واستودعاهم الرب » (أع ١٤ : ٢٣) ولا تزال الكنيسة سائرة على هذه الطريقة الموضوعة من الرسل وتستعمل ذات الصلوات التى كانت تستعمل منذ القديم .

أما نتيجة سر الكهنوت غير المنظورة فى المشرطن (الموضوع عليه اليد) فهى أنه يقبل بهذا السر مفعولين : أولها الوسم ، وثانيها النعمة . فالوسم هو السمة التى يرسمها سر الكهنوت فى نفس من يناله ، وهذه السمة دائمة لا تمحى (راجع ما ذكرناه عن الوسم عند كلامنا فى مفعول الاسرار ص ١٢ ــ ١٤) . اما النعمة فهى الهبة التى ينالها المشرطن من الله ، المناسبة لخدمته التى انتدب اليها وهى نعمة الكهنوت . وقد اشار الرسول بولس الى هذه الموهبة بقوله لتلميذه تيموثاوس « ولا تهمل الموهبة التى فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدى المشيخة » (١ تى ٤ : ١٤) « أذكرك أن تضرم أيضا موهبة الله التى فيك بوضع يدى » (٢ تى ١ : ٦) وقال **القديس يوحنا ذهبى الفم** « انى أذكرك أن تذكى موهبة الله التى فيك بوضع يدى ، يعنى هنا نعمة الروح التى نالها الرؤساء لرياسة الكنيسة وللاباء ولكل العبادة فانها فى يدهم أن يطفئوها أو يذكوها » (تفسيره على ٢ تى ١ : ٢) وقال القديس أيضا « لو افتكر أحد بأنه يستطيع الدنو من

تلك الطبيعة المغبوطة النقية لكان يرى جيدا الى أى كرامة أهلت نعمة الروح الكهنة . لانه بهم تتمم هذه وغيرها مما لا بديل لها فى أمر وظيفتنا وخلاصنا . فان رجالا ساكنى الارض وسالكين فيها نيط بهم أن يسوسوا ما فى السموات ، ونالوا سلطانا لم يعطه الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة » (فى الكهنوت ٣ : ٥) وقال **القديس غريغوريوس النيسى** « أن قوة الكلمة عينها تجعل الكاهن وقورا ومكرما بالبركة الجديدة اذ ينفصل عن الجماعة الكثيرة (الشعب) لانه كان أمس وقبل واحدا من الكثيرين ومن الشعب ، فصار حالا دفعة واحدة متقدما ومعلما للايمان وكاتما للاسرار الخفية . وهذا كله يصنعه من دون ان يتغير شىء فى جسده أو هيئته . بل وهو لم يزل فى الظاهر كما كان تتغير نفسه غير المنظورة فى ما هو أفضل بقوة ونعمة غير منظورتين » (على معمودية المسيح ١٠) .

ونعمة الكهنوت تمنح على درجات متنوعة للمشرطنين . فالشماس ينالها بدرجة أقل . والقس ينالها بدرجة ارفع منه . والاسقف ينالها بدرجة أسمى ، وذلك بنسبة الدرجة التى ينالها كل من اصحاب هذه الدرجات .

اما من جهة عدم اعادة وضع اليد مرة ثانية على المشرطن فذلك لاننا أوضحنا بأن السر يمنح صاحبه السمة و يطبعها فيه طبعا لا يمحى ، وعليه لا يجوز اعادة السر بوجه من الوجوه . وقد قال قانون ٦٨ من قوانين الرسل « كل اسقف أو قس أو شماس ينال الشرطونية ثانية من أحد يقطع هو والذى شرطنه » وجاء فى قانون ٣٥ من قوانين مجمع قرطاجنة وقانون ٥٧ منه ايضا « لا يسمح باعادة المعمودية واعادة الشرطونية أو نقل الاساقفة » .

الفصل الثامن

خادم سر الكهنوت

ان خادم سر الكهنوت هو الاسقف وحده الذى له حق الشرطونية (وضع اليد) وهذا واضح مما يأتى : —

أولا — من الكتاب المقدس حيث يتضح ان الرسل وحدهم كانوا يقيمون الاساقفة والقسوس والشمامسة وأعطوا هذا السلطان لخلفائهم الاساقفة من بعدهم . فقد وضعوا اليد على اساقفة (٢ تى ١ : ٦) وعلى قسوس (أع ١٤ : ٢٢ ، ٢٣) وعلى شمامسة (أع ٦ : ٥) و بولس الرسول قال لتيطس اسقف كريت « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل الامور الناقصه وتقيم فى كل مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتك » (تى ١ : ٥) وقال لتيموثاوس اسقف افسس « لا تضع يدا على أحد بالعجلة ولا تشترك فى خطايا الآخرين » (١ تى ٥ : ٢٢) أما قول بولس الرسول — مع وضع ايدى المشيخة — فقد شرحها **القديس يوحنا ذهبى الفم** بقوله : « ان كلمة بريسفيتيريون (التى اصطلح على ترجمتها بالقسوس أو المشيخة) فانها تدل على جمعية رعاة الكنيسة الذين كان أحدهم بولس الرسول . لا على القسوس فقط فلم يقل عن القسوس بل عن الاساقفة . لأن القسوس لم يكونوا يشرطنون الأسقف » (مقالة ١٣ : ١ على ١ تى) .

ثانيا — من القوانين الرسولية والمجمعية فان قانون ١ من قوانين الرسل يقول « الأسقف يشرطن من أسقفين أو ثلاثة » وقانون ٢ منها يقول « القس والشماس وسائر الاكليروس يشرطنون من أسقف واحد » وقانون ١٩ من قوانين المجمع الاول المسكونى المجتمع فى نيقية حدد أن يسام الاكليروس من أسقف الكنيسة . وقانون ٩ من قوانين مجمع انطاكية فوض للأسقف أن يشرطن قسوسا وشمامسة و يقضى كل الأعمال بتدقيق .

ثالثا — ان آباء الكنيسة فى تعاليمهم يعلنون هذه الحقيقة ، فقد قال **القديس يوحنا ذهبى الفم** « ان الأساقفة يسمون (١) عن القسوس بالشرطونية فقط وبها وحدها يظهر أنهم يمتازون عنهم » (على ٢ تى مقالة ١٠ : ١) وقال **القديس ابيفانيوس** « ان درجة الأساقفة تمتاز بنوع خصوصى بأنهم يلدون آباء . لأن تكثير الآباء فى كنيسة المسيح يختص بالأساقفة . وأما الرتبة

---

(١) يعنى « يتميزون » .

الثانية (الكهنة) فلا يمكنها أن تلد آباء أو معلمين . وكيف يمكن أن يشرطن كاهن كاهنا آخر وليس له سلطة الشرطونية ؟ » (هرطقة ٧٥ : ٤) وقال **القديس ايرونيموس** « ماذا يعمل الأسقف ولا يعمله القس خلا الشرطونية » (رسالة ٨٥) .

الفصل التاسع

الدعوة الى الرتبة الكهنوتية وعلاماتها

ومؤهلات المدعوين اليها

بما ان الدرجة الكهنوتية درجة سامية وشريفة ، فقد أمر الله تعالى أن لا يدنو منها ويقتبلها الا من كان مستحقا لها ، بناء على دعوة الهية . وهذه الدعوة واضحة فى الكتاب المقدس من النصوص الآتية :ـ

ففى العهد القديم . قال الرب « وتخدمون خدمة . عطية أعطيت كهنوتكم والاجنبى الذى يقترب يقتل » (عدد ١٨ : ٧) وقوله « من أرسل ومن يذهب من أجلنا . فقلت هأنذا أرسلنى (أش ٦ : ٨) وقوله « روح السيد الرب على لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين . أرسلنى لأعصب منكسرى القلب » . (أش ٦١ : ١) وقوله لارميا « قبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبيا للشعب .. فقال الرب لى لا تقل انى ولد لأنك الى كل من أرسلك اليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به » (ار ١ : ٤ ـ ٧) وقوله « هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة يقول الرب .. وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم . فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة يقول الرب » (ار ٢٣ : ٣٢) .

وفى العهد الجديد قال المخلص لتلاميذه « كما ارسلنى الآب أرسلكم انا » (يو ٢٠ : ٢١) وقال لهم « ليس انتم اخترتمونى بل أنا اخترتكم » (يو ١٥ : ١٦) وقال أيضا « الحق الحق أقول لكم ان الذى لا يدخل من الباب الى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص . واما الذى يدخل من الباب فهو راعى الخراف الخ » (يو ١٠ : ١ ـ ٥ ـ وقوله « اطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة الى حصاده » (مت ٩ : ٢٨) و يتم ذلك بفعل روح الله القدوس بدليل ما جاء فى سفر الاعمال (١٣ : ٢) « و بينما يخدمون الرب و يصومون قال الروح القدس افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه » وقول الرسول بولس « احترزوا اذا لأنفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله » (أع ٢٠ : ٢٨) وقوله « الكرازة التى أؤتمنت أنا عليها بحسب أمر مخلصنا الله » (تى ١ : ٣) وقوله « الذى خلصنا ودعانا دعوة مقدسة » (٢ تى ١ : ٩) وقوله « وكيف يكرزون ان لم يرسلوا » (رو ١٠ : ١٥) وقوله « لا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون » (عب ٥ : ٤) لأن خدمة الكهنوت خدمة سماوية خدمة أسرار تشتهى الملائكة ان تطلع عليها ، وقال عنها **القديس يوحنا**

ذهبي الفم « خدمة لم يعطها الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة . وقد سميت هذه الخدمة خدمة الروح (٢ كو ٣ : ٨) وخدمة البر وخدمة المصالحة (٢ كو ٣ : ٩ ، ٥ : ١٨) وسمي الرعاة ملائكة رب الجنود (ملا ٢ : ٧ ، رؤ ٢ : ١) وخدام الله لبناء بيت الله (١ كو ٣ : ٥ — ١٠ ، ٤ : ١) وملح الارض (مت ٥ : ١٣) ونور العالم (مت ٥ : ١٤) وسراج موقد على منارة (مت ٥ : ١٥ و١٦) وهكذا من الاسماء الشريفة والالقاب السامية الدالة على شرف وعظمة هذه الرتبة لذلك اقتضى الامر ان لا يقبل احد الى هذه الدرجة المقدسة الا بناء على دعوة الهية ، والرب يسوع المسيح نفسه المذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم الذى به كان كل شيء و بغيره لم يكن شيء مما كان ، قيل عنه انه انتدب الى الكهنوت حسب قول الرسول « كذلك المسيح ايضا لم يمجد نفسه ليصير رئيس كهنة بل الذى قال له انت ابني انا اليوم ولدتك . وكما يقول في موضع آخر انت كاهن الى الابد على رتبة ملكي صادق » (عب ٥ : ٥ و٦) وهو له المجد خصص الكلام في أشعياء القائل « روح السيد الرب على لان الرب مسحني » (اش ٦١ : ١) بدعوته الى بشارة الانجيل . وعند معموديته انفرز انفرازا خاصا لعمله لما حل الروح القدس عليه (مت ٣ : ١٦ و١٧) وتثبتت دعوته بالصوت الاتى من الآب على جبل التجلي بقوله تعالى « له اسمعوا » (مت ١٧ : ٥) وكما قال **القديس كبريانوس** « هل يمكن ان يوجد احد جسور حتى انه يروم الحصول على الكهنوت من تلقاء نفسه ومن دون ان يدعوه الله » لذلك كان أكثر الآباء القديسين يهربون من قبول هذه الرتبة و يفرون من مسئولياتها .

فالذين يختارهم الله للكهنوت ينتدبهم و يدعوهم ليكونوا خداما له كما قيل في سفر العدد الذى « يختاره يقربه اليه » (٦ : ٥) قال **القديس افرآم السرياني** « ان من تجاسر وصار كاهنا من غير ان يدعوه الله يهلك » فياجسارة أولئك الذين يجترئون و يسعون للحصول على درجة الكهنوت وهم غير اكفاء لها وغير مدعوين اليها و يظنونها مهنة يتعيشون منها ! أولئك يتم عليهم ما قاله الله عن الذين يبقون من أولاد عالي « و يكون أن كل من يبقى في بيتك يأتي ليسجد له لأجل قطعة فضة ورغيف خبز و يقول ضمني الى احدى وظائف الكهنوت لآكل كسرة خبز » (١ صم ٢ : ٣٦) . أمثال هؤلاء نصيبهم نصيب الأنبياء الكذبة الذين قال عنهم الرب « لم أرسل الأنبياء بل هم جروا . لم أتكلم معهم بل هم تنبأوا . ولو وقفوا في مجلسي لأخبروا شعبي بكلامي وردوهم عن طريقهم الرديء وعن شر أعمالهم .. هم أنبياء خداع قلبهم .. لذلك هأنذا على الأنبياء يقول الرب الذين يسرقون كلمتي بعضهم من بعض .. الذين يأخذون لسانهم و يقولون . هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة .. و يضلون شعبي بأكاذيبهم ومفاخراتهم وأنا لم أرسلهم ولا امرتهم فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة يقول الرب » (ار ٢٣ : ٢١ — ٣٢) « كل غرس لم يغرسه أبي السماوى يقلع » (مت ١٥ : ١٣) .

ليس لنا اليوم صوت مسموع من الله يدعو به الانسان الى خدمته ، ولا يرسل الينا ملاكا

لانتداب المدعو الى الكهنوت ، ولكن هذه الدعوة الالهية تعرف بطريقتين ظاهرة و باطنة . **فالظاهرة** هى تصديق الكنيسة وشهاداتها للأهلية ، لأنها تمنح السلطان الرسمى لهذه الخدمة . وأما **الباطنة** فهى صوت روح الله وقوته اللذان يؤثران فى ارادة الانسان واقناعه حين يكون طالب هذه الخدمة مملوءا بالرغبة الشديدة والقصد الثابت فى خدمة الله تعالى وخلاص النفوس ، علاوة على تجدده بروح الله وحصوله على المؤهلات الكافية لهذه الخدمة . فالمدعو من الله لخدمة الكهنوت يجب أن يكون محركا من الله لمجرد خدمة اسمه القدوس وليس لأجل طمع ، ولا لربح دنيوى ، ولا لمجد عالمى ، ويجب أن يكون مستعدا لأن يكرس ذاته لله و يضحى نفسه فى خدمته وخدمة النفوس التى اشتراها المسيح بدمه .

وأخص علامات الدعوة الالهية لهذه الدرجة هى :

١ ــ الميل القلبى للخدمة فان هذا الميل دليل على استعداد النفس للامور الروحية .

٢ ــ المناسبة للخدمة روحا وعقلا وجسدا ، فان الله تعالى لا يدعو الى هذه الخدمة من ليس أهلا لها .

٣ ــ الدعوة من كنيسته اذ يرى شعب تلك الكنيسة الصفات والمؤهلات فى شخص ، فيزكونه بعد أن يختبروه الخبرة التامة .

٤ ــ بعض حوادث وأحوال من العناية الالهية تدل على موافقة الانسان لهذه الخدمة ، كما حصل فى قصة انتخاب **القديس امبروسيوس** فان هذا الاسقف ولد سنة ٣٤٠ م من عائلة شريفة وكان واليا على ولاية ميلان ، ولما مات اسقفها الآريوسى وحدث شغب عظيم فى انتخاب خليفة له ، دخل أمبروسيوس الوالى ليهدىء الشعب ، فرفع ولد صوته قائلا امبروسيوس أسقف !! فقبل الشعب ورفعوا أصواتهم علامة على قبولهم . ثم انتخبوه أسقفا ، ولم يقبلوا منه رفضه الشديد ، بل أجبروه على قبول درجة الأسقفية فصار أسقفا عظيما مشهورا ، وأبطل التعليم الأريوسى .

و بناء على ما تقدم تحترم الكنيسة جدا قداسة الخدمة الرعوية وكانت منذ القديم تهتم بالمرشحين الى الدرجات الكهنوتية وأسست لهم المدارس اللاهوتية لاعدادهم وتثقيفهم ولا تضع يدا على أحد منهم بالعجلة حسب اشارة بولس الرسول ، بل تفحصهم أولا فى قواهم الطبيعية والعقلية والأدبية : ــ

أولا ــ القوة الطبيعية ــ فان كنيسة العهد القديم كانت تشترط أن ينتخب الكاهن من

الخالين من كل عيب جسدى ومن كل تشويه فى الأعضاء وكان اذا أصيب أحد بشيء من ذلك بعد اقامته كاهنا يطرد من الخدمة لئلا يدنس قدس الله (راجع لا ٢١ : ١٦ ــ ٢٤) وذلك لأن كنيسة العهد القديم كان جل اهتمامها فى الامور الخارجية والطقسية . اما كنيسة العهد الجديد فلأنها ديانة الروح والحياة وجل اهتمامها بالامور الباطنية وليس الخارجية ، فلا تمنع عن الكهنوت من كان فيه عيب جسدى ، اذا كانت فيه المؤهلات السامية ، وانما تمنع من لا يسمح له عيبه الجسدى بتتميم فروضه الكهنوتية كالأعمى والأصم والمريض بأمراض تعطل خدمته ، ومن كان كاهنا وأصيب بمثل تلك الأمراض فلا يجرد من وظيفته بل يوقف عن خدمته مع بقاء الاحترام والوظيفة له . وصحة الجسد وسلامة البنية والقوة على العمل من الشروط اللازمة لكل عمل من اعمال الدنيا ، فكم بالحرى لهذه الخدمة المقدسة التى تقتضى بذل النفس والجسد فى تأدية واجباتها .

ثانيا ــ القوى العقلية ــ فان جميع القوانين الكنسية تقرر أن يكون المنتخب للوظيفة الكهنوتية مثقفا بكل انواع الثقافة ، و بالأخص فى العلوم الدينية . وان يكون قادرا على التعليم حسب قول الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس « يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة صاحيا عاقلا محتشما مضيفا للغرباء صالحا للتعليم غير مدمن الخمر ولا ضراب ولا طامع بالربح القبيح ... بل حليما غير مخاصم ولا محب للمال . يدبر بيته حسنا . له أولاد فى الخضوع بكل وقار . وانما ان كان احد لا يعرف ان يدبر بيته فكيف يعتنى بكنيسة الله . غير حديث الايمان لئلا يتصلف فيسقط فى دينونة ابليس . ويجب ان تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج لئلا يسقط فى تعيير وفخ ابليس . كذلك يجب أن يكون الشمامسة ذوى وقار لا ذوى لسانين غير مولعين بالخمر الكثير ولا طامعين بالربح القبيح . ولهم سر الايمان بضمير طاهر . وانما هؤلاء أيضا ليختبروا أولا ثم يتشمسوا ان كانوا بلا لوم . ليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة مدبرين أولادهم و بيوتهم حسنا . لأن الذين تشمسوا حسنا يقتنون لأنفسهم درجة حسنة وثقة كثيرة فى الايمان الذى بالمسيح يسوع » (١ تى ٣ : ٢ ــ ١٣) وقوله الى تلميذه تيطس « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل الأمور الناقصة وتقيم فى كل مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتك . ان كان احد بلا لوم بعل امرأة واحدة . له أولاد مؤمنون ليسوا فى شكاية الخلاعة ولا متمردين لأنه يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله غير معجب بنفسه ولا غضوب ولا مدمن الخمر ولا ضراب ولا طامع فى الربح القبيح . بل مضيفا للغرباء محبا للخير متعقلا بارا ورعا ضابطا لنفسه ملازما للكلمة الصادقة التى بحسب التعليم لكى يكون قادرا أن يعظ بالتعليم الصحيح و يوبخ المناقضين » (تى ١ : ٥ ــ ٩) « وما سمعته منى بشهود كثيرين أودعه أناسا أمناء يكونون أكفاء ان يعلموا آخرين أيضا » (٢ تى ٢ : ٢) « اكرز بالكلمة اعكف على ذلك فى وقت مناسب وغير مناسب و بخ انتهر عظ بكل اناة وتعليم ... احتمل المشقات اعمل عمل المبشر . تمم خدمتك » (٢ تى ٤ : ٢ ــ ٥) .

فبناء على نصوص الكتاب وقوانين الرسل والمجامع لا ينتخب الى الوظيفة الكهنوتية الا من كان عالما بالكتب المقدسة متضلعا في قوانين الكنيسة ، غير حديث الايمان .

ثالثا — القوى الأدبية — ان نصوص الكتاب وقوانين الكنيسة تقرر أن لا يقبل فى الكهنوت الا الاشخاص المشهود لهم بالسيرة الحسنة والورع والقداسة والايمان الحى . وقد اشار بولس الرسول الى ذلك بقوله لتلميذه تيموثاوس « اجتهد ان تقيم نفسك لله مزكى عاملا لا يخزى مفصلا كلمة الحق بالاستقامة » (٢ تى ٢ : ١٥) « لا يستهن احد بحداثتك بل كن قدوة للمؤمنين فى الكلام فى التصرف فى المحبة فى الروح فى الايمان فى الطهارة الى أن أجيء .. اعكف على القراءة والوعظ والتعليم ... اهتم بهذا وكن فيه لكى يكون تقدمك ظاهرا فى كل شيء . لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك لأنك ان فعلت هذا تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضا » (١ تى ٤ : ١٢ — ١٦) .

ولا يسع المجال هنا أن نذكر جميع نصوص الكتاب وأوامر المجامع وأقوال الآباء عن شرف هذه الوظيفة وسموها ، والواجبات المطلوبة من الكهنة ، والفضائل التى يجب أن يكونوا حاصلين عليها ، والاستعداد التام لقبول هذه الدرجات المقدسة .

وحبا فى الاختصار نورد هنا بعض أقوال الآباء الذين وضعوا المؤلفات الثمينة فى هذا الصدد :

وقال القديس **غريغوريوس الثاولوغس** « لا يقدر أحد فى العالم أن يعلم غيره صناعة ان لم يكن هو قد درسها قبلا وطالعها بانتباه تام ، فكيف اذن ينخرط البعض فى الأكليروس و يقبلون الخدمة الرعوية من غير استعداد البتة . مع أن ادارة النفوس صناعة من أهم الصنائع » .

وقال **القديس غريغوريوس** الكبير « ان أولئك الذين خصهم الله بمواهب سامية هم أسمى من سواهم ويمتازون بميلهم الى خير الغير فهم أتقياء والفضل فى ذلك لفقههم .. وأقوياء نتيجة امساكهم ، وميالون للجميع بقوة المحبة التى تورث البرارة . فان دعى مثل هؤلاء الى الخدمة الرعوية ورفضوها فيهلكون مواهبهم التى خصهم الله بها ، فلا تعود تنفعهم ولا تنفع غيرهم ، لاسيما الذين تخرجوا من مدارس لاهوتية ، عليهم أن يتذكروا قول الرب « الحصاد كثير والفعلة قليلون » وأيضا لا تخفى مدينة مبنية على جبل ، ولا يوقد سراج و يوضع تحت المكيال بل على المنارة ليضيء على كل الذين فى البيت ، ولذلك يقول الرسول بولس ان اشتهى أحد الاسقفية يشتهى عملا صالحا .. من عنده كل الصفات اللائقة لرعاية قطيع الله ولا يقبلها فهو لا يحب رئيس الرعاة . و بالعكس من يقبل على خدمة الكهنوت باستحقاق يبرهن بذلك على محبته لله وللقريب محبة تدفعه الى أن يبذل نفسه أمام الله » .

قال أيضا « ان على راعى الكنيسة أن يقف مع الملائكة وأن يسبح مع رؤساء الملائكة ، وأن يقدم الذبيحة على المذبح الذى هو فى الاعالى ، وأن يقدس الأسرار مع المسيح وأن يعمل كل شيء للبنيان » وقال « انه لمشين للانسان أن يأخذ على عاتقه العمل المقدس ولا يتقدس كأن يقبل الى قدس الأقداس بأيد غير نظيفة ونفس مدنسة . فكأن خدمة الهيكل لا يعدون وظيفتهم مثالا للفضيلة فيتزاحمون و يتضاربون حول المائدة المقدسة ظانين أن وظيفتهم هذه ليست مثالا للفضيلة بل وسيلة لاقتناء المعاش ، ولا يفكرون بما على صاحبها من المسئولية العظمى حاسبين اياها سلطة غير محاسبة عما تأتى به من الأفعال فمثل هؤلاء الخدمة القليلى التقوى الذين وهم فى حالة السعادة يستوجبون البكاء والنحيب كادوا يكونون أكثر عددا من مرؤوسيهم الذين هم على هذه الصورة ، فالجدير بمن على هذه الشاكلة أن يتعلم أولا واجباته ثم يحمل على عاتقه هذه المهمة . والا فمثله يكون مثل من يأخذ على عاتقه وظيفة التعليم وهو غير أهل لها ، وكمثل رجل أراد أن يتعلم عمل القدور رأسا من نظره الى قدر كبير ، فلا شك أن مثل هذا جاهل وأحمق » ثم بدأ هذا القديس يوبخ الذين قبل أن يعرفوا أسماء الكتب المقدسة وكتابها ومؤلفيها ، انهم لدى استظارهم كلمتين أو ثلاث بالسمع لا بالكتب يظنون أنفسهم معلمين ماهرين و يريدون أن يدعوهم الناس يامعلم » .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « الكهنوت يكمل على الارض ولكنه مشروع سماوى ، فانه لا انسان ولا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا غيرها من قوات مخلوقة أقام هذه الخدمة ، بل الروح القدس نفسه هو الذى رفع الانسان وهو على الأرض الى رتبة الملائكة ، ولذلك فعلى الكاهن أن يكون نقيا طاهرا كأن بين الملائكة أنفسهم . أيفتكر الانسان حين يرى الرب (1) يقدم ذبيحته والكاهن أمام المذبح يصلى و يرش الجميع بالدم الذكى أنه بين العالم وعلى الأرض . كلا ثم كان فان العقل يصعد الى السماء و يطرح الأفكار العالمية جانبا . فالكهنة انتدبوا ليديروا السماويات وهم على الأرض ، وأخذوا سلطانا لم يعطه الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة . لأنه لم يقل لهؤلاء ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء وما تحلونه على الارض يكون محلولا فى السماء . . »

و بعد أن تكلم عن نقاوة الكاهن الادبية اللائقة بخدمته السامية قال ، كيف يجب أن يكون ذاك الذى يصلى عن بلدة بأسرها لا عن العالم كله و يطلب من الله تعالى مغفرة خطايا الاحياء والإموات أيضا . بالحق أنا أعد أن جسارة موسى وايليا غير كافية لذلك . لان الكاهن يتقدم الى الرب كأنه موكل عن كل العالم ، وكأب للجميع ، و يصلى لكى يمنع الله الحروب

(1) ربما قصد بقوله ... الرب يقدم ذبيحته أن سر الشكر هو عطية من السيد المسيح الذى أعطانا جسده ودمه على المذبح بفعل الروح القدس وليس عن استحقاقنا ، وما الكاهن الا واسطة ولذا قال (الرب يقدم ذبيحته) .

ويخمد الفتن ، و يطلب تعميم السلام وخصب اثمار الارض ، وزوال المصائب . ولذلك يجب أن يفوق من يصلي عنهم بمقدار ما يفوق المحامي عنه . وأي نقاوة تطلب منه حين يستدعي الروح القدس و يكمل الذبيحة الالهية الرهيبة ، و يلمس سيد العالم ، بل يضعه في قلبه . وأي نقاوة يجب أن تحويها تلك الايدي التي تخدم ذلك وكيف يجب أن يكون اللسان الذي يفوه بكلمات التقديس ، وكم تكون مقدسة التي تقبل الروح الكلي قدسه فان الملائكة وكل الطغمات السماوية تقف اذ ذاك أمام الكاهن على المائدة المقدسة متهللة ... فلا عجب بعد أن علمنا ذلك اذا رأينا الرجال العظام كالاناء المصطفى الذي خطف الى السماء الثالثة واستحق أن يرى أسرار الله يرهبون دائما لدى نظرهم الى أهمية هذه الوظيفة » .

وعندما بدأ بذكر الاسباب التي دعته الى الهروب من قبول وظيفة الكهنوت قال « فليتهموني بمحبة الشرف والمجد الفارغ ، اذا كان يكفي فقط في رياسة الكهنوت أن أسمى راعيا وأتمم هذه الوظيفة كيفما كان ولا يكون خطر من ذلك ... على الذين يقتبلون الرعاية أن يكونوا ذوي فكر ثاقب ، وأن يعرفوا مقدار هذه النعمة العظيمة ، وأن يتجملوا بالآداب اللازمة الكاملة ، وأن يتزينوا بالفضيلة أكثر من بقية الناس . فأنت (القديس باسيليوس الذي كتب له) لا ترفض أن تسامحني لاني ما أردت أن أهلك نفسي عبثا و بدون فكر ... فأنا أعرف ذاتي وأعرف ضعفها وحقارتها وأعرف أهمية الخدمة وصعوبة العمل العظيم ... فأمواج الشهوات والآلام تهزم نفس الكاهن أكثر من الامواج التي ترفعها الريح عن سطح البحر ، فتظهر قبل كل شيء صخرة المجد العظيم الاشد خطرا من صخرة سيرين (١) فمن عهد الى برياسة الكهنوت يكون قد أوثق يدي الى الوراء ودفعني حيا الى تلك الصخرة لتفترسني الوحوش . وما هي هذه الوحوش ؟ هي : غيظ ، ضعف ، حسد ، شتم ، اتهام ، شهادة زور ، رياء ، حيلة ، غضب نحو من لم يحزننا ، محبة المديح ، محبة الشرف ، التعليم لاظهار السلطة ، التمليق ، اللطافة بمقاصد ، احتقار المساكين ، خدمة الاغنياء ، المجد المضر ، الخوف الذي هو من خصائص الجبناء ، عدم الجسارة ، التظاهر بالتواضع ، عدم توبيخ الاغنياء ، و بالاحرى توبيخ الفقراء ، والاعراض عن الغني السائد خوفا منه » .

ثم تطرق الى ذكر ذنوب الكاهن فقال « انه (أي الكاهن) لا يقدر أن يخفي ما يرتكبه من الاثام ولو كانت طفيفة ، لانها تصير معلومة لدى الجميع حالا . وأما الذنوب التي يرتكبها العامة فتحدث كما في ظلمة وتهلك مقترفيها وحدهم ، بخلاف خطايا الرجل الشهير المعروف لدى الجميع فانها تجلب مضرة عمومية ، ولذلك يجب أن ينتخب للكهنوت من كان شبيها بالفتية القديسين الذين طرحوا في الأتون البابلي . ويجب أن ينظر في المنتخب الى أعماله الداخلية

(١) حيوان غريب كان على زعم الميثولوجيا يجذب الملاحين بنشائده الرخيمة ثم يهلكهم .

والخارجية وتقواه لا الى أعماله الظاهرة ... انني أعرف كثيرين ممن كانوا يرضون الله في خدماتهم بالتقشف والزهد ولكنهم لما دخلوا بين العالم واخذوا في تهذيبه فبعضهم لم يقدروا على هذا العمل وانسحبوا عنه . والفريق الآخر أجبروا على البقاء ولكنهم تركوا خطتهم السابقة فأضروا كثيرا بأنفسهم ولم ينفعوا الغير. وأنا لا أعد من قضى عمره في وظيفة دنيئة أهلا للارتقاء الى وظيفة عالية ... فعلى من أراد أن يشرطن أحدا أن يمتحن المشرطن وعلى هذا المشرطن أن يمتحن نفسه قبل الدخول في الكهنوت ... وعلى الكاهن أن يكون متعلما وضليعا في الكتاب المقدس وثابتا في عقائد الايمان القويم ليتمكن من أن يجادل و يعظ ... بسبب عدم خبرة كاهن واحد يقاد كثيرون الى الهلاك . وعلى الخصوص يجب أن يهتم الكهنة بانماء موهبة الكرازة وخصوصا المتعلمين منهم فان غير المتعلم اذا لم يعظ لا يندد عليه الشعب ، وأما المتعلم فيقرع من الجميع . فعليه اذن بالتمرين لئلا يفقد موهبة الوعظ والانذار بسبب عدم التمرين عليها » (كتابه في الكهنوت) .

وقد وضع القديس **ايرونيموس** في سنة ٢٩٣ كتابا دعاه « حياة الاكليروس » قاوم به ما اشتهر به بعض كهنة الغربيين من النقائص وقدم لخدام الكنيسة النصائح الثمينة التي تتعلق بخدمتهم . ننقل هنا بعض فقرات منه . قال : يجب قبل كل شيء على من كرس نفسه لخدمة كنيسة المسيح أن يفهم معنى اسمه ، ومتى فهمها عليه أن يجرى بموجبها . لأن كلمة اكليروس هي يونانية ومعناها ميراث أو نصيبي ، وقد سمى الاكليروس هكذا لأنهم ميراث الرب أو لأن الرب ميراثهم ونصيبهم . فعليهم اذن أن يسيروا بحسب ما يطلبه اسمهم أى كأناس استحقوا الرب هاتفين مع النبي « الله هو نصيبي » وعليهم أن لا يميلوا الا الى الله لا الى الربح العالمى الخسيس ، ليكون الله معهم والا فيقال عنهم ، رفضت ميراثي ... صار لي ميراثي كأسد في الوعر نطق على بصوته من أجل ذلك أبغضته ... رعاة كثيرون أفسدوا كرمي . داسوا نصيبي جعلوا نصيبي المشتهى برية خربة . جعلوه خرابا ينوح علي وهو خرب (ار ١٢ : ٧ ـــ ١٣) ثم قال هذا القديس : « أهرب من الكاهن الذى كان فقيرا ثم أثرى بواسطة معطاة الاعمال التجارية كهربك من الافعى والنار، فان مثل هذا الكاهن الذى يهتم بأسباب المعيشة العالمية يحصل لنفسه اسما رديئا ... » ثم يوجه القديس الكلام الى الكاهن موصيا اياه الا يطمع في مال الغير والا يقبل أى شيء كان حتى ولو على سبيل الهدية بقوله ، من يقدم لك شيئا وتقبله منه يقل احترامه لك ، و بالعكس يزداد احتراما لك اذا اعرضت عن هديته . لا تجتمع بالسهرات والولائم مع العلمانيين ، واحرص من أن تشتم منك رائحة الخمر اذا كانت حرارة الشباب متقدة في بدون أن أشرب خمرا فعلي بالابتعاد عنه لانه لا يخلو من جزء يسير من السم .. ضع نفسك من الاصوام بمقدار ما تقوى على احتماله . ولكن يجب ان تكون أصوامك نقية بلا لوم و بدون تظاهر و باعتدال ، لانه ما هي الفائدة من الامتناع عن المآكل المطبوخة بالسمن اذا كنا نعد لانفسنا

مائدة تجمع الاطعمة اللذيذة المتعددة . وهل ياترى يكون صومنا صوما اذا كنا غارقين فى الملذات ، فالصوم الحقيقى هو المقتصر على الخبز والماء ... ابعد ايها الكاهن عن الملابس الفاخرة وعن الدنيئة أيضا ، لان فى الاولى تظهر الفخفخة ، وفى الثانية يستترحب الجد . فاذا كنت لا تلبس الثياب الناعمة يعد لك ذلك خدمة كبيرة وانما يكون لك الاحترام الزائد اذا لم يكن عندك دراهم كافية لابتياع الثياب ، والمضحك المشين هو أن يكون جيبك مملوءا من الاصفر الرنان وتظهر نفسك للعالم خاليا من منديل . طالع الكتاب المقدس بقدر طاقتك ، والاجدر ان لا تدعه من يدك ، وما يلزم ان تعلمه للغير تعلمه انت أولا . احتفظ لئلا تناقض اقوالك بأفعالك فتحمل سامعيك أن يقولوا لك لماذا أنت لا تفعل مثل ما تعلم . وعندما تعلم فى الكنيسة لا تجتهد أن يمدحك سامعوك بل اجتهد أن يتنهدوا من عمق النفس . ولتكن دموع سامعيك دون سواها مديحا لك . رصع عظاتك بدرر الكتاب ولا تظهر الحدة فى الانذار وتنادى بأعلى صوتك دون أن تدرى ما تفعل » .

وقال القديس غريغوريوس النزينزى « يجب ان نكون أطهارا لكى نطهر غيرنا ، وان نتعلم لكى نعلم ، وان نكون انوارا لننير ، وأن نقترب من الله لنحمل غيرنا على الاقتراب منه ، وان نقدس انفسنا لنقدسهم » .

والخلاصة أن هذه الوظيفة هى وظيفة تكريس الذات لله وللناس . وتقتضى ان تكون حياة الراعى ضحية دائمة للجميع ، يفرح مع الفرحين ، و يتألم مع المتألمين . ويجب أن يكون فيه روح الرسول بولس القائل « من يضعف وأنا لا أضعف . من يعثر وأنا لا التهب » (٢ كو ١١ : ٢٩) « صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء . صرت للكل كل شىء لأخلص على كل حال قوما . وهذا أنا أفعله لأجل الانجيل لأكون شريكا فيه » (١ كو ٩ : ٢٢ و٢٣) .

كلمة ختامية

هذه هي اسرار الكنيسة السبعة التي أسسها مخلصنا له المجد كينابيع بركات تفاض على المؤمنين ، تنبع من كنز استحقاقاته الخلاصية التي اشتراها لنا بدمه الكريم ، وعلى اعمدتها أسس كنيسته المقدسة كما قال الحكيمم « الحكمة بنت بيتها . نحتت أعمدتها السبعة » (أم ٩ : ١) فالحكمة هي يسوع المسيح ربنا . والبيت الذي بناه هو كنيسته المقدسة ، وأما اعمدتها السبعة فهي الاسرار السبعة التي سلمها لرسله الأطهار، ومنهم تسلمتها الكنيسة جيلا بعد جيل ، ولا تزال تمارسها لفائدة أبنائها واعضائها .

واذ تأملنا رأينا أن هذه الأسرار تحيي فينا الفضائل الالهية الثلاث وهي الايمان والرجاء والمحبة . اذ تعلمنا أن الايمان هو الاساس الأول والشرط الذي لا بد منه للاشتراك في كل سر من هذه الاسرار، وأنه اليد التي تمتد لتناول البركات من يد المسيح نفسه مفيض النعم وواهب الخيرات و بالرجاء تنتظر أرواحنا النعم التي وعد بأن يفيضها بواسطتها ، حيث وعد بموهبة خاصة لكل سر منها ، فلنتوقع راجين نيل تلك الهبة الموعودة . وكم تفيض قلوبنا محبة وشكرا لمخلصنا الذي منحنا احساناته التي لا تحصى مجانا بلا ثمن . وكم نشعر بروح المحبة والاخاء لجميع المؤمنين عندما نعرف بأننا اعضاء بعضنا لبعض « لأننا جميعا بروح واحد أيضا اعتمدنا الى جسد واحد يهودا كنا أم يونانيين ، عبيدا أم أحرارا وجميعا سقينا روحا واحدا » (١ كو ١٢ : ١٣) « فاننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأنا جميعنا نشترك في الخبز الوحد » (١ كو ١٠ : ١٧) .

ومتى تأملنا في كل سر من هذه الاسرار مجدنا الله تعالى على نعمه وآلائه ، واعترفنا بجوده واحسانه ، وتذكرنا سقوطنا في الخطية ، وتبريرنا مجانا بدم مخلصنا الكريم وتقديسنا بنعمة روحه الأقدس طالبين من الله تعالى أن يثبتنا في ايمانه القوم . فاننا بالمعمودية اعترفنا أمام الله وأمام كنيسته المقدسة بأننا جحدنا الشيطان ورفضنا أعماله ، وأقبلنا الى مملكة النور، وتطهرنا من خطايانا وولدنا ثانية ميلادا جديدا بالماء والروح ، وصرنا أبناء لله ووارثين الحياة الابدية . فمن لا يشعر بثقل الواجبات المترتبة على ذلك ، وأي اجتهاد يجب أن نبذله لنتمم خلاصنا بخوف ورعدة !!

و بسر المسحة المقدسة نلنا عطية الروح القدس ومواهبه ، لتثبيتنا في الايمان والحياة الروحية ، ولتعليمنا وارشادنا ، فكم يجب المحافظة على هذه النعمة منتبهين الى قول الرسول « لا تطفئوا الروح » (١ تس ٥ : ١٩) « اذن لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح

يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح » (رو ٨ : ١) « أما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح ايمان وداعة تعفف » (غل ٥ : ٢٢ و٢٣) .

و بتناولنا سر الافخارستيا نأكل جسد الرب ونشرب دمه ، ونقتبل في داخلنا يسوع المسيح نفسه . وبهذا نثبت فيه وهو يثبت فينا ، وننال الحياة الابدية . ونذكر ذبيحته الكفارية التي قدمها على الصليب من أجل فدائنا وتبريرنا . فبأي تهيب نقبل الى هذا السر الاقدس ، وكم يجب علينا أن نستعد لاقتباله بكل ورع وايمان ومحبة ، وقلب مملوء بالشعور الحي لنيل هذه الذخيرة المقدسة .

و بسر التوبة نتصالح مع الله ونتقدم اليه بالانسحاق والخشوع ، ونعترف بخطايانا نادمين عليها عازمين على عدم العودة اليها ، لنعيش بالتقوى حتى نثمر أثمار التوبة الحقة (مت ٣ : ٧) .

و بسر مسحة المرضى نلجأ الى الله تعالى عند المرض قبل الالتجاء الى الأطباء ، و به ينال المريض ليس شفاء الجسد فقط ، بل شفاء الروح أيضا . و بذلك نبارك الله ونخصص حياتنا لمن بيده امرنا .

وفي سر الزيجة يرتبط الزوجان برباط مقدس و يكونان جسدا واحدا ، و يعدان بأن يعيشا بالامانة والصلاح ، و يربيا أولادهما التربية المسيحية المطلوبة لمجد الله وخير الكنيسة .

أما الذين ينتدبون الى الوظيفة الكهنوتية فينالون نعمة من الله وسلطة لتدبير امور الكنيسة ، واتمام طقوس الاسرار المقدسة فكم يجب عليهم أن يتقدسوا ليقدسوا غيرهم و ينتبهوا الى واجباتهم العظمى ليرعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه (أع ٢٠ : ٢٨) .

هذه أيها القارىء أسرار الكنيسة السبعة المقدسة ، مبرهنة بأقوال الكتاب وشهادة التاريخ وأقوال الآباء . ولقد اتضح لك انها مؤسسة على الحق ، فلنثبت على صخرة الايمان المستقيم ، لاجتناء فوائد وأثمار هذه البركات باستحقاق ، لننال فيض النعم ونحصل على مواعيد الله ، في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الابدية .

ولربنا المجد دائما ابديا آمين ، ، ،

كلمة المراجع

حمدا لله الذى أتاح لى فرصة أشبعت فيها حنينى الى أيام التلمذة بالكلية الاكليريكية على يد الرائد العظيم والوالد المحب والأستاذ العالم الأرشيدياكون حبيب جرجس مدير الكلية السابق رحمه الله . فقد كانت مراجعتى لهذا الكتاب دراسة جديدة لى وامتلاءا يزيد اليقين بسمو العطايا الروحية التى لنا فى أسرار الكنيسة المقدسة .

وكانت مهمتى هى المراجعة لتدارك خطأ مطبعى أو سهو. ولكن تحقيقا للغرض المقدس من وضع هذا المؤلف الثمين وتكريما للجهود الجبارة التى بذلت فى وضعه وتنسيقه ، رأيت أن أوضح فى الهوامش ما قد يعسر فهمه على بعض القارئين .

واذا كانت جمعية المحبة وعلى رأسها الاستاذ يونان نخلة قد قامت بجهود مشكورة فى خدمة الكنيسة والمجتمع والانسانية فان اهتمامها بنشر الثقافة الدينية عن طريق طبع المؤلفات وتوزيعها تجاوب — لا سيما فى هذه الايام — مع وزارة التربية والتعليم فى هذا الشأن وان الجمعية لتستحق الثناء والتشجيع .

أرجو أن يعرف المؤمنون قدر هذا المؤلف لينالوا من مناهله العذبة وتتغذى وتشبع نفوسهم من دسمه عزاء وسلاما بصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس وسائر الآباء الموقرين .

ولالهنا المجد والكرامة من الآن والى الأبد . آمين .

الراجى عفوه

القمص

ابراهيم عطيه

محتويات الكتاب

تمهيد

١ ــ سر المعمودية

٢ ــ سر الميرون

٣ ــ سر الشكر أو الافخارستيا

٤ ــ سر التوبة

٥ ــ سر مسحة المرضى

٦ ــ سر الزيجة

٧ ــ سر الكهنوت

رقم الايداع بدار الكتب ٧٩/٢٩٣١
الترقيم الدولى ٢ ــ ٦٩ ــ ٧٢٨١ ــ ٩٧٧

طبع بشركة هارمونى للطباعة
تليفون ٦١٠٠٤٦٤ (٠٢)

مكتبة المحبة

٣٠ ش شبرا - القاهرة ت: ٥٧٥٩٢٤٤ / ٥٠٧٧٤٤٨